سلامة الحواس الخمس للقاضي في مجلس القضاء دراسة فقهية مقارنة

أ. م. د. قاسم صالح علي محمد العاني
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة الأنبار
قسم علوم القرآن

المقدمة:

الحمد لله القائل:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

الإسراء: ٣٦

والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل:

(إذا تقاضى إليك رجلان فلا تقضين للأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف تدري كيف تقضي) رواه الترمذي[١].

ورضي الله عن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فيقول ابن تيمية:

(فالمقصود من القضاء أن يصل الحق إلى أهله، وقطع المخاصمة كما يقول العلماء، فوصول الحقوق إلى أهلها هو المصلحة وقطع المخاصمة إزالة المفسدة، ووصول الحقوق هو من العدل الذي تقوم به السموات والأرض. وقطع الخصومة هو من باب دفع الظلم والضرر، وكلاهما ينقسم إلى إبقاء موجود ودفع مفقود، ففي وصول الحقوق إلى مستحقها يحفظ موجودها ويحصل مقصودها، وفي الخصومة يقطع موجودها ويدفع مفقودها، فإذا حصل الصلح زالت الخصومة التي هي إحدى المقصودين)[٢].

ويقول ابن القيم في بيان وظيفة الحواس الخمس الظاهرة:

(وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة، لتتمكن بها من مطالعة الأشياء... ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمساً في مقابل المحسوسات الخمس ليلقى خمساً بخمس، كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة؛ فجعل البصر مقابلة المبصرات، والسمع في مقابلة الأصوات، والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات، والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات،

واللمس في مقابلة الملموسات، فأي محسوس بقي بلا حاسة)[٣].

وكل هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس لها اتصال بالمخ بأعصاب أو بغير أعصاب.

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية الموضوع من عدة نواح، هي:

أولا: إنها أمانة الحواس يسأل عنها صاحبها يوم القيامة، أمانة يرتعش الوجدان لجسامتها ودقتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة، قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ
لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ
شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ
أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ
كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ ﴾ سورة فصلت.

ثانيا: الحواس الخمس كالجداول والرواضع ترضع من أثداء الأشياء التي تلابسها وتأخذ ما فيها من معانيها وأوصافها وتؤديها إلى القلب «المخ» وتنهيها[٤].

ثالثا: التثبت من كل خبر أو كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل والجوارح والحواس لم يبق للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل[٥].

خطة البحث:

سميت البحث: «سلامة الحواس الخمس للقاضي في مجلس القضاء» دراسة فقهية مقارنة.

واقتضت خطة البحث المنهج الآتي:

المبحث الأول: حقيقة الحواس الخمس وحكم سلامتها للقاضي عند الفقهاء في مجلس القضاء.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حقيقة الحواس الخمس عند العلماء وحكم سلامتها للقاضي في مجلس القضاء.

المطلب الثاني: مجلس القضاء عند الفقهاء.

المبحث الثاني: ضوابط حاسة البصر للقاضي في مجلس القضاء،

ويتضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: حكم تولي الأعمى «فاقد البصر كلياً» القضاء.

المطلب الثاني: مشكلات الرؤية للقاضي في مجلس القضاء.

المطلب الثالث: حكم نعاس القاضي في مجلس القضاء.

المطلب الرابع: حكم نظر القاضي إلى الخصمين في مجلس القضاء.

المبحث الثالث: ضوابط حاسة السمع للقاضي في مجلس القضاء،

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حكم تولي الأصم القضاء.

المطلب الثاني: حكم الاستماع للخصمين في مجلس القضاء.

المطلب الثالث: حكم القاضي ينفذ ظاهرا أم باطنا.

المبحث الرابع: ضوابط حاسة الشم للقاضي في مجلس القضاء.

المبحث الخامس: ضوابط حاسة التذوق والنطق للقاضي في مجلس القضاء.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حكم تولي الأبكم القضاء.

المطلب الثاني: حكم قضاء القاضي وهو جائع أو شبعان في مجلس القضاء.

المبحث السادس: ضوابط حاسة اللمس للقاضي في مجلس القضاء

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حكم قضاء القاضي في مجلس بارد شديد البرودة، أو حار شديد الحرارة.

المطلب الثاني: حكم مصافحة القاضي للخصمين.

ثم الخاتمة والمراجع

داعيا الله تعالى السداد في الرأي إنه هو السميع البصير..

المبحث الأول:

حقيقة الحواس الخمس وحكم سلامتها للقاضي عند الفقهاء في مجلس القضاء.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حقيقة الحواس الخمس وحكم سلامتها للقاضي عند الفقهاء في مجلس القضاء.

يقول فرانسيسكابانيز: توجد أكثر الأعضاء الحسية الخارجية كالعينين والأذن والأنف واللسان في الرأس، بينما توجد المراكز الحسية الخاصة بحاسة اللمس في الجلد، يستجيب كل عضو من الأعضاء الحسية للتغيرات التي في البيئة المحيطة به والتي تعرف بالمثيرات وقد يكون المثير عبارة عن تغير في الضوء أو الصوت أو المذاق فيعمل المثير على دفع المراكز الحسية، ليرسل إشارات يمكننا معرفتها وفهمها كالرؤية أو الصوت أو المذاق. فيعمل المثير على دفع المراكز الحسية، ليرسل إشارات إلى المخ، فيحول المخ هذه الإشارات إلى أشياء يمكننا معرفتها وفهمها كالرؤية أو الصوت أو المذاق.

تعد المعلومات الصادرة عن الحواس مهمة للغاية، لأنها تساعدنا في حماية أنفسنا، والاستمتاع بعالم من البصريات والأصوات والنكهات والروائح[٦]. إذن لكل إنسان منا خمس حواس رئيسة تتمثل في:

١. حاسة البصر:

البصر عند علماء اللغة: حس العين، ويراد به حاسة الرؤية، وقد يراد به العين[٧].

اصطلاحاً: هو النور الذي تدرك به الجارحة المبصرات الأضواء والألوان والأشكال والبصر ضد العمى[٨].

تحول العين الضوء المنعكس من الشمس وغيرها من مصادر الضوء إلى نبضات عصبية، بعد ذلك تتحول تلك النبضات إلى صور نستطيع رؤيتها بفضل جزء يوجد بالمخ يسمى «القشرة المرئية»، وتستمر طول مدة اليقظة.

فضلاً عن حركة العين المستمرة عند النظر في وجه شخص ما، حيث تستمر العينان بالنظر في شكل الوجه متجولتين تجمع المعلومات[٩].

٢. حاسة السمع:

لغة: حس الأذن، ويراد به الأذن، وقيل: هي قوة فيها تدرك بها الأصوات[١٠].

اصطلاحاً: وبنفس المعنى اللغوي عرفت حاسة السمع بأنها قوة تدرك بها الأصوات.

فالأذن جهاز أتقن تصويره وتكوينه وتنظيمه والتي عن طريقها تعرف الأصوات ودرجاتها وشدتها، تحتوي في داخلها على شعيرات دقيقة حساسة للصوت بدونها تمنع الصوت[١١].

٣. حاسة الشم:

لغة: حس الأنف، فعله شم[١٢].

اصطلاحاً: هي قوة أودعها الله تعالى بالأنف تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة، وليستنشق به الهواء[١٣].

عند التنفس من الأنف، فإن الشعيرات الدقيقة التي تعرف بالأهداب تمكن الإنسان من تمييز الروائح المنتشرة في الجو.

٤. حاسة التذوق:

لغة: طعم الشيء، والنطق: التكلم بصوت وحروف تعرف بها المعاني[١٤].

اصطلاحاً: التذوق: هي قوة في اللسان يتميز بها الطعم[١٥]. واستعمل الفقهاء المعنى اللغوي للنطق.

٥. حاسة اللمس:

لغة: الجس باليد، ولمس الشيء: أمكن من لمسه[١٦].

اصطلاحاً: هي حاسة تساعد في التعرف على الكثير من خصائص الأشياء أكان صلبا أم طريا أم ساخنا أم باردا أم خفيفا أم ثقيلا أم ناعما أم خشنا[١٧].

الجسم مغطى بطبقة جلد حساسة، فالجلد تحته مراكز حسية تساعد في لمس الأشياء والشعور بالحرارة والبرودة والألم.

بوساطة هذه الحواس يمكن معرفة العالم من حولك، والمعلومات الصادرة عن الحواس مهمة للغاية، لأنها تساعد في حماية النفس، والاستمتاع بعالم من البصريات والأصوات والنكهات والروائح.

ترسل الأعضاء الحسية داخل الجسم إشارات إلى مركز التحكم في الجسم المخ بما يحدث داخل الجسم وخارجه، يطلق على أجزاء العضو الحسي التي تستقبل المعلومات «الخلايا المستقبلة»، تستقبل كل خلية مثيرا معينا مثل الضوء الساطع أو الأجسام الساخنة أو الصوت المرتفع.

يتحكم المخ في الجسم، لأنه يتصل بهذه الخلايا المستقبلة المنتشرة في الجسم كله[١٨].

حكم سلامة الحواس للقاضي في مجلس القضاء عند الفقهاء:

سلامة الحواس عند الفقهاء من الشروط[١٩] اللازمة لكمال الشيء، واتقانه، واحكامه أو من الواجبات غير الشرطية وهذا واضح من تقسيماتهم:

قال الحنفية[٢٠]:

فصل في من يصلح للقضاء: من تتوافر فيه شرائط: منها: العقل، البلوغ، الإسلام، الحرية، البصر، النطق،...

أو شرط القاضي: سلامة الحواس: السمع والبصر والنطق...

أوصفات القاضي: واجبة. . . وذكروا الحواس، السمع...

قال المالكية[21].

شروط القضاء التي تعتبر في القاضي ثلاثة أقسام:

١: قسم واجب على جهة الشرطية، كونه عدلا، ذكرا، فطنا، مجتهدا إن وجد وإلا فأمثل مقلد، ويجب عليه العمل بمشهور إمامه.

٢: قسم واجب على غير الشرطية، كونه بصيرا، سميعا، متكلما، فلا تجوز تولية أضدادها

وعلق الخرشي قائلا: لأن عدم هذه الأمور ليس شرطا في صحة ولايته ولا في صحة دوامها وإنما هو شرط في جواز ولايته ابتداء ودواما، ولذلك وجب عزله[22].

٣: قسم مستحب، كونه غنيا، بلديا، ورعا، حليما، مستشيرا للعلماء، غير مدين وكونه معروف النسب، وغير زائد في الدهاء، وغير محدود، وخاليا من بطانة السوء.

قال الحنابلة[23].

يشترط في القاضي ثلاثة شروط، أحدهما: الكمال، وهو نوعان: كمال الأحكام، وكمال الخلقة...

وكمال الخلقة: أن يكون متكلما، سميعا، بصيرا...

قال الشافعية:

وشرط القاضي: مسلم، مكلف، حر، عدل، سميع، بصير، ناطق، مجتهد. . . .[24]

المطلب الثاني: مجلس القضاء عند الفقهاء:

قال الفقهاء: يستحب للقاضي أن يجلس للقضاء في موضع بارز يصل إليه كل أحد، وأن يكون فسيحا واسعا، لا يتأذى فيه الخصوم، ولا يؤدي إلى التأثير سلبيا على حكم القاضي.

والمتتبع للقضاة في عهد النبي ﷺ، والخلفاء من بعده لم يكن لهم مكان مخصص للنظر في القضايا، بل يقضون في أي مكان وجدوا فيه، وغالبا في المسجد، وهذا ما جعل الفقهاء يختلفون فيما بينهم في حكم القضاء في المسجد على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء[25] إلى كراهية القضاء في المسجد، وحجتهم:

١: قوله ﷺ: ((جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ورفع أصواتكم وخصوماتكم وحدودكم أو سل سيوفكم وشراءكم وبيعكم)). رواه ابن ماجه[26].

دلالته: لأن الخصومة يحضرها اللغط والسفه فينزه المسجد عن ذلك، ولأنه قد يكون الخصم جنبا أو حائضا، فلا يمكنه المقام في المسجد للخصومة.

٢: أن النبي ﷺ سمع رجلا ينشد ضالته في المسجد، فقال: ((لاوجدتها)) إنما بنيت المساجد لذكر الله والصلاة. رواه مسلم[27].

دلالته: ما عدا هذين ذكر الله والصلاة ينهى عنه في المساجد.

٣: لأن الخصوم تجري منهم التكاذب والتشاتم فنزه المسجد عن ذلك فضلا عن حضور المشرك النجس[28].

القول الثاني:ذهب بعض الفقهاء ومنهم أبو حنيفة إلى عدم الكراهية، وعلى القاضي أن يعلم الناس أنه جلس لفصل الخصومات لا لعبادة أخرى، وحجتهم:

أنه ﷺ، ومن بعده عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وغيرهم قد قضوا في المسجد[٢٩].

وأما جلوسه في داره، والقضاء فيه، فإن أذن للناس في الدخول إذنا عاما لا يمنع أحدا، لأن لكل أحد حقا في مجلسه فلا بأس به، لأن الحكم عبادة فلا تختص بمكان، ولكن الأولى أن تكون الدار وسط المدينة أو البلد[٣٠].

ويستحب في مجلس القضاء أيضا:

(أن يختار له بوابا، مهمته: ضبط الخصوم، يعلمهم بوقت راحته، يمنع الناس عنه)[٣١]. فضلاً عن اتخاذه مترجما عالما بالفقه.

أن يجلس معه أهل العلم إن لم يكن عالما بأحوال القضاء والمشاهدة[٣٢] ولاسيما في عصرنا هذا، لأن الكثير من القضاة لا علم لهم بأحوال القضاء والمشاهدة فضلا عن جهلهم الكبير بأحكام الشريعة الإسلامية.

والرأي الراجح:

المصلحة اليوم تقتضي تعين مكان للقضاء كالمحاكم، حتى يكون مكان المحكمة معروفا للناس، ويكون القضاء في أوقات معلومة ومحددة لكل قضية ، وأن يكون في وسط البلد حتى يصل إليه الجميع، فضلا عن أن يكون فسيحا، مكيفا، إنارته جيدة غير مؤثرة، وتجنب القضاء في المساجد للخروج من الخلاف، وللحفاظ على هيبة المساجد، تماشيا مع قول الجمهور.

المبحث الثاني: ضوابط حاسة البصر للقاضي في مجلس القضاء:

ويتضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: حكم تولي الأعمى «فاقد البصر كلياً» القضاء:

العمى لغة[٣٣]: هو ذهاب البصر كله، ولا يقع العمى إلا على العينين جميعا.

اصطلاحاً: هو عدم القدرة على التعرف على المرئيات العادية بالنظر إليها بسبب آفة في القشرة البصرية للمخ[٣٤].

أو هو الذي لا يميز بين الأشياء إلا بالصوت، ولا يميز الصورة وإن قربت[٣٥].

حكم تولي الأعمى القضاء:

المذهب الأول:

ذهب جمهور الفقهاء[٣٦] إلى أنه لا يجوز تولية الأعمى القضاء، وعلى النحو الآتي:

أولا: قال الحنفية: (فلا يجوز تولية الأعمى والمجنون والكافر والعبد)[٣٧]، وحجتهم:

١: قال الكاساني: (لأن القضاء من باب الولاية، بل هو أعظم الولايات، وهؤلاء ومنهم الأعمى ليست لهم أهلية أدنى الولايات)[٣٨].

٢: وقال الغينمي الحنفي:(لأن الأداء يفتقر إلى التمييز بين المشهود له والمشهود عليه، ولا يميز الأعمى إلا بالنغمة، والنغمة تشبه النغمة)[٣٩].

ثانيا: وقال الشافعية: (فلا يولى أعمى ومن يرى الشبح، ولا يميز الصورة وإن قربت)[٤٠]، وحجتهم:

١: قال النووي: (لأن فقد هذه الحواس منها البصر يمنع استيفاء الحكم بين الخصمين، ولأنه لا يعرف الخصوم والشهود)[٤١].

٢: قال الشربيني: (لأنه لا يعرف الطالب من المطلوب) [٤٢].

ثالثا: وقال المالكية: (لا خلاف في مذهب مالك أن السمع والبصر والكلام مشترطة في استمرارية ولايته)[٤٣].

وقال القرافي: (ما يقتضي عدمه الفسخ وإن لم يشترط في الصحة كونه سميعا بصيرا)[٤٤].

وحجتهم: لأن عدم الحواس يمنع من معرفة المقضي له أو عليه[٤٥].

و بالقول نفسه قال الحنابلة[٤٦] والزيدية[٤٧] وحجتهما:

لأنه لا يعرف المدعي من المدعى عليه، ولأنه لا يميز بين الأشياء إلا بالصوت، والصوت يمكن تقليده، وكونه بصيرا ليتعرف على المدعي والمدعى عليه والمقر له والشاهد عليه[٤٨].

مناقشة أدلة الجمهور:

١: إن الأعمى لا يعرف المدعي من المدعى عليه ولا الشاهد من المشهود له[٤٩].

ويرد عليه:

أنه لا حاجة لمعرفة الخصوم أو معاينتهم، لأن الحكم لا يتوقف على ذلك بل على البينات والأدلة[٥٠].

٢: عدم الإبصار يؤثر في قبول الشهادة فكذلك يؤثر في تولي القضاء[٥١].

ويرد عليه:

القضاء أوسع من الشهادة، لأن الشهادة تحتاج إلى الرؤية أو السماع، أما القضاء فلا، بدليل أنه يعمل فيه بالترجمة والتعريف بالشهود وتزكيتهم ونحو ذلك من الأمور التي ليست قطعية كالشهادة[٥٢].

٣: إن الأعمى ربما يخدع من أحد الخصوم أو الشهود بالنغمة أو الصوت[٥٣].

ويرد عليه:

يمكن للقاضي أن يتخذ أعوانا من كتاب وحجاب ومترجمين ونحوهم كما ذكرنا في مجلس القضاء ممن يخبرون القاضي بمثل هذا الأمر لو وقع[٥٤].

المذهب الثاني:

نسب ابن قدامة وغيره إلى أن بعض الشافعية يجوزون تولي الأعمى القضاء، وحكي عن الجرجاني في قول قديم بعيد أنه يصح توليته، وهو قول غريب[٥٥].

وحكي عن بعض الفقهاء جواز تولية الأعمى عند الإمام مالك وهو غير صحيح، أورده ابن فرحون ردا قاطعا، ونقل في اشتراط البصر الإجماع عن مالك وغيره. قال الباجي: لا خلاف في منع ولاية الأعمى، ولا نص لأصحابنا[٥٦].

ونسب لبعض الحنابلة بعدم اشتراط كون القاضي مبصرا، وهو اختيار ابن تيمية[٥٧].

وحجتهم:

١: أن شعيبا عليه السلام كان أعمى، والقضاء بعض وظائف الرسول.

ورد:

قال ابن قدامة: وما ذكروه عن شعيب أعمى،

فلا نسلم فيه، فإنه لم يثبت أنه كان أعمى، ولو ثبت أنه كان أعمى فلا يلزم لاحتمالات[58]:

أ - من آمن معه من الناس كانوا قليلا فلا يحتاجون إلى حكم بينهم لقلتهم.

ب - تناصفهم، وعدم وجود التنازع فلا يكون حجة.

ج - هو شرع من قبلنا وقد اختلف العلماء في عده شرعا لنا.

٢: اختير صحة ولاية الأعمى، «لأنه ﷺ استخلف ابن مكتوم على الصلاة وغيرها من أمور المدينة» رواه أبو داوود[59].

ورد:

المروي في السيرة أنه إنما ولاه إمامة الصلاة، وأسند الإمارة إلى أبي لبابة.

وقيل: هو خاص بابن أم مكتوم.

وقال الهيتمي: ويجاب بعد تسليم صحة ورود العموم الذي فيه باحتمال أنه استخلفه للنظر في أمورها العامة من الحراسة وما يتعلق بها لا في خصوص الحكم الذي الكلام فيه[60].

٣: القياس على الشهادة.

ورد:

القضاء ولاية عامة، والشهادة ولاية خاصة، والآفات تنافي القضاء وقد لا تنافي الشهادة[61].

٤: إن القضاء على الغائب صحيح، فيقاس عليه قضاء الأعمى، بجامع أن كلا منهما لا يرى المدعي بل يقضي على موصوف[62].

القول الراجح:

إذا وجد من هو أهل للقضاء من المبصرين فلا يولى الأعمى للخروج من الخلاف، ولأن المبصر أولى حينئذ، لأنه يشاهد الخصوم ويعرف أحوالهم، ولكن لو احتيج لتولية الأعمى للقضاء، بأن كان أهلا لذلك، ولم يوجد من يكفي من المبصرين فإنه تصح توليته من وجوه:

١: هناك من قال بجواز تولية الأعمى للقضاء ومنهم ابن تيمية وبعض الشافعية، وذكروا أدلة على ذلك كما بينا وإن اعترض عليها أكثر الفقهاء.

٢: هناك من أصيب بالعمى ويدرك بحسه السمعي أكثر مما يدرك البصير بحسه السمعي، مما يجعلها أقوى إدراكا بحاسة السمع ويعرف الأصوات، يقول ابن القيم: (من كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدسا... وجمع عليه همه فقلبه مجموع غير مشتت)[63].

٣: الواقع يشهد بوجود بعض الأكفاء من القضاة الذين لا يبصرون ممن لديهم من الذكاء والعلم وسرعة الفهم والفطنة وقوة الإدراك ما يفوقون به كثيرا من المبصرين مما يؤهلهم لتولي منصب القضاء، فقد ذكر الشافعية: أن أبا عصروف قاضي قضاة الشام عمي في آخر عمره واستمر قاضيا، وألف كتابا في جواز قضاء الأعمى[64].

عزل القاضي الأعمى عند الفقهاء:

اختلف الفقهاء على قولين:

القول الأول:

ذهب بعض الفقهاء إلى عزل الأعمى، وعدم تنفيذ حكمه، لانعزاله بالعمى، وهو قول الحنفية[65] والشافعية[66]، فقالوا:

إذا جن قاض أو أغمي عليه أو عَمِيَ أو ذهبت أهلية اجتهاده وضبطه بغفلة أو نسيان. . . لم ينفذ حكمه لانعزاله بذلك، ولأن هذه الأمور تمنع من ولاية الأب فالحاكم أولى.

وقال أبو حنيفة ومحمد: لأن قيام الأهلية شرط وقت القضاء، وصار كما إذا خرس أو جن أو فسق بخلاف ما إذا مات أو غاب.

القول الثاني:

ذهب المالكية[٦٧] إلى التفصيل: إذا حكم القاضي وهو أعمى فحكمه ينفذ حيث كان صوابا، وسواء تولى وهو على تلك الهيئة أو طرأ عليه ويجب عزله، لتعذر غالب الأحكام منه.

وعلق الخرشي قائلاً: إنما نفذ حكمهم، لأن عدم هذه الأمور ليس شرطا في صحة ولايته ولا في صحة دوامها وإنما هو شرط في جواز ولايته ابتداء ودواما، ولذلك وجب عزله[٦٨].

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: المالكية يشترطون سلامة الحواس في القضاء، ولكن لو خولف هذا الشرط وعين الأعمى. . وباشر القضاء فرعاية للمصلحة، واستقرارا للأمور، وحرمة للقضاء ينفذ حكمه، حتى لا يتحمل الناس أخطاء من بيدهم سلطة تعيين القضاة، إلا أن هذه المراعاة لا تعني استمرارهم بالقضاء[٦٩].

ولم يبين بقية الفقهاء مسألة عزل القاضي والظاهر هم يتفقون مع الحنفية والشافعية والله أعلم.

المطلب الثاني: مشكلات الرؤية « ضعف البصر» للقاضي في مجلس القضاء:

ذكر بعض الفقهاء ومنهم الشافعية بعض المشاكل التي تصيب العين مما يضعفه، ومنها:

١: الإصابة بعمى الألوان:

وهم الذين يخلطون بين اللونين الأحمر والأخضر، أو أنهم يرون الأشياء جميعها باللون الأسود والأبيض، والأبيض والأخضر فقط، ويكثر حدوثها في الأساس بين الذكور.

٢: الإصابة بطول النظر وقصره:

الأشخاص المصابون بطول النظر يستطيعون رؤية الأشياء البعيدة بوضوح، بينما يصعب عليهم رؤية الأشياء القريبة، فتكون غير واضحة.

والأشخاص المصابون بقصر النظر يرون الأشياء القريبة بوضوح دون البعيدة.

٣: الإصابة بالعشو الليلي:

الأشخاص الذين يبصرون في النهار دون الليل.

٤: الإصابة بالعور:

وهو فقدان لإحدى العينين.

٥: نزول الماء الأبيض والأزرق على العين.

يقول الفقهاء:

(فلا يولى الأعمى ولا من يرى الأشباح ولا يعرف الصور، لأنه لا يعرف الطالب من المطلوب، فإن كان يعرف الصور إن قربت منه صح)[٧٠].

وقال بعضهم:

(الأعمى من لا يميز الصورة وإن قربت بخلاف من يميزها إذا قربت بحيث يعرفها ولو بتكلف ومزيد تأمل، وإن عجز عن قراءة المكتوب، ومن يبصر نهارا فقط)[٧١].

وقال بعضهم: (فإذا كان أعور وهو فاقد لإحدى عينيه فلا يكون أعمى، فتصح ولايته للقضاء)[٧٢].

فهذه المشاكل يمكن معالجتها طبيا ولاسيما في عصرنا عصر التقنيات، مما لا تمنع تولي القاضي للقضاء.

المطلب الثالث: حكم نعاس القاضي في مجلس القضاء:

حقيقة النعاس عند العلماء: السِّنَةُ من غير نوم، أو هو فتور في الحواس تحصل من ثقل النوم[٧٣].

لا خلاف بين الفقهاء في أنه لا ينبغي للقاضي أن يقضي وهو نعسان، لأن النعاس يغمر القلب ويشغله عن الفهم، ولأنه في تيقظه يكون أجمع لقلبه، وأحضر لذهنه، وأبلغ في تيقظه للصواب، وفطنته لموضع الرأي[٧٤].

وقال الشافعية: (والحاكم أعلم بنفسه، فأي حال أتت عليه يتغير فيها عقله أو خلقه فينبغي أن لا يقضي حتى يذهب ذلك، وأي حال كان فيها اجتماع العقل والسكون حكم فيها سواء كان التغير لجوع أو غضب أو ملالة أو مرض أو نعاس أو حزن أو فرح)[٧٥].

وحجتهم: أن هذه الأشياء منها النعاس تمنعه من التوفر على الاجتهاد. وإن حكم صح عند أكثر الفقهاء، لأن النبي ﷺ حكم بين الزبير والأنصاري في حالة الغضب، وقيل: هذا خاص بالنبي ﷺ[٧٦].

وقال الخطابي: (الغضب يغير العقل، ويحيل الطباع عن الاعتدال، ولذلك أمر عليه الصلاة والسلام الحاكم أن يتوقف في الحكم مادام به الغضب، فقياس ما في معناه منه النعاس قياس الغضب في المنع من الحكم)[٧٧].

وسئل الإمام مالك: هل يكره للقاضي إذا دخله وهم أو نعاس أو ضجر أن يقضي وقد دخله شيء من الأشياء؟. فقال: لا ينبغي للقاضي أن يكثر جدا، إذا تخلط، يريد بهذا ألا يحمل على نفسه[٧٨].

المطلب الرابع: حكم نظر القاضي إلى الخصمين في مجلس القضاء:

لاشك أن منصب الحكم موضوع للعدل، وميل القاضي عن ذلك جور وظلم، ولهذا يقرر الفقهاء: يجب على القاضي العدل بين الخصمين في ثلاثة أمور: المجلس، اللفظ، اللحظ.

يقول ابن قدامة: (على القاضي العدل بين الخصمين في كل شيء من المجلس والخطاب واللحظ واللفظ... ولا أعلم فيه مخالفا)[٧٩].

وحجتهم:

١: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة المائدة.

وكل آية تأمر بالعدل، فيجب أن يسوي بين الخصمين بالنظر، وعدم اقتصار النظر إلى أحدهما.

٢: قوله ﷺ: (من بلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعده) وفي رواية (فَلْيُسَوِّ بينهم في النظر والمجلس والإشارة)[٨٠].

دلالته:

يقول المناوي: (وَلْيُسَوِّ وجوبا بينهم أي الخصوم أو الخصمين المتقاضيين عنده بدلالة السياق... في النظر إليهما معا أو عدم النظر إليهما معاً)[٨١].

ويقول الزيدية: (والتسوية بين الخصمين... والإقبال، لقوله ﷺ: «فيعدل بينهم»)[82].

٢: كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أُبيٍّ ﷺ:

(سوِّ بين الناس في مجلسك وعدلك، حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في حيفك)[83].

ومن ذلك التسوية في النظر إليهما معاً، وعدم الاقتصار على أحدهما.

المبحث الثالث: ضوابط حاسة السمع للقاضي في مجلس القضاء:

ويتضمن ثلاثة مطالب، وهي:

المطلب الأول: حكم تولي الأصم للقضاء:

الأصم لغة[84]: الذي ذهب سمعه. والمعنى نفسه يقرره الفقهاء، بأن الأصم الذي ذهب سمعه بسبب آفة أصابته[85].

أما حكم توليه القضاء عند الفقهاء فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يجوز تولي الأصم للقضاء، حتى نقل الإجماع على ذلك[86]. وعلى التفصيل الآتي:

١:قال الشافعية: (وشرط القاضي:.... سميع، فلا يتولى القضاء أصم لا يسمع أصلاً أو بالكلية بخلاف من يسمع بالصياح)[87].

وحجتهم[88]: لأنه لا يفرق بين إقرار وإنكار، ولا يسمع قول الخصمين.

وقال النووي: لأن فقد هذه الحاسة يمنع استيفاء الحكم بين الخصمين.

وقالوا: لم ينفذ حكمه في حال مما ذكر لانعزاله بذلك، لأنها تمنع من الولاية.

٢: قال المالكية: (ما يقتضي عدمه الفسخ وإن لم يشترط في الصحة: كونه سميعاً بصيراً)[89].

وحجتهم:لأن عدم الحاسة يمنع سماع الحجج الشرعية متكلماً، لنظر ما في نفسه من الاستفسارات والأحكام، وعدم بعض هذه يقتضي فسخ العقد تقدمت عليه أو طرأت بعده، فينفذ ما مضى من أحكامه إلى حين العزل.

وقال الخرشي: (ونفذ حكم أعمى وأبكم وأصم ووجب عزله، يعني أن القاضي إذا كان متصفاً بصفة من هذه الصفات فإن حكمه ينفذ حيث كان صواباً وسواء تولى وهو على تلك الهيئة أو طرأ بعده، ويجب عزله لتعذر غالب الأحكام عنه)[90] وسبق بيان ذلك في حاسة البصر في عزل القاضي.

٣: قال الحنابلة: يشترط في القاضي ثلاثة شروط، أحدهما: الكمال للأحكام، وكمال الخلقة، وكمال الخلقة يعتبر فيه السمع والبصر[91].

وحجتهم:

أ- قوله ﷺ: (فأقضي له على نحو ما أسمع منه)[92].

فيه دلالة:

الحكم بين الناس بالظاهر والله يتولى السرائر، فيحكم بما سمع من البينة واليمين.

ب- ولأنه لا يسمع قول الخصمين، الدعوى والإنكار والبينة والإقرار[93].

أمّا فقهاء الحنفية فلم يذكروا في كتبهم شرط السمع، فقال الكاساني: (من يصلح للقضاء لها شرائط، منها: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، البصر، والنطق)[94]. و بالقول نفسه ذكر صاحب كتاب الهداية ، ملتقى الأبحر، اللباب، رد المحتار،

وغيرها من كتب الحنفية المعتمدة وربما اكتفوا بذكر الأخرس لدلالته على الأطرش.

وأقول:

منع الفقهاء أن يكون القاضي أصم، أي: الذي لا يسمع أبدا، حتى لو وقع في أذنيه أقوى صوت في الدنيا لا يسمعه، والحجة عند الجمهور أنه لا يسمع كلام الخصمين كالدعوى والبينة والإقرار والإنكار، لأنّ الإشارة لا تكفي في فهم المراد فقد يسيء فهمها، لأنه قد يشير إلى شيء يتصوره القاضي شيئا آخر.

وهذا فيه نظر، فيمكن للقاضي أن يستعين بالكتابة، وبذلك تنتفي العلة بعدم سماع كلام الخصمين.

فالأولى أن يتولى القضاء السميع، وإذا تعذر ذلك فيجوز للضرورة والمصلحة تولي الأصم على شرط أن يتمكن من الكتابة بصورة واضحة ومقروءة والله أعلم.

المطلب الثاني: حكم الاستماع من الخصمين:

أجمع الفقهاء على وجوب العدل بين الخصمين في كل شيء، ومن ذلك الاستماع من الخصمين معا، وعلى النحو الآتي:

١: قال الحنفية:

(أن يسوي بينهما في النظر والنطق والخلوة، ولا يكلم أحدهما بلسان لا يعرفه الآخر) [95].

وفي قول آخر: (وإذا تكلم أحدهما أسكت الآخر حتى يسمع كلامه ويفهم ثم يستنطق الآخر، حتى يكون أقرب إلى الفهم) [96].

٢: قال الشافعية:

(وإذا حضر الخصمان بين يديه جلسا أو وقفا كما هو الغالب فله أن يسكت عنهما، حتى يتكلما، لأنه ربما هاباه، وله إن عرفه أن يقول له: تكلم... فإن طال سكوتهما بغير سبب من هيبة وتحرير كلام ونحوهما، قال: فما خطبكما؟.

والأولى بالخصم أن يستأذن القاضي في الكلام، فإذا ادعى أحدهما دعوى صحيحة طالب خصمه بالجواب وإن لم يسأله المدعي، لأن المقصود فصل الخصومة، وبذلك تنفصل) [97].

وفي قول آخر: (ليسو بين الخصمين في دخول عليه وقيام لهما، واستماع، وطلاقة وجه، وجواب سلام ومجلس، ...، واستماع لكلامهما ونظر إليهما، والجلوس بين يديه أولى، ويندب ليتميزا وليكون استماعه إلى كل منهما أسهل) [98].

وقيل في كتاب المجموع: (وعلى الحاكم أن يسوي بين الخصمين في الاستماع منهما؛ لأنه إذا استمع لأحدهما دون الآخر أو لم يسوّ بينهما في الاستماع يؤدي إلى انكسار الآخر، ولا يمكن من استيفاء الحكم) [99].

وقيل أيضا: (وإن سمع من أحدهما لددا التواء الخصم في محاكمته أو سوء أدب- نهاه، فإن عاد زبره زجره، فإن عاد عزره) [100].

٣: قال المالكية:

(وليسو بين الخصمين وإن مسلما وكافرا، يعني القاضي في الجلوس والقيام ورفع الصوت عليهما ولو كان أحدهما مسلما والآخر كافرا، ويجعل نظره وفكره وسمعه لهما على حد سواء) [101].

وقال ابن رشد: (فإنهم أجمعوا على أنه واجب

عليه أن يسوي بين الخصمين في المجلس، وألا يسمع من أحدهما دون الآخر، وأن يبدأ بالمدعي فيسأله البينة إن أنكر المدعى عليه، وان لم يكن له بينة فإن كان في مال وجبت على المدعى عليه باتفاق)[12].

٤: قال الحنابلة :

(على القاضي العدل بين الخصمين في كل شيء من المجلس والخطاب واللحظ والدخول عليه والإنصات إليهما والاستماع منهما)[13].

٥: قال الزيدية:

(والتسوية بين الخصمين في المجلس والإصغاء والتعظيم والإقبال، لقوله ﷺ «فيعدل بينهم»)[14].

وقال بعضهم: (والسماع منهما قبل القضاء لحديث علي عند أحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه أن رسول الله ﷺ قال:

« يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء» وللحديث طرق أخرى)[15].

قال الخطابي: فيه دلالة على أن الحاكم لا يقضي على الغائب. . لإمكان أن يكون مع الغائب حجة تبطل دعوى الآخر وتدحض حجته[16].

وقال بعضهم: إنما أراد به أنه لم يجرب سماع المرافعة بين الخصماء، وكيفية دفع كلام كل واحد من الخصمين ومكرهما. . . . وبين أن لا يقضي للأول من الخصمين. . فإنه أحرى وأجدر أن يتبين لك القضاء وجهه[17].

المطلب الثالث: قضاء القاضي ينفذ ظاهرا أو باطنا:

الأصل فيه قوله ﷺ: (إنما أنا بشر، وأنه يأتيني الخصم،فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض،فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها)[18].

دلالته:

يقول النووي: (التنبيه على حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئا إلا أن يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوز في أمور الأحكام ما يجوز عليهم، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر، والله يتولى السرائر، فيحكم بالبينة وباليمين ونحو ذلك من أحكام الظاهر مع إمكان كونه في الباطن خلاف ذلك، ولكنه إنما كلف الحكم بالظاهر، ولتطيب النفوس للعباد للانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر إلى الباطن. .)[19].

وقال أيضا:

(وفي الحديث دلالة لجمهور الفقهاء أن حكم الحاكم لا يحل الباطن ولا يحل حراما، فإذا شهد شاهدا زورا لإنسان بمال فحكم به الحاكم لم يحل للمحكوم له ذلك المال. . .

وقال أبو حنيفة:

يحل حكم الحاكم في الفروج دون الأموال. . . . وبذلك يخالف الجمهور)[20].

ويقول الطحاوي:

(إن كان في الباطن كما في الظاهر نفذ ما حكم به، وإن كان خلاف ما استند عليه الحاكم من الشهادة أو غيرها لم يكن الحكم موجبا للتمليك ولا الإزالة ولا النكاح ولا الطلاق ولا غيرها وهو قول الجمهور)[21].

وقوله ﷺ: «فإنما أقطع له به قطعة من النار»

معناه: إن قضيت له بظاهر يخالف الباطن فهو حرام يؤول به إلى النار[١١٢].

المبحث الرابع: ضوابط حاسة الشم للقاضي في مجلس القضاء:

يستحب عند الفقهاء للقاضي أن يكون المجلس فسيحاً خالياً من كل رائحة كريهة ومنفرة، فقد جاء في كتاب المجموع:

(يستحب للقاضي أن يقضي في مكان ليس فيه رائحة كريهة ينفر منها، وأي رائحة تدهش فكره)[١١٣].

والسبب في كراهية حكم القاضي في مجلس ذي رائحة كريهة منفرة:

١: كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري قائلاً:

«وإياك والقلق والضجر وسوء الخلق»[١١٤].

والرائحة الكريهة تفضي إلى الضجر.

٢: فقد جاء في كتاب المجموع: (يمنع ذلك من استيفاء الحكم)[١١٥].

٣: قال الخرشي: (يكره للقاضي أن يحكم مع ما يدهش عن تمام فكره كالحزن والحقن والغضب والقس وهو ضيق النفس، وإذا وقع ونزل مضى)[١١٦].

٤: وقال ابن قدامة: لا ينبغي له القاضي أن يخرج إلى القضاء لأمر يشغله عن الفهم، ليكون أجمع لقلبه، وأحضر لذهنه، وأبلغ في تيقظه للصواب، وفطنته لموضع الرأي)[١١٧].

٥: قال بعض الشافعية:

(يحكم في حالة لا يتغير فيها عقله ولا خلقه، والحاكم أعلم بنفسه. . . . فأي حال أتت عليه يتغير فيها عقله أو خلقه فينبغي أن لا يقضي حتى يذهب ذلك)[١١٨].

ومن ذلك الرائحة الكريهة في مجلس القضاء المنفرة والمذهبة للفكر والعقل.

المبحث الخامس: ضوابط حاسة التذوق والنطق للقاضي في مجلس القضاء:

ويتضمن ثلاثة مطالب، هي:

المقصد الأول: حكم تولي الأبكم القضاء:

الأبكم لغة: الأخرس، أن يولد ولا ينطق، وبكم: امتنع عن الكلام[١١٩].

اصطلاحاً: الذي لا يتمكن من النطق ولا يتكلم[١٢٠]. مما يدل على استعمالهم للمعنى اللغوي.

حكم تولي الأبكم للقضاء:

ذهب جمهور الفقهاء[١٢١] إلى أنه يجب أن يكون القاضي سالم الحواس، وعدوا منها النطق، فلا يجوزون تولي الأبكم للقضاء.

هناك رواية للشافعية أجازوا فيه تولية الأصم للقضاء، اعتمادا على إشارته.

والصحيح في المذهب أنه لا يجوز[١٢٢].

ونبين تفصيل الفقهاء:

١: قال الحنفية: (من يصلح للقضاء له شرائط، منها: النطق)[١٢٣]، وحجتهم:

لأن القضاء من باب الولاية، بل هو أعظم الولايات، وهؤلاء ومنهم الأصم ليست لهم أدنى الولايات.

٢: قال الشافعية: (وأما الكمال في الخلق فلا يجوز أن يكون القاضي أصم ولا أخرس)[124].

وقالوا: لا يجوز تقليد أخرس لا تعقل إشارته، وكذا إن عقلت على الأصح[125].

وحجتهم:لأن فقد هذه الحواس يمنع استيفاء الحكم بين الخصمين، ولعجزه عن تنفيذ الأحكام.

٣: قال المالكية:(يجب أن يكون القاضي سالم الحواس الثلاث: السمع والبصر والنطق، فلا يجوز تولية أعمى ولا أصم ولا أبكم)[126].

وحجتهم:لأن عدم الحواس يمنع من معرفة المقضي له أو عليه.

وقال الخرشي: فإن حكمه ينفذ حيث كان صوابا، وسواء تولى القضاء وهو على تلك الهيئة أو طرأ عليه، ويجب عزله، لتعذر غالب الأحكام منه[127].

٤: قال الحنابلة: (وأما كمال الخلقة فأن يكون متكلما، سميعا، بصيرا)[128].

وحجتهم:لأن الأخرس لا يمكنه النطق بالحكم، ولا يفهم جميع الناس إشارته، وهذه الحواس تؤثر في الشهادة فيمنع فقدها ولاية القضاء، والقاضي ولايته عامة، ويحكم في قضايا الناس عامة، فإذا لم تقبل شهادته فالقضاء أولى[129].

٥: قال الزيدية: (والسلامة من العمى والخرس...)[130].

وحجتهم:لأنه يحتاج إلى السمع لسماع كلامهم وما يوردونه لهم وعليهم، فولاية الأعمى والأخرس إنما هي بلاء مصبوب على الخصم، وتعذيب لهم مع عدم الركون على ما يفعلانه لهذا النقص الظاهر الواضح، فهما مانعان من هذه الحيثية مع أنهما فاقدان لأعظم ما لا يتم المقتضى إلا به[131].

القول الراجح:

إذا كان القاضي متكلما هو الأفضل والأهيب للقضاء بخلاف الأخرس الذي يحتاج لإنفاذ حكمه إلى تصريح مفهوم، والإشارة قد تكون مفهومة وقد لا تفهم، ولكن إذا وجد قاض مؤهل للقضاء لا يتكلم فيجوز توليته القضاء بشروط هي:

أ- أن تكون إشارته مفهومة.

ب - أن يكون ذا كتابة واضحة مقروءة.

فلا يمكن أن نمنع من القضاء من لا يتكلم وهو مؤهل لذلك، صحيح أن النطق أسرع من الكتابة لكن إذا وجدناه مؤهلا للقضاء فلا يمنع، والإنسان الملازم للشخص يعرف إشارته كما يعرف نطق لسانه، فيمكن أن يكون بجانب القاضي مترجم يترجم الإشارة كما أن هناك مترجما للعبارة، كما أن هناك عقودا أخطر من القضاء في الشريعة تصح بالإشارة، كالشهادتين والنكاح إذا فهمت إشارته.

المطلب الثاني: حكم القاضي وهو جائع أو شبعان (التذوق):

قال الفقهاء: ويلتحق بالغضب كل حال تخرج القاضي فيها عن سداد النظر، واستقامة الحال، كالشبع المفرط، والجوع المقلق..... كل هذه الأحوال يكره له القضاء فيها، خوفا من الغلط[132].

وقال بعضهم: ويكره أن يقضي في كل حال يتغير فيه حاله، ويتشوش فيه فكره وفهمه، مثل أن يصيبه الجوع الشديد، لمنافاته التثبت[133].

فإن قضى فيها صح قضاؤه، لأن النبي ﷺ قضى

في اللقطة وكان في حالة غضب، وقيل:هذا من خصوصياته ﷺ[١٢٤].

المطلب الثالث: المساواة بين الخصمين في الخطاب (النطق):

يجب على القاضي أن يساوي بين الخصمين في الكلام ورفع الصوت عليهما، والخطاب واللفظ.. ولا ينتهر خصما، لأن ذلك يكسره ويمنعه من استيفاء الحجة، وهو قول الجمهور[١٢٥].

وفصل الحنفية القول:

أن يسوي بينهما في النظر والنطق والخلوة، ولا يكلم أحدهما بلسان لا يعرفه الآخر[١٢٦]... وقال بعضهم:

ولا يرفع صوته على أحدهما ما لم يرفعه على الآخر، وإذا تكلم أحدهما أسكت الآخر حتى يسمع كلامه ويفهم عبارته، ثم يستنطق الآخر حتى يكون أقرب إلى الفهم[١٢٧].

وحجة الفقهاء:

قوله ﷺ: «فليُسوِّ بينهم في النظر والمجلس والإشارة»[١٢٨].

وإن رأى من لدود شدة خصومة أو سوء أدب نهاه، فإن عاد زبره زجره وإن عاد عزره، ولا يزجر شاهدا ولا يطلب زلته، لأن ذلك يمنعه عن الشهادة على وجهه[١٢٩].

المبحث السادس: ضوابط حاسة اللمس للقاضي في مجلس القضاء:

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: حكم القاضي في جو شديد البرودة أو الحرارة أو العواصف الترابية:

عادة ما تتم إثارة الكثير من المستقبلات في وقت واحد، تقوم المستقبلات بإرسال إشارات إلى المخ، ويساعد المخ في تشكيل صورة كاملة عن الشيء الذي تلمسه.

وغالبا الفاقد لحاسة البصر يمتاز بحاسة لمس شديدة، ويتعلم هؤلاء كيفية التعرف على الأشخاص من خلال لمس ملامح الوجه، كما يتمكنون من القراءة بوساطة لمس الحروف الأبجدية المكونة من نقاط ظاهرة.

وتتميز بعض أجزاء الجسم بأنها أكثر حساسية من غيرها من الأجزاء، وذلك لأنها تحتوي على عدد أكبر من المراكز الحسية، كما أن جزء المخ الذي يتعامل مع الإشارات الصادرة عن هذه الأجزاء يعد أكثر أجزاء الجسم حساسية[١٤٠].

الإحساس بالسخونة والبرودة:

تتمكن المراكز الحسية الموجودة في الجلد من إخبارك بسخونة المادة، وعندما تستشعر المستقبلات الخاصة بالبرودة إحساسا بالبرد فإن المخ يترجم الرسالة على اعتبار أنها بحاجة إلى الدفء، ويمكن التحكم في درجة حرارة الجسم عن طريق ارتداء الملابس الثقيلة عندما يكون الجو باردا أو تخفيفها إذا كان الجو حارا[١٤١].

قال الفقهاء[١٤٢]: يستحب للقاضي أن يكون مجلسه فسيحا حتى لا يتأذى بضيقه القاضي والخصوم، وأن يكون موضعا لا يتأذى فيه بحر أو برد أو عواصف ترابية. . .

ولا يخرج للقضاء كراهة إذا كان غضبان أو جائعا... والوجع المؤلم والحر المزعج، وكل ما يدهش العقل عن تمام فكره. لأن هذه الأمور تؤدي

إلى الضجر وتمنع الحاكم من التوفر على الاجتهاد، وتمنع من استيفاء الحكم.

وقال بعضهم:لأن البرد يقلص البدن، ولهذا يتشنج الإنسان فيه، والحر المزعج، لأن البدن يمتد، ولكنه يزعج الإنسان، فربما كان الحر شديدا ولا يوجد من وسائل التبريد في مجلس القضاء فيؤدي إلى الضجر، فضلا عن العواصف الترابية التي تؤثر على الحواس الخمس، ولاسيما من كان مصابا بحساسية في جسمه يزعجه الحر والتراب مما يؤثر في حكم القاضي.

المطلب الثاني: حكم مصافحة القاضي للخصمين في مجلس القضاء:

قال الفقهاء[١٤٣]: على القاضي أن يساوي بين الخصمين في المصافحة أو عدم المصافحة، لأن عدم المساواة يكسر قلب الآخر فضلا عن أنه سوف يتهم.

ووضع اليد من القاضي على أحدهما دون الآخر غير جائز للسبب الذي ذكرناه.

والدليل على المساواة في كل شيء قوله ﷺ:

«فليسو بينهم في النظر والمجلس والإشارة»

وفي رواية:

« فليعدل في لحظه وإشارته ومقعده»[١٤٤].

أهم نتائج البحث:

أولا: خلق الله تعالى الناس وأودع فيهم كثيرا من الميول والغرائز الفردية والاجتماعية، ولا يستطيع الإنسان العيش منفردا فهو بحاجة إلى غيره والعكس، وكثيرا ما يفضي ذلك بباعث الأثرة وحب الذات إلى الخصومة والتنازع، ولذا استحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض.

ثانيا: القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، ولتحقيق العدل وضع الفقهاء ضوابط محكمة تبعد القاضي عن الزلل والخطأ.

ثالثا: سلامة الحواس الخمس من النقص والعلل يجعل القاضي يحكم بالعدل والإنصاف ويبعده عن الزلل والظلم.

رابعا: وضع الفقهاء ضوابط لكل حاسة وعلى النحو الآتي:

١: **حاسة البصر**: لم يجوز أكثر الفقهاء تولي الأعمى للقضاء، وجوز بعضهم ذلك، وعلى القاضي أن ينظر إلى الخصمين من غير تمييز بينهما، ويكره له القضاء وهو نعسان.

٢: **حاسة السمع**: منع الفقهاء تولي الأصم القضاء، وعلى القاضي سماع الخصمين بالتساوي من غير تمييز بينهما.

٣: **حاسة الشم**: يستحب للقاضي أن يحكم في مجلس خال من الروائح الكريهة المنفرة فضلا عن الأتربة نتيجة العواصف الرملية.

٤: **حاسة التذوق والنطق**: لم يجوز الفقهاء تولي الأبكم القضاء، وعلى القاضي ألا يحكم في حالة الجوع المفرط المؤلم أو الشبع المفرط فيه خوفا من الوقوع في الخطأ، وعليه أن يساوي بين الخصمين في المحادثة والكلام.

٥: **حاسة اللمس**: على القاضي أن يتجنب الحكم في مجلس شديد الحرارة أو شديد البرودة، وعليه أن يساوي بين الخصمين بالمصافحة واللمس.

خامسا: سلامة الحواس، تحقق:

١: إثبات الحقوق، واستيفاء الحكم.

٢: التمييز بين الطالب والمطلوب، المقر والمنكر، الحق والباطل.

٣: عدم كسر قلب الخصمين وعدم المحاباة لأحدهما.

٤: حضور القلب، وعدم الغفلة.

سادسا: على القضاة اليوم أن يفقهوا أحكام القضاء الإسلامي ولاسيما في ما يتعلق بالحواس الخمس، لخطورة القضاء كما بين ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله:

(القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) (٢٥).

الحواشي :

١- قال: حديث حسن، ينظر: تحفة الأحوذي: ٤/ ٢٢٩.

٢- مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٨/ ٢٠٩.

٣- مفتاح دار السعادة: ١ / ٢٦٤.

٤- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٢ /٢٦٢

٥- في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٢٧ .

٦- حت المجهر الحواس: ٦.٥.

٧- تاج العروس: ١٠ / ١٩٦.

٨- مفتاح دار السعادة: ١ / ١٨٩، توحيد الخالق: ٧٦، الموسوعة الفقهية: ٨ / ٩٨.

٩- تحت المجهر الحواس: ٣٢.

١٠- تاج العروس: ٢١ / ٢٢٤.

١١- مفتاح دار السعادة: ١ / ١٩٠.

١٢- لسان العرب: ٥ / ١٩٧.

١٣- مفتاح دار السعادة: ١ / ١٩٠.

١٤- لسان العرب: ٢ / ٥٢٥، القاموس المحيط: ١٢٩٤.

١٥- مفتاح دار السعادة: ١ / ١٩١.

١٦- القاموس المحيط: ٨ / ١٢٥.

١٧- تحت المجهر الحواس: ١٥ & ، توحيد الخالق: ٧٥.

١٨- تحت المجهر الحواس: ٦ ٨، توحيد الخالق: ٧٦.

١٩- الشرط: هو ما لا يتم الشيء إلا به ولا يكون داخلا في ماهيته، وهو على أنواع منها: شرط الوجوب: ما يجب وجوده لوجوب الشيء، كاشتراط العقل لوجوب الصلاة، والاستطاعة لوجوب الحج، ومنها شرط الصحة: ما يجب وجوده لصحة الشيء كاشتراط النية لصحة العبادة، ومنها شرط اللزوم: ما يشترط وجوده للزوم الشيء كأهلية التصرف فهي شرط للزوم البيع، ينظر: معجم لغة الفقهاء: ١/ ٢٦٠.

٢٠- بدائع الصنائع: ٧/ ٢

٢١- الذخيرة: ٨/ ١٤.

٢٢- حاشية الخرشي: ٧/ ٤٧٨.

٢٣- المغني: ١١/ ٢٨١.

٢٤- مغني المحتاج: ٤/ ٣٧٥

٢٥- المجموع: ٢٦ /٥٣٧، ٥٢٨، حاشية قرة عيون الأخيار: ١١ / ٥٢٨، مجمع الأنهر: ٢ / ١٤٩.

٢٦- رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف كما قال البوصيري، ينظر سنن ابن ماجه: ٩١.

٢٧- ينظر صحيح مسلم: ٢٢٥.

٢٨- المجموع: ٢٦ / ٥٣٧. .

٢٩- ملتقى الأبحر: ٢ / ١٤٩.

٣٠- المجموع: ٢٦ / ٥٢٩، ملتقى الأبحر: ٢ / ١٤٩.

٣١- المجموع: ٢٦ / ٥٢٩.

٣٢- ملتقى الأبحر: ٢ / ١٤٩.

٣٣- كتاب المصباح المنير: ٢ / ٥٨٩.

٣٤- معجم العين وأمراضها: ٨.

٣٥- زاد المستقنع: ٨ / ٤١٥، اللباب: ٤/ ٦٠، مغني المحتاج: ٦/ ٢٧٤.

٣٦- بدائع الصنائع: ٩ / ٨٦، المجموع: ٢٦ / ٨٢، الكافي: ٢٢٢، الذخيرة: ٨ / ١٤، السيل الجرار: ٤ / ٢٧٤.

٣٧- بدائع الصنائع: ٩ /٨٦، اللباب: ٤ / ٦٠.

٣٨- بدائع الصنائع: ٩ /٨٦.

٣٩- اللباب: ٤ / ٦٠.

٤٠- مغني المحتاج: ٦ / ٣٧٤.

٤١- المجموع:٢٦ / ٤٥٧.

٤٢- مغني المحتاج: ٦ / ٣٧٤.

٤٣- بداية المجتهد: ٢ / ٢٤٤.

٤٤- الذخيرة: ٨ / ١٤.

٤٥- المصدر نفسه.

٤٦- زاد المستقنع: ٨ / ٤١٥.

٤٧- البحر الزخار:٦ / ١٨٤.

٤٨- زاد المستقنع:٨ / ٤١٥، الكافي: ٢٢٢.

٤٩- المجموع: ٢٦ / ٤٥٧، مغني المحتاج: ٦ / ٣٧٤، اللباب: ٤ / ٦٠.

٥٠- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠ / ١٠٤.

٥١- المحلى: ١/ ٢٩٩.

٥٢- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠ / ١٠٤.

٥٣- زاد المستقنع: ٨ / ٤١٥، اللباب: ٤ / ٦٠.

٥٤- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية:١٠ / ١٠٤.

٥٥- كتاب أدب القضاء لابن أبي الدم: ٢٥، ٢٦.

٥٦- حاشية الدسوقي: ٤ / ١٣٠، حاشية الخرشي:٧ / ٤٧٨.

٥٧- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠ / ١٠٣.

٥٨- المغني: ٩ / ٤٠.

٥٩- بسند ضعيف، ينظر سنن أبي داوود: ١ / ١٦٣.

٦٠- تحفة المحتاج: ٤ / ٤٣٣.

٦١- المغني:٩ / ٤٠، ٤١.

٦٢- يقول ابن حزم: إن كانت الأصوات تشتبه فالصور أيضا قد تشتبه، وما يجوز لمبصر ولا أعمى أن يشهد إلا بما يوقن ولا يشك فيه، ومن أشهد خلف حائط أو في ظلمة فأيقن بلا شك بمن أشهده فشهادته مقبولة في ذلك، ولو لم يقطع الأعمى بصحة اليقين على من يكلمه لما حل له أن يطأ امرأته إذ لعلها أجنبية، ولا يعطي أحدا دينا عليه إذ لعله غيره، ولا أن يبيع من أحد ولا يشتري، وقد قبل الناس كلام أمهات المؤمنين من خلف الحجاب. ينظر المحلى: ١ /٢٩٩.

٦٣- فإنهم يقبلون شهادة الأعمى ولم يذكروا شرط السلامة من العمى في باب القضاء، والظاهر أنهم يجوزون تولي الأعمى للقضاء.

٦٤- مفتاح دار السعادة: ١ / ٢٦٥.

٦٥- طبقات الشافعية: ٧ / ١٣٥.

٦٦- اللباب: ٤ / ٦٠.

٦٧- مغني المحتاج: ٦ / ٢٨٣، المعتمد في الفقه الشافعي:٥ /٢٨٢.

٦٨- مواهب الجليل: ٦ / ٩٩، الذخيرة: ٨ / ١٤.

٦٩- حاشية الخرشي:٧ / ٤٧٨.

٧٠- نظام القضاء في الشريعة الإسلامية: ٣٢.

٧١- مغني المحتاج: ٦ / ٢٧٤ ٢٧٥.

٧٢- تحفة المحتاج: ٤ / ٤٣٣.

٧٣- مغني المحتاج: ٦ / ٣٧٥.

٧٤- تاج العروس: ١٦ / ٥٥٧.

٧٥- المغني: ١١ / ٣٩٦.

٧٦- المجموع: ٢٢ / ٢٤٠.

٧٧- المجموع: ٢٢/ ٢٤٠، وقيل: هذا من خصوصيات الرسول ﷺ، فإنه لا يقول إلا حقا وإن كان غضبان.

٧٨- عون المعبود: ٩ / ٥٠٦- ٥٠٧.

٧٩- المغني: ١١ / ٤٤١.

٨٠- سنن الدارقطني: ٤ / ٢٠٦ ٢٠٧، وروي في مسند أبي يعلى، وهو حديث ضعيف. ينظر فيض القدير: ١ / ٢٠٦.

٨١- فيض القدير: ١ / ٢٠٦.

٨٢- البحر الزخار: ٦ / ١٨٥.

٨٣- سنن الدارقطني: ٤ / ٢٠٥.

٨٤- المعجم العربي الأساسي: ٧٤٨.

٨٥- مفتاح دار السعادة: ١ / ١٩٠.

٨٦- المغني: ١١ / ٤٤١، المجموع: ٢٢ / ٢٣٣، مغني المحتاج: ٦ /٢٦٢، الأحكام السلطانية: ٢٠١، مسائل من الفقه المقارن -المعاملات-: ٢٥٨.

٨٧- مغني المحتاج:٦ / ٢٦٢، تحفة المحتاج: ٨ / ٢٢٨.

٨٨- المصدران أنفسهما.

٨٩- الذخيرة: ٨ / ١٤.

٩٠- حاشية الخرشي: ٧ / ٤٧٨.

٩١- المغني: ١١ / ٢٨١.

٩٢- صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ٢٢٥.

٩٣- ٩٢المغني: ١١ / ٢٨١.

٩٤- بدائع الصنائع: ٩ / ١١٩.

٩٥- المصدر نفسه.

٩٦- تحفة الفقهاء: ٢ / ٦٤٣.

٩٧- مغني المحتاج: ٦ / ٣٠٠.

٩٨- المصدر نفسه.

٩٩- المجموع: ٢٦ / ٥٨٤.

١٠٠- المصدر نفسه .

١٠١- حاشية الخرشي: ٧ /٥٠١.

١٠٢- بداية المجتهد: ٢ / ٣٥٢.

١٠٣- المغني: ١١ / ٤٤١.

١٠٤- البحر الزخار: ٦ / ١١٨٥.

١٠٥- الروضة الندية: ٢ / ٢٥٢.

١٠٦- تحفة الأحوذي: ٤ / ٣٢٠.

١٠٧- عون المعبود: ٦ / ٣٦١.

١٠٨- صحيح البخاري شرح العسقلاني: ١٢ / ١٨٣. صحيح مسلم شرح النووي: ٦ / ٢٢٥ .

١٠٩- شرح النووي لصحيح مسلم: ٦ / ٢٢٦.

١١٠- شرح النووي لصحيح مسلم: ٦ / ٢٢٥.

١١١- فتح الباري: ١٢ / ٢٠٢.

١١٢- شرح النووي لصحيح مسلم: ٦ / ٢٢٦.

١١٣- المجموع: ٢٦ / ٥٢٣ ٥٢٤.

١١٤- المجموع: ٢٦ / ٥٢٤.

١١٥- المصدر نفسه.

١١٦- حاشية الخرشي: ٧ / ٤٩٩.

١١٧- المغني: ١١ ٤٤١.

١١٨- المجموع: ٢٦ / ٥٢٣.

١١٩- القاموس المحيط: ١٢٤.

١٢٠- المغني: ٩ / ٢١.

١٢١- المغني: ٩ / ٢١. المجموع: ٢٢ / ٢٣٢. مدونة الفقه المالكي: ٤ / ٢١٢.

١٢٢- المجموع: ٢٢ / ٢٣٣.

١٢٣- بدائع الصنائع: ٩ / ١١٩. اللباب: ٤ / ٦٠.

١٢٤- المجموع: ٢٢ / ٢٣٣. مغني المحتاج: ٦ / ٥٠٢.

١٢٥- المصدران أنفسهما.

١٢٦- مدونة الفقه المالكي: ٤ / ٢١٢ ٢١٤.

١٢٧- حاشية الخرشي: ٧ / ٤٧٨.

١٢٨- المغني: ٩ / ٢١.

١٢٩- المصدر نفسه.

١٣٠- البحر الزخار: ٦ / ١٨٤. السيل الجرار: ٢ / ٤٤٧.

١٣١- المصدران أنفسهما.

١٣٢- شرح النووي لصحيح مسلم: ٦ / ٢٢٥.

١٣٣- البحر الزخار: ٦ / ١٨٤.

١٣٤- شرح النووي لصحيح مسلم: ٦ / ٢٢٥.

١٣٥- المجموع: ٢٦ / ٥٨٤.

١٣٦- بدائع الصنائع: ٩ / ١١٩.

١٣٧- تحفة الفقهاء: ٢ / ٦٤٣.

١٣٨- سنن الدارقطني: ٤ / ٢٠٧. بسند ضعيف.

١٣٩- المجموع: ٢٦ / ٥٨٤.

١٤٠- المجموع: ٢٦ / ٥٨٤.

١٤١- المصدر نفسه.

١٤٢- المصدر نفسه: ٢٢ / ٢٤٠. حاشية الخرشي: ٧ / ٤٩٩. المغني: ١١ / ٤٤١. عون المعبود: ٩ / ٥٠٦ ٥٠٧.

١٤٣- الجموع: ٢٢ / ٢٤٠. الخرشي: ٧/ ٤٩٩. عون المعبود: ٥٠٦ ٥٠٧.

١٤٤- سنن الدارقطني: ٤ / ٢٠٧. بسند ضعيف.

١٤٥- أخرجه ابن ماجة. وأبو داود. والنسائي. والترمذي. والحاكم وصححه. ينظر: الروضة الندية: ٢/ ٢٤٥.

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

أولا : كتب التفسير:

في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق القاهرة. ط٣٧. سنة ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

ثانيا : كتب الحديث الشريف:

١- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي. للإمام محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري. دار الحديث القاهرة. ط١. سنة ١٤٢١ = ٢٠٠١.

٢- سنن أبي داود. لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. ط المكتبة العصرية. بيروت. بلا سنة.

٣- سنن ابن ماجة. تصنيف: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني. اعتنى به فريق بيت الأفكار الدولية. لبنان. سنة ٢٠٠٤.

٤- سنن الدارقطني، للشيخ الحافظ علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، ط٤، سنة ١٤٠٦ ١٩٨٦.

٥- صحيح مسلم، تصنيف الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم ابن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، سنة ١٤١٩ =١٩٩٨.

٦- صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، خرج أحاديثه د. محمد محمد تامر، دار الفجر للتراث، القاهرة.

٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، سنة ١٤٢٢= ٢٠٠٤.

٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، سنة ١٤٢٤= ٢٠٠٤.

٩- فيض القدير، للمناوي محمد عبد الرؤوف، صححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط٢، سنة ١٤٢٧= ٢٠٠٦.

ثالثا: الكتب الفقهية:

أ. كتب الفقه الحنفي:

١- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني علاء الدين أبو بكر بن مسعود، دار الكتب العلمية.

٢- تحفة الفقهاء، لعلاء الدين السمرقندي، تحقيق: د. محمد زكي عبد البر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٩ =١٩٩٨.

٣- حاشية ابن عابدين، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، سنة ١٤١٥= ١٩٩٤.

٤- اللباب في شرح الكتاب، للشيخ: عبد الغنيمي الدمشقي الميداني الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٥- مجمع الأنهر لشرح ملتقى الأبحر، لداما أفندي، مطبعة الحاج محرم أفندي، سنة ١٢٩٢.

ب. كتب الفقه الشافعي:

١- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبي الحسن الماوردي، تحقيق: د. محمد جاسم الحديثي، مطبعة المجمع العلمي، سنة ١٤٢٢= ٢٠٠١.

٢- تحفة المحتاج بشرح المنهاج، لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي، ضبط نصه: محمد محمد تامر، جامعة القاهرة.

٣- كتاب أدب القاضي وهو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات، لابن أبي الدم الحموي الشافعي، تحقيق: د. محمد مصطفى الزحيلي، دار الكتب الثقافية.

٤- المجموع شرح المهذب، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، للنووي، لمجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٣= ٢٠٠٢.

٥- المعتمد في الفقه الشافعي، د. محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨= ٢٠٠٧.

٦- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للخطيب محمد الشربيني، قدم له: عماد زكي البارودي، خرج أحاديثه: طه عبد الرؤوف سعد، راجعه: محمد عزت، المكتبة التوفيقية، طبعة دار المعرفة، سنة ٢٠٠٤.

٧- نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٥٧= ١٩٣٨.

ج. كتب المالكية:

١- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد القرطبي، دار الفكر.

٢- حاشية الخرشي على مختصر سيدي خليل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، سنة ١٤١٧= ١٩٩٧.

٣- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، عيسى البابي الحلبي.

٤- الذخيرة في فروع المالكية، للإمام القرافي، تحقيق: أبي إسحاق أحمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، سنة ١٤٢٢= ٢٠٠١.

٥- مدونة الفقه المالكي وأدلته د. صادق عبد الرحمن الغرياني، مؤسسة الريان، سنة ١٤٢٦= ٢٠٠٦.

٦- المدونة الكبرى، للإمام مالك، تحقيق: عامر الجزار وعبد الله المنشاوي، دار الحديث القاهرة، سنة ١٤٢٦= ٢٠٠٥.

٧- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، للحطاب، مكتبة النجاح، ليبيا.

د. كتب الفقه الحنبلي:

١- اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية، تأليف: د. زيد ابن سعد بن مبارك الغنام، كنوز أشبيليا للنشر والتوزيع، ط١، سنة ١٤٣٠= ٢٠٠٩.

٢- الشرح الممتع على زاد المستقنع في اختصار المقنع، للشيخ: محمد بن صالح، الكتاب العالمي للنشر، بيروت، سنة ١٤٢٦ = ٢٠٠٥.

٣- الكافي في فقه الإمام أحمد، لابن قدامة المقدسي، حققه: محمد فارس و مسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٤ = ١٩٩٤.

٤- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، خرج أحاديثها: عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء، ط٢، سنة ١٤٢١= ٢٠٠١.

٥- المغني، لابن قدامة، دار الكتب العلمية ن ط٢، سنة ١٤٢٤ = ٢٠٠٤.

هـ. كتب الزيدية:

١- البحر الزخار الجامع لمذاهب الأمصار، للمرتضى، ضبط نصه: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٢ = ٢٠٠١.

٢- الروضة الندية شرح الدرر البهية، للعلامة: أبي الطيب الحسيني القنجوي البخاري، دار الندوة الجديدة، ط٢، سنة ١٤٠٨ = ١٩٨٨.

٣- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، للشيخ: محمد ابن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن كثير، ط٢، سنة ١٤٢٦ = ٢٠٠٥.

٤- و كتب الظاهرية:

٥- المحلّى، لابن حزم الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط٢، سنة ١٤٢٢ ٢٠٠١.

رابعا: كتب اللغة:

١- تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، سنة ١٩٦٥ = ١٣٨٥.

٢- لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث، القاهرة.

٣- كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار القلم، بيروت لبنان.

٤- المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها، تأليف جماعة من كبار اللغويين، بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لاروس.

٥- معجم العين وأمراضها، إعداد: د. صادق الهلالي و د. محمد حكمت وليد، منظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي لشرق البحر المتوسط، سنة ١٩٩٣.

٦- معجم القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ترتيب: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، سنة ١٤٢٨ =٢٠٠٧.

خامسا: كتب عامة:

١- تحت المجهر الحواس، تأليف: فرانسيسكابابنز، دار الفاروق، مصر، ط٢٠٠٧.

٢- توحيد الخالق، عبد المجيد الزنداني، بغداد، مكتبة المثنى، سنة ١٩٩٠.

٣- القواعد الكلية والضوابط الفقهية، د. محمد عثمان شبير، دار الفرقان، الأردن، سنة ٢٠٠٠.

٤- مسائل في الفقه المقارن «المعاملات»، د. هاشم جميل، دار السلام، ط١، سنة٢٠٠٧.

٥- مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، دار الفكر للطباعة والنشر.

٦- المقدمة، لابن خلدون، دار الهلال، سنة ١٩٩٦.

٧- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويت، ط١، سنة ١٤٠٦ ١٩٨٦.

٨- نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مطبعة العاني، بغداد، ط١، سنة ١٤٠٤.



في مكتبة التراث الشعري: مراجعات وإضافات

د. عبد الرازق حويزي
جامعة الطائف، كلية الآداب

التعريف بالبحث:

يتناول هذا البحث مراجعة لتسعة مجاميع شعرية بهدف الارتقاء بها درجة نحو الكمال، إذ ربما تؤدي هذه المراجعات وما يرافقها من إضافات إلى تغيير بعض النتائج التي تم التوصل إليها، أو إضافة نتائج أخرى حول إبداع أصحاب هذه المجاميع ومنازلهم الشعرية بين شعراء اللغة العربية.

لا يفتأ الباحث في التراث الشعري مُلاحَقًا باليأس مهما تتضاعف الجهود للم شعث هذا التراث، إذ كلما ينتابه شعور وثقة بأن هذا التراث شارف على ما يرام وما ينتظر له من التمام، بحيث تصبح درجة الاطمئنان إلى دراسته مقبولة يفاجأ بحقائق تصدمه، وتضائل من هذا الشعور خصوصًا تجاه تلك الدواوين التي لم تصل إلينا في أصولها المخطوطة، والتي يضطر الباحثون إلى جمع مادتها جمعًا من بطون المصادر، وناهيك عما يحيق بهم من أعباء ممضة، وما يجابههم من صعوبة الحصول على المصادر، وملاحقة أشعار الشعراء فيها، ويضاعف من هذه الأعباء تلك المصادر التي تصدر بعد نشر الدواوين متضمنة لأشعار تضاف إليها، بعد انصراف جامعيها إلى أعمال عليمة أخرى، ومن ثم تفتقر هذه الأشعار إلى الاستدراك لتظل الديوان المستدرك عليها في حيز أذهان الباحثين والدارسين.

ولعل المكمن الأول للقلق يتمثل في أن النتائج المستخلصة من الدواوين المجموعة تظل محل ريبة بتعرضها للتغيير، والإضافة عليها حسب ما يستجد، ومن هنا تأتي أهمية الإضافات إلى هذه الدواوين، والتقليب المستمر في مصادر تراثنا، وعرض ما تتضمنه على محتوى هذه الدواوين تطلعًا لرفدها بنصوص جديدة، والمبادرة إلى تصفح ما يحققه المحققون وما تخرجه المطابع ليلاً ونهارًا من نوادر التراث الشعري، إلى أن تسنح الفرصة لإعادة بنائها وطبعها من جديد بعد إدراج هذه الإضافات فيها.

إن أهمية الإضافات إلى تراثنا الشعري لا تتمثل في محاولة التوصل إلى النتائج السديدة والتامة

فقط، وإنما تتعدى ذلك إلى التنويه بما يلزم إعادة طباعته من هذه الدواوين، وإلى الركون - بعض الشيء - إلى ظهور تراثنا الشعري بالصورة التي تليق بشاعرية الأجداد.

وهذه الإضافات لا تقلل بحال من الأحوال من الجهد المشكور الذي بذله المهتمون بجمع تراثنا الشعري وتنسيقه، ونشره منقحًا مهذبًا بصورة تتواءم والتقدم العلمي في عصرنا هذا، الذي أفرز لي ولغيري من الباحثين تقنيات حديثة أصبح توظيفها في البحث العلمي أمرًا ضروريًّا حتى لا تتأخر الدراسات الإنسانية عن مواكبة أختها التطبيقية.

قلت: إن هذه الإضافات لا تقلل من الجهود المخلصة لجامعي الدواوين، لأنها ربما تكون ملتقطة من مصادر نشرت بعد نشرهم لأعمالهم، أو تم التقاطها من مصادر لم يتسن لهم الوقوف عليها لبعدها عن متناول أيديهم.

وتكتسب هذه الإضافات أهمية إذا كانت منصبة على دواوين ذات أصول مفقودة، وتتوقف مدى أهميتها على حصيلة الديوان المجموع، فإذا كانت هذه الحصيلة ضئيلة بات الديوان في حاجة ماسة إلى نصوص شعرية جديدة حتى يمكن الوقوف على الاتجاهات الفكرية والمضمونية، والتشكيل الجمالي لشعر صاحبه، إذن فعلى قدر قلة حصيلة الشاعر تكون أهمية الإضافات إلى ديوانه، ومن ثم كان التركيز على بعض الشعراء الذين لم تتواءم حصيلة أشعارهم وإعلاء النقاد القدماء من منزلتهم الشعرية.

ونظرًا لاهتمامي بالتراث الشعري في العصر العباسي، ومداومتي على تقليب مصادره فقد وقفت على إضافات، تعد تتمة لبعض الدواوين والمستدركات عليها، من دواوين هؤلاء الشعراء:

(١) ديوان «علي بن الجهم ت ٢٤٩هـ»:

تناول رهط من النقاد هذا الديوان في دراسات متعددة على فترات متباعدة، منهم كاتب هذه السطور، ويجد القارئ الكريم حصرًا لمعظم هذه الدراسات في مجلة العرب ج ٩، ١٠ الربيعان ١٤٢٥هـ، ج١، ٤، ٢٠٠٥م، وقد نشر أحد الباحثين بعض الأبيات على أنها مستدركة على هذا الديوان في ج ٥، ٦ ذو القعدة، ذو الحجة، ١٤٢٩هـ من المجلة نفسها، ولا يصح استدراكها، إذ بعضها منشور من قبل في مجلة العرب ج٩، ١٤٢٥ وما بعده من أجزاء، وبعضها غير خالص النسبة للشاعر، ومن الإضافات الجديدة التي ربما لم يسبق نشرها في نطاق الاهتمام بديوان هذا الشاعر:

(١) البيتان التاليان: [من الكامل]

١- خافتْ مُلاحظةَ الرقيبِ فَصدُّها
عنه الحذارُ وقلبُها مَعمودُ

٢- دارتْ بِعَبرتِها الجفونُ ولم تَفِض
فكأنَّما بين الجفونِ مُريدُ

التخريج: اعتلال القلوب ٢١٣.

(٢) البيت التالي: [من الكامل]

بينا كذلك إذ رآها أحمدٌ
فانصاعَ يَجفلُ كالنَّعامِ النَّافرِ

التخريج: المنصف ٢/ ٥٩٤

(٣) البيت التالي: [من الكامل]

ثم انثنوا يتملَّقُونَ وإنَّما
ملقُ العدوُّ مَذَلَّةٌ وَصَغارُ

التخريج: المنصف ٢/ ١٠٠، ورجح محققه أنه له.

(٤) البيت التالي: [من الطويل]

إذا شئتُ أرعفتُ القناةَ وبادرتْ
لنصري رِجالٌ ليس يخفى مَكانُها

التخريج: المنصف ٢/ ١٨، ولعله والبيت رقم (١٧٥)، ص ٢٢٢ من قصيدة واحدة.

(٥) ونسب إليه وليس له: [من الخفيف]

١- ربما عالج القوافي أناسٌ
تلتوي تارةً لهم وتَلينُ

٢- طاوَعَتْهم عَينٌ وعينٌ وعَينٌ
وَعَصَتْهم نُونٌ ونُونٌ ونونُ

التخريج: صرف العين ٢/ ١٤٦، وينظر تدافعهما وتخريجهما، ووهم المؤلف في نسبته إياهما لابن الجهم في هامشه.

(٢) أبو هفان المهزمي (ت٢٥٧هـ):

سبق لي أن أثبت بعض التعقيبات والإضافات على ديوان هذا الأديب المشهور في العدد ع ٦٨، ٢٠١٠م من هذه المجلة الغراء، وذكرت هناك محاولات جمع شعره، ومنذ ذلك الحين والديوان لا يزال في دائرة اهتمامي كغيره من الدواوين التي كان لي اهتمام بها، وقد أسفرت متابعة البحث عن العثور على بعض النتف والمقطعات التي لم يسبق نشرها في محاولات جمع شعره والاستدراك عليه، رأيت إثباتها هنا لتكون تتمة لما نشر من شعر الشاعر.

(١) النتفة التالية: [من الوافر]

١- إذا ما كُنتَ مُتَّخِذًا خَليلا
ولم يكُ ذا مُوافَقَةٍ فَبِعْهُ

٢- فليس أخُوكَ مِنكَ ولَستَ مِنهُ
إذا ما لم يطعك ولم تُطِعْهُ

التخريج: الفصوص ٤/ ٤٢.

(٢) النتفة التالية: [من الوافر]

١- إذا الإخوانُ فاتَهُمُ التلاقي
فَما شَيءٌ أَسَرُّ مِنَ الكِتابِ

٢- وَإن كَتَبَ الصَديقُ إِلى صَديقٍ
فَحَقُّ كِتابِهِ رَدُّ الجَوابِ

الرواية: (١) ورد البيت الأول ترتيب المدارك برواية: «فلا شيء»، وورد في كتاب الازدهار برواية: «فلا شيء أعز من الكتاب».

(٢) وورد البيت الثاني في ترتيب المدارك برواية: «إلى أخيه»، وورد في كتاب الازدهار برواية: «إذا كتب الصديق إلى أخيه».

التخريج: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة ٥٩، وهما بلا نسبة في الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار ١٠٧، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٣/ ٢٦٢، وذكر في ديباجتها ما نصه: «وذكر أن إسحاق بن راهويه كتب إلى قتيبة (بن سعيد ابن جميل البلخي ت ٢٤٠هـ) مرة وثانية فلم يجبه، فكتب إليه في الثالثة...»، وذكر البيتين.

(٣) النتفة التالية: [من الكامل]

١- قد ماتَ إبراهيمُ قبل مماتِهِ
فَرُزِقتُ حسنَ الصَّبرِ بعدَ وَفاتِهِ

٢- واستخدم الخُلقانَ من غلمانِهِ
واستولدَ الخَلَقاتِ من داياتِهِ

٣- غِلمانُه كلٌّ على جيرانِهِ
وتساؤه كلٌّ على جاراتِهِ

٤- تعدُو الثعالبُ في طِلابِ كلابِه
ويطير طير الماء فوق بزاتِهِ

الشرح: ورد في ديوان أبي نواس: «الشبان من الغلمان: الذين لا خير فيهم... معناه أنه بخيل، يجيع الكلب حتى إنه صاد من هزاله، بحيث يعدو عليه الثعالب فيصيده، وكذلك بزاته من الضُّعف بحيث يصطاده طير الماء، يشير إلى بخله».

التخريج: ديوان أبي نواس ٢/١٥٢ - ١٥٣، وأفاد حمزة الأصفهاني أنها من الشعر المنسوب إلى أبي نواس، ثم قال بعد الأبيات: أنشدنيها جماعة في إبراهيم بن المدبر، يقولها بعض شعراء أهل زمانه، وقيل هي لأبي هفان».

(٣) ديوان «يحيى بن علي المنجم ت ٣٠٠هـ»:

أثرت بعض الجهود المبذولة من قبل بعض الباحثين للنهوض بإعادة بناء ديوان هذا الشاعر والاستدراك عليه، يجد القارئ حصرًا لهذه الجهود في العدد (٥٧) من هذه المجلة، وتنظر مجلة العرب ص ٣٩٣، ج ٥، ٦ ذو القعدة، ذو الحجة، ١٤٢٩هـ، ففيها قصيدة مستدركة لا يصح استدراكها، لأنها منشورة من قبل هنا في العدد (٥٧)، وقد أسفر الاهتمام المتتابع لكاتب هذه السطور بشعر هذا الشاعر عن الإضافات الجديدة التالية:

(١) وقال: [من الوافر]

يعيبُ الأحمقُ الممرورُ شعري
وهجوي في بلادتِهِ يَسيرُ

ويزعمُ أنَّهُ نَقَّادُ شعرٍ
هو الحَادي وليس له بَعيرُ

التخريج: الكشف عن مساوئ شعر المتنبي للصاحب بن عباد ٢٣، وفي مقدمتها: « وأنشدني (أبو أحمد يحيى بن علي النديم) في معنى خبر أبي عبادة مع عبيد الله عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن الأهوازي لنفسه». ولذكر الأهوازي هنا نسب الراغب الأصفهاني البيت الثاني منهما في كتابه محاضرات الأدباء ١/١٩٣ للأهوازي، وهذا خطأ.

(٢) وقال: [من الطويل]

وما ضَرَّني لو أنَّه لي مُوافِقٌ
ولا ضَرَّني أن كان غيرَ مُوافِقِ

التخريج: بغية الطلب في تاريخ حلب ٤٧٥٤، ويوضع هذا البيت في نهاية المقطعة المذكورة تحت رقم (٢٠)، ص ٢١٢ من الديوان، والمخرجة فيه على معجم الشعراء، وقد ورد البيتان الأولان فيه محرفين، على عكس ما وردا في بغية الطلب، لذا أورد روايتهما الصحيحة من هذا المصدر:

وفي الحلبي كلُّ نحسٍ وشَنْعةٍ
ونعمَ أخو الأخوانِ عندَ الحقائقِ

على أنَّه ممَّن يجورُ ربُّه
وينحلُه مذمومَ فعلِ الخَلائقِ

وثمة روايات لبقية الأبيات في بغية الطلب، وديباجة المقطعة في الديوان.

(٣) وقال تقربًا إلى قلب «القاسم بن عبيد الله»: [من الكامل]

بُعْدًا لمن لا يشكرُ الإنعامَا
ويرى لمولاه عليه ذِمامَا

التخريج: الإنباء في تاريخ الخلفاء ١٥١، ويضاف البيت لرقم ٣٠، ص ٢١٦ من الديوان. و«الذِّمامُ والمذمة: الحق والحرمة». لسان العرب (ذمم) ٣/ ١٥١٧.

(٤) قال «أبو بكر الصولي»: «حدثني يحيى بن علي ابن المنجم قال: جاذبني محمد بن القاسم بن مهرويه يومًا، فزعم أن دعبلاً أشعر من أبي تمام، فقلت له: يا بني بأي شيء تقدمه؟ فلم يأت بمقنع، فجعلت أنشده محاسنهما فإذا محاسن أبي تمام أكثر وأطرف وإذا عيوب دعبل أعظم وأفحش، فأقام على تعصبه فقلت: [من الخفيف]

١- إنما يعرفُ القديمَ من المحـ ... ـدث قَينٌ في وقتِ عرضِ الحُسامِ

٢- لا تَقيسنَّ دعبلاً بحبيبٍ ... ليس خُفُّ البعيرِ مثلَ السَّنامِ

٣- إن هذا من الرؤوس إذا أنصفـ ... ـتَ فيه وذا من الأقدامِ

٤- أنت إن لو لم تكنْ من العَمي ما سوِّيـ ... ـتَ بين الجبالِ والآكامِ

٥- قد لَعَمْري وصفتَ عقلَك بالنَّقص ... ولم تنتقصْ أبا تمَّامِ

٦- فتنكَّبْ تخيُّرَ الشعرِ وارجِعْ ... لانتساخ الأخبارِ والأيامِ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في وفيات الأعيان برواية: «العتيق من».

(٢) ورد البيت الثاني فيه برواية: «لا تقس».

التخريج: ديوان أبي نواس ق٦ / ١، ص٥ (الفهارس)، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٠، وفيه البيتان ١، ٢ مع الأبيات الثلاثة الواردة في الديوان ولم أوردها هنا. وتضاف هذه الأبيات إلى أبيات المقطعة رقم ٣٩ ص ٢٢٢ من الديوان.

(٥) وقال للمعتضد لما سار إلى آمد من قصيدة طويلة أولها: [من المنسرح]

١- ينتثر الدر من تكلمها ... ويلمع البرق من تَبَسمها

٢- إن عليًا علا بهمته ... حيث الثريا في بُعْدِ أنجمها

٣- حكَا أباه بفضلِه وغدا ... من العرى آخذًا بأحزمها

التخريج: الإنباء في تاريخ الخلفاء ١٥٢.

(٦) وقال يرد على «محمد بن القاسم بن مهرويه» في ذمِّه للنحو: [من الطويل]

١- لقد كُلِبَ القرآنُ بالثلبِ للنَّحو ... لأني رأيتُ اللَّحْنَ يَدخُل في اللَّغو

٢- فلا تقرأ القرآنَ إن كنتَ لاحِنًا ... فمَا الله عمَّن فيه يَلْحَنُ ذا عَفو

التخريج: الوافي بالوفيات ٢٨/ ٢٢٦ تحقيق: إبراهيم شبوح، النشرات الإسلامية، بيروت، برلين، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

(٤) ديوان «ابن هندو ت٤٢٣هـ»:

أعدت بناء ديوان «ابن هندو»، ونشرته في القاهرة عام ٢٠٠٠م، ثم نشرت تتمة له في الحلقة الأولى من سلسلة «تتمة وإصلاح الدواوين الشعرية» الصادرة في القاهرة عام ٢٠٠٤م، ومنذ وضعت

شعر هذا الشاعر في حيز اهتمامي جعلت أحصّل ما يقع تحت يدي من جديد، ومن ثم تجمعت لدي بعض الإضافات، منها:

(١) قوله: [من الطويل]

١- تعجّب سلمى من بعاديَ ظله
رويدكِ من لا يحمد القربَ يبعدِ

٢- وما الحزمُ إلا أن تخفَّ ركائبي
إذا موطني لم أستطبْ من موردي

التخريج: روضة البلاغة ٧٨/١.

(٢) وقوله: [من الطويل]

١- بها مَنْهلٌ كالزَّيتِ طَام جمامُه
يبُلُّ لهاةَ الخِشْفِ بعد ظماءِ

٢- تلفّع في خَزِّ الغَلافقِ وارتدَى
بأدكَنَ من رَنْقِ المياهِ مُهانِ

التخريج: شروح سقط الزند ٨٢٠/٢، وفيه أن الغلافق هي الطحالب، و «طَمَّ الماءُ يطِمّ طمًّا وطمومًا: علا وغمره. لسان العرب (طمم) ٢٧٠٥/٤، و« يقال جَمَّ الماءُ يَجُمُّ ويَجِمُّ جُموماً: إذا كثر في البئر واجتمع بعدما اسْتُقِيَ ما فيه». لسان العرب (جمم) ٦٨٦/١، و«الخِشْفُ: الظّبْيُ بعد أن يكون جدايةً وقيل هو خِشْفٌ أَوّلَ ما يولد وقيل هو خشف أوّلَ مَشْيِه». لسان العرب (خشف) ١١٦٦/٢ و«الرَّنَق: تراب في الماء من القَذى». لسان العرب (رنق) / ١٧٤٤.

(٥) ديوان أبزون العماني (ت ٤٣٠هـ):

ذكرت في العدد ع ٦٨، ٢٠١٠م من هذه المجلة الزاهرة بيانات ديوانه والاستدراكات عليه، وأثبت هناك بعض الملحوظات والإضافات على هذا الديوان، ومنذ ذلك الحين وأنا أنقب عن شعر جديد له، وهداني التنقيب إلى العثور على المقطعة التالية: [من الكامل]

١- سلكتْ طريقَ نوالك الأنواءُ
وتبسَّمتْ عن سَيفكَ العلياءُ

٢- طلعتْ عليك من لُهاكَ كواكبٌ
ما إن لها إلا عُلاكَ سَماءُ

٣- في كل مملكة لجُودك آيةٌ
شَهِدَتْ بصِحَّتها لك الأعداءُ

التخريج: طرائف الطرف ٧٤، وقال المحقق في تخريجها ص ١٤٠: «والمقطعة ليست في ديوان أبزون العماني بتحقيقنا».

(٦) ديوان «ابن السيد البطليوسي ت ٥٢١هـ»:

يعرف الباحثون هذا العالم باهتمامه العميق باللغة العربية وفروعها، ومؤلفاته الغزيرة في مختلف الدراسات الإنسانية، ولم تظهر شاعرية «ابن السيده في العصر الحديث بالصورة الجلية إلا بعد أن شمر بعض الباحثين المخلصين عن ساعد الجد لرد لهذا الشاعر منزلته في عالم الإبداع الشعري وذلك من خلال النهوض بجمع ما تناثر من شعر في المظان المختلفة، كي يظهر الجانب الشعري لألاءً في آثاره؛ ومن ثم أثرت بعض المحاولات في هذا النطاق، وبعدما خراج ديوانه عرفه كثير من الباحثين المعاصرين كشاعر من شعراء القرن السادس الهجري، وفي النشرة القاهرية لإعادة بناء ديوانه جهد واضح في ملاحقة أخباره وحصر مؤلفاته، وجمع أشعاره من المصادر المتباينة، فأتى الديوان في صورة دقيقة أنيقة، وعاد للشاعر حقه، وتبوأ مكانته بين

شعراء عصره، وأثناء تصفحي لبعض المصادر التراثية وقفت على كتاب للسيوطي (ت٩١١هـ)، عنوانه: «تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب»، وجدت فيه بعض الأبيات التي لم ترد ضمن ما نشر للشاعر في بعض محاولات جمع شعره، فرأيت إثباتها هنا لعلها تكون في المتناول أثناء إعداد طبعة ثانية لهذا الديوان.

(١) قال «ابن السيده في نهاية كتابه «الإعلام بمعرفة نبوة محمد ﷺ»: [من الطويل]

١- أردتَ ابتغاءَ الأجرِ في نصرةِ الحقِّ
وإبطالَ قولِ الملحدين ذوي الفسقِ

٢- فلخَصتُ إثباتَ النُبوَات بالذي
رأى الحكماءُ المؤمنونَ ذوو الصِّدقِ

٣- وأتبعتها فضلَ النبي محمدٍ
فإنَّ له فضلاً مبينًا على الخَلقِ

٤- له الرُتبةُ الأولى وإن كانَ آخرًا
وشرعته أولى الشرائعِ بالسَّبقِ

٥- إذا امتَحَن الأديان ذو اللُبُّ لم يجدْ
سوى دينِه دينًا سليمًا من المذقِ

٦- فقلْ للذي اختار الضَّلالَ على الهُدى
وأصبحَ أعمى عن سَنا صُبحه الطَّلقِ

٧- وظنَّ النبوَاتِ الكرام كهانةً
وسحرًا تنَبَّهْ قد أتيناك بالفرقِ

٨- أخِلتَ إلهَ الخَلقِ أهملَ خَلْقَه
فأضحى سُدى غُفلاً لقد جئتَ بالغلقِ

٩- وعدت من الميزانِ بالهجن ضِلَّةً
لك الويل فارتقْ ما جنيت من الفتقِ

١٠- وهل تصلح الأزمان إلا بسُنَّةٍ
يُساسُ بها الأقوامُ بالعُنْفِ والرِّفقِ

١١- وما عُمِيت أبصارُ قومٍ عن الهدَى
ولكنَّها الأقدارُ تسعدُ أو تُشقي

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) وأورد « السيوطي » في المصدر السابق ما نصه: « قال ابن السيد صاحب الترجمة في كتاب شرح سقط الزند: الخال لفظ مشترك يتصرف على معاني كثيرة، ووجدت ثعلبًا والمفضل وابن مقسم قد انشدوا ثلاثة عشر بيتًا، آخر بيت منها (خال) بغير معنى الآخر، ورأيت قائلها قد أغفل ألفاظًا أخر كان ينبغي أن تضم لها، فوردت فيها أبيات ضمنتها ما لم يذكره الشاعر، فبلغت اثنين وعشرين بيتًا، وفي الروايات اختلاف، ذكرت منها ما وقع عليه استحساني، ورأيت إثباتها في هذا الموضع لتكون زيادة في الفائدة، وهي...»، قلت الأبيات بهذا العدد ذكرها السيوطي، وقد اقتصرت هنا على إيراد الأبيات التي لم تنشر في بعض محاولا جمع شعر «ابن السيده وهي: [من الطويل]

٩- وإنِّي إذا نَادى الصَّريخُ أَجَبْتُه
على سابحٍ عَبْلِ الشَّوا أو على خالِ

١٠- إذا قُطِفتْ عنز وذَمَّ حلاؤها
فما هو بالواني التطرفِ والخالِ

١١- وإنا لننفي الخَيلَ دونَ عيالنا
فمن عائرٍ طرفًا تميضُ ومن خالِ

١٢- جيادٌ تُباري العاصِفاتِ ولا يرى
بها من لجانٍ يَستبينُ ولا خالِ

١٣- وإني لحادٌ للكُماة إلى الوغى
ولستُ بحادٍ للعروجِ ولا خالِ

١٤- وإني لحلوٌ للصَّديق مُزّاً
ولستُ بحيسٍ في الرجال ولا خالِ

١٥- وإن ضَنَّ خالُ المرءِ يومًا بغليه
فإنَّ ندى كفِّي مغزٌ على الخالِ

١٦- نهاني إلى العلياءِ كلُّ سَميدعٍ
تراه إذا جلَّت حُبا القوم كالخالِ

١٧- جرينا جميع المجدِ جُودًا ونجدةً
فما شئت من ليثٍ هصورٍ ومن خالِ

١٨- وما أبصرتْ عينٌ لنا قط سيدًا
على جرحٍ يزجي إلى المسِّ بالخالِ

٢٢- حرامٌ عليك الدَّهرَ خدعُ سَراتنا
فلا قيمٌ في مجمعِ القوم أو خالِ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٤٧٣ – ٤٧٥، وأثبت الأبيات بترقيمها المتسلسل فيه، وقد قال محقق تحفة الأديب في هامش ص ٤٧٣: «ذكر السخاوي في سفر السعادة تسعة وعشرين بيتًا اختلفت معاني كلمة (الخال) فيها، انظر ٢/٨٨٦ – ٨٩٢». فرجعت إلى سفر السعادة حتى يتسنى لي تحديد الأبيات الجديدة فوجدت محققه قد خرج القصيدة لعدد من الشعراء اشتركوا في نظمها حتى كثرت أبياتها، ورأيت ليس ثمة داع لإعادة تخريجها بعد أن قال محقق سفر السعادة في هامش ص ٢/٨٨٨ – ٨٨٨٩: «قوله (السخاوي) أنشد ثعلب يوهم أنه أنشد الأبيات جميعًا، وليس كذلك. فقد أنشدها أبو الطيب اللغوي في مراتب النحويين ص ٢٣ – ٢٧ ثلاثة عشر بيتًا عن ثعلب، ونظم هو الأبيات ١٤ – ٢٩، وعن المراتب نقل المؤلف القصيدة وتفسيرها، ونص ابن السيد، فيما نقل عنه صاحب ألف باء ١/٢٦٣ على أنها ثلاثة عشر بيتًا في رواية ثعلب، وأنه زاد فيها فبلغت اثنين وعشرين بيتًا منها أحد عشر بيتًا توافق ما رواه المؤلف، ونقل في ل هذه الكلمة عن ابن بري وهي ثلاثة عشر بيتًا توافق ما رواه المؤلف بترتيبها أيضًا، وأنشدها أبو هلال العسكري في الصناعتين ٤٣٨ – ٤٤٠ بسنده عن ثعلب أحد عشر بيتًا تنقص الرابع والثالث عشر، وفيها مكان السابع:

ليالي سلمى تستبيك بدَلّها
وبالمنظرِ الفتَّانِ والجيدِ والخالِ

وأوردها صاحب نضرة الإغريض ٩٤ ستة أبيات عن ثعلب فيها البيت الذي رواه أبو هلال مكان السابع، وفي روايتها اختلاف». قلت: هذا التخريج يفيد بأن الأبيات التي أضافها تسعة أبيات أما مجموع ما زاده ابن السيد على ما رواه «السيوطي» فيمثل أحد عشر بيتًا، وقد رجعت إلى مراتب النحويين ٦٤ – ٦٥، ونضرة الإغريض ٩٤، وكتاب الصناعتين ٢٢٦ – ٢٢٧ فلم أجد أبياتًا مما أثبته سلفًا، وفي تحفة الأديب شرح لكلمة (الخال) المكررة في قوافي الأبيات هكذا: «وفي البيت التاسع البعير الضخم، وفي العاشر اسم فاعل من خلأ البعير إذا حرث، خففت همزته، وفي الحادي عشر اسم فاعل منقوص من خليت الخلا إذا قطعته، وخليت الدابة إذا أطعمتها الخلا، وهو رطب النبات، وفي الثاني عشر ظلع يعتري الدابة واللجان البطء في المشي، وفي الثالث عشر من قولهم هو خال مال وخائل

في مكتبة التراث الشعري: مراجعات وإضافات

مال إذا كان يرعى الإبل ويحسن القيام عليها، وفي الرابع عشر منقوص الذي لا يعنى بأمره، ويخلد إلى الراحة والعيس الحسيس، وفي الخامس عشر خال السحاب، وفي السادس عشر الرجل الجواد، شبه بخال السحاب، وفي الثامن عشر ثوب يسجى به الميت يريد أنهم إنما يموتون في العرب لا على فرشهم، وقوله: فخال إذا فعل أمر من خاليته إذا تاركته وتخليت عنه، وقوله: عبس وذبيان بالخال هو موضع غير الموضع الذي ذكره امرؤ القيس في قوله:

ديار لسلمى عافيات بذي خال

ولذلك كرر في موضعين، وقوله في آخر الشعر وخال من قولك خاليت الرجل مخالاة وخلاء إذا انفردت به على خلو » . و « عبْلُ الشَّوَى: أي غليظ القوائم ». لسان العرب (عبل) ٤/٢٧٨٩.

(٢) وقال: [من الطويل]

١- أتحسبُ عندَ الموتِ أنك تعدمُ
وذاك الوجود الحقّ لو كنت تفهمُ

٢- جهلتَ فخلتَ الجوهرَ الفردَ ما له
وجود ولا موجودُ إلا التجسّمُ

٣- حياتُك نومٌ والرَّدَى لك يقظةٌ
تأمَّلْ (رويدًا) إنَّما أنتَ تحلمُ

٤- ونفسك فاعلم حيَّة أبديَّة
وإن بان عنها شخصُها المتجسّمُ

٥- وما الموتُ إلا أن تفارقَ جسمَها
إلى أمدٍ من عمرِها يتصرّمُ

٦- وتُجلي غطاءً عنك توقنُ بعدَه
بما لم تكن من قبلِه تَتَوَهَّمُ

٧- ولله في تركيبِها عندَ بَدْئِها
وعَودتها للجسمِ سِرٌ مُكتَّمُ

٨- وفي الوَعْدِ والإيعادِ والنَّشرِ والبِلَى
له نبأ جهل وخطب معظَّمُ

٩- يحارُ ذوو الألباب فيه فبعضُهمْ
يُعارضُ من جهل وبعض يسلّمُ

١٠- وأنّى لجزئيٍّ بجزئيٍّ عقله
ترنّم بالكُلّية مُترَنِّمُ

١١- أساويتَ بين النَّفسِ والجسمِ ضِلّةً
وكيف يساوي ذا الفصاحةِ أعجمُ

١٢- وهل كان هذا الجسمُ يعقلُ ما حوى
من العلم لولا النفسُ أو تَتَكَلَّمُ

١٣- بها حَييَ الجسم الذي كان ميتًا
وأضحَى يروّي في الأُمور ويَجزمُ

١٤- فإن قلتَ: لا وجدان للنَّفسِ دونه
نقضتَ ولم تَدرِ الذي أنتَ تعزمُ

١٥- فإن قلتَ: إن الجسمَ حيٌّ لذاته
فقولك أدهى في المحَالِ وأعظمُ

١٦- لأنَّ حياةَ الجسمِ تعدم مرَّةً
ولو أنَّها للذاتِ لم تكُ تعدَمُ

١٧- لذلكَ لم يعدم من النَّفس فاغتدتْ
مُؤبَّدة تبقى ولا تَتَخَرَّمُ

١٨- فإن قلت: نفس الجسم فاعلم من أوجه
كما قال جالينوسَ فالزُّورُ أحسمُ

١٩- لأنّا نرى سوءَ المجازِ مُغيِّرًا
لجسمِ الفناء والمرءُ إذ ذاك أفهمُ

٢٠- وتبصرُ جسمَ المرءِ يضوي وعقلُه
يزيدُ ويضوي العقلُ والجسمُ يضخمُ

٢١- وقد جعلوا أقوى الحجاج مقالةً
توهَّمها ذو غفلةٍ متوهِّمُ

٢٢- فقالوا: رأينا الطِّفلَ تضعفُ نفسُهُ
ويضعف من ذي الشَّيب أزمانَ تحلمُ

٢٣- ويقوى لذا حالُ الشَّباب فدلَّنا
على أنَّها للجسم تلوٌ ملزَّمُ

٢٤- فقلنا: وهمتم إنَّما الجسمُ آلةٌ
بها تفعلُ النفس الأمورَ وتحكمُ

٢٥- فإن قويتْ آلاتُها لاحَ فعلُها
بأعضاء ذاك الجسمِ وهو متمِّمُ

٢٦- وإن ضعفتْ آلاتُها كان عَجْزُها
من الجسم لا من ذاتِها فتفهَّمُ

٢٧- كما يعجزُ الأعمى ومن هو مقعدٌ
وذو الصَّمم البادي ومن هو أجذمُ

٢٨- وليس لعجزِ النَّفس لكن لآلةٍ
بها عن قبول الفعلِ عجزٌ مُخيِّمُ

٢٩- ورُوحُ الفتى شيءٌ سوى النَّفسِ هالكٌ
مع الجسم يروي ذاك قومٌ ويزعمُ

٣٠- له القلبُ مثْوى عنده ويمدُّهُ
نسيمُ الهوى المستنشقُ المتنسَّمُ

٣١- وقد قيل: إنَّ الرُّوح والنَّفسَ واحدٌ
وما لهما عدمٌ ولا متصرَّمُ

٣٢- وقد قيل: إنَّ الرُّوحَ أشرفُ عنصرٍ
من النَّفس وهو النَّاطق المتكلِّمُ

٣٣- فدع قولَ من يقضي على النَّفسِ بالرَّدى
ويحسب أنَّ الموت فيه التَّصرُّمُ

٣٤- وأيقنْ إذا ما متَّ أنَّكَ صائرٌ
لحالين إمَّا شقوةٌ أو مُنَعَّمُ

٣٥- وجملةُ أصنافِ العلوم ثلاثةٌ
كذا قيل في تقسيمِها إذ تُقسَّمُ

٣٦- فعلمُ تعاليمٍ وعلمُ طبيعةٍ
وعلمٌ إلهيٌّ إليه التَّسنُّمُ

٣٧- هو الغرضُ الأقصى وما قبلَه له
مقدِّمةٌ للناظرين تُقدَّمُ

٣٨ – وكلٌّ له فعلٌ كما قال ذو النُّهى
وحضَّ على إثباته من يُعلِّمُ

٣٩- وفعلُ الإلهيِّ الشريف منسكٌ
وكيف ترى الفعل الخناءَ وتأثمُ

٤٠- وحفظٌ لما قال النبيُّون إنَّهمْ
ألبُّ وأدرى بالأمورِ وأعلمُ

٤١- فخذ بوصايا العارفينَ وهديهم
لعلَّك عند الموتِ تنجو تسلَمُ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٤٧٧ – ٤٧٨، ووضعت كلمتا «لجسم»، و«ألب» في نهاية الشطر الأول في البيتين (١٩)، و(٤٠)، وورد عجز البيت الثالث هكذا: «تأمل رويدك»، والبيت مكسور على هذه الرواية، والصواب ما أثبت، والبيت العاشر مضطرب في عجزه.

(٤) وقال: [من مجزوء الرمل]

كيف تُغْطُون من البا
في وبالفاني تَضِنُّون؟

التخريج: زهر الأكم ٢/٢٦، ونظم الدر والعقيان في محاسن الكلام ٣١٢، ومعه فيهما بيتان آخران، هما في الديوان ضمن مقطعة ص ١٦١، وفي هامش نظم الدر تدافع البيت الأخير منها، وكذا وتخريجه.

(٧) ديوان «البارع البغدادي ت ٥٢٤هـ»

«البارع البغدادي» شاعر وعالم مشهور من شعراء العصر العباسي وعلمائه، ضاع ديوان شعره؛ لذا نهض بعض الباحثين في العصر الحديث بجمع ما تناثر منه في بطون المصادر، وللدكتور «يونس السامرائي» فضل السبق في هذا المجال، وتلاه الأستاذ «هلال ناجي» بمحاولة ثانية، فقد حقق كتاب «طرائف الطرف» لهذا البارع، ووجد فيه بعض الأشعار التي نسبها المؤلف لنفسه، فأضافها إلى ما جمع «يونس السامرائي»، وأضاف أشعارًا أخرى عثر عليها في بعض المصادر التي طبعت بعد محاولة «السامرائي»، وبالتالي اكتملت له حصيلة شعرية، بلغت على يده (٤٣٤) بيتًا، بعد أن كانت - على حد قوله في مقدمته للديوان ص ٤٢ - (١١٢) بيتًا على يد «السامرائي» في كتابه «آل وهب من الأسر الأدبية في العصر العباسي ص٣٨٨- ٤١٩».

وتأتي هذه السطور المتواضعة لتحاول الارتقاء بعمل «هلال ناجي» بصفته آخر ما استقر عليه الأمر سواء في التعريف بالشاعر، أو في جمع ديوانه، ومن ثم يأخذ الشاعر المكانة الشعرية اللائقة بإبداعه الشعري بين شعراء العربية، وقد رأى كاتب هذه السطور توزيع ما لديه بخصوص هذا الأمر إلى عدة عناصر، هي:

(١) ملحوظات على مقدمة الديوان.

(٢) تتمة الديوان.

(٣) إخراج الشعر المخلوط بشعر الشاعر.

(٤) ملحوظات عامة على الديوان، وتُفتتح هذه السطور بـ:

(١) ملحوظات على مقدمة الديوان:

بدأ المحقق تحقيقه بمقدمة موجزة عَرَّف فيها بـ«البارع البغدادي»، وشيوخه، وطلابه، وآثاره، ومكانته العلمية، وأطراف من سيرته، وشيخوخته، وديوانه. وبمثل هذا افتتح تحقيقه لكتاب «طرائف الطرف» المنشور قبل نشر الديوان بسنوات طويلة، بيد أن مقدمته المنشورة مؤخرًا في الديوان يبدو عليها التسرع والإخلال بأشياء مهمة، ما كان لها أن تخل بها إن لم تزد عن المقدمة المنشورة من قبل في كتاب «طرائف الطرف»، وسيتم هنا تناول المقدمتين لإتمام ما أخلتا به، وقبل هذا الأمر يلزم التنويه - كما نوه المحقق - بما كتبه «علي جواد الطاهر» في كتابه «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي»، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢١٧ - ٢١٩، و«يونس السامرائي» في كتابه المذكور آنفًا، فقد كتب كل منهما ترجمة ضافية للشاعر، قال «هلال ناجي» ص ٨ - ٩ من طرائف الطرف: «وقد ترجم للبارع أستاذان جامعيان عراقيان: أحدهما الدكتور علي جواد الطاهر، لكنه جهل أمر كتابنا هذا فلم يذكره، والثاني هو الدكتور يونس أحمد السامرائي، فقد ذكر ما قاله الحاجي خليفة عن كتابنا هذا، لكنه أردف ذلك بقوله: إن كتاب طرائف الطرف مفقود... والواقع أن مصنف معجم الأدباء أول من أشار إلى أن البارع الهروي هو صاحب كتاب طرائف الطرف لكن هذه الإشارة وردت في ترجمة البارع الزوزني فخفيت

على مترجميه وعلى أساتذة الجامعة».

١- ومن أساتذة الجامعة المقصودين هنا «علي جواد الطاهر» الذي رصد في ترجمته لهذا الشاعر رقم صفحة في المنتظم، هي ١٠٢/٨، وقد وقف عليها «هلال ناجي» عندما كتب مقدمة «طرائف الطرف»، ولكنه سها عنها عندما نهض بجمع الديوان بعد ذلك، ولو لم ينسها لما فاتته قصيدة في (٤٩) بيتًا، إن هذا الأمر يدل على التسرع الظاهر في محاولته لجمع شعر هذا الشاعر؛ فضلاً عن التسرع الواضح في كتابته لترجمته المنشورة مؤخرًا في مقدمة ديوانه، ومن أدلة التسرع أيضًا أنه أثبت في مقدمة «طرائف الطرف» قصيدة «البارع البغدادي» التي ردَّ بها على شابن الهبارية» اعتمادًا على معجم الأدباء (ط. إحسان)، حيث قال في الهامش ص ١٢: «النص أثبتناه عن معجم الأدباء طبعة إحسان عباس (ص١١٤٤ - ١١٤٥)، فهو ناقص كبيرًا (كذا) في طبعتي مرجليوث والرفاعي».

ويقول الباحث: وهذا النقص حاصل في القصيدة في نشرة الديوان، إذ لم يرجع المحقق في جمعه إياه إلى طبعة إحسان عباس من ناحية، ونسي من ناحية أخرى ما أورده من تمام القصيدة في مقدمته لـ«طرائف الطرف»، ولو دقق وهو يختصر مقدمة «طرائف الطرف» في مقولته السابقة لما أورد القصيدة ناقصة في الديوان، ولو كان رجع إلى طبعة «إحسان عباس» وهو يجمع الديوان لما فاته بعض ما تم استدراكه هنا.

٢- وهناك أمر آخر لا يقل عن هذا خطورة، لو تنبه إليه «هلال ناجي» لأثرى محاولته، ولما فاته الكثير مما تمَّ استدراكه هنا، هذا الأمر يتصل اتصالاً وثيقًا بتحقيقه لكتاب «طرائف الطرف» الذي نشره كما ذُكِرَ قبل نشره للديوان بأعوام مديدة، أما تفصيل هذا الأمر فيتضح في الآتي:

احتوى متن كتاب «طرائف الطرف» على أشعار غير قليلة من شعر «البارع البغدادي»، منها ما هو منسوب إليه داخل الكتاب، وهذا ما جمعه المحقق فقط، ومنها ما هو منسوب في بعض النسخ المخطوطة المعتمدة في التحقيق، إذ اعتمد «هلال ناجي» في تحقيقه لهذا الكتاب على بعض المخطوطات، منها مخطوطة رمز إليها بـ (مج)، وهذه المخطوطة تنسب مقطعات كثيرة للمصنف، ونص هو على ذلك في هوامش تحقيقه لهذه المقطعات، وقد أنسَتْه هذه الفترة الطويلة بين تحقيقه لهذا الكتاب وبين جمعه للديوان أمر هذه المقطعات المنسوبة في بعض النسخ لصاحب الديوان و«طرائف الطرف»، ففاته جمعها على الرغم من اعترافه صراحة بأنها «للبارع البغدادي»، وقد تم هنا التأكد من عدم نسبة هذه الأشعار إلى غيره من الشعراء، ومن منطلق هذين الأمرين، أمر نسبتها إليه في بعض النسخ المخطوطة واعتراف المحقق بأنها للشاعر، وأمر خلوص نسبتها إليه تم استدراكها هنا على الديوان.

٣- أخلت مقدمة المحقق في عمَلَيه بفوائد مهمة - لعل بعضها يذكر هنا لأول مرة - منها: أنه عقد عنصرًا تحت عنوان: «أطراف من سيرته»، قال فيه ص ١٠ من «طرائف الطرف»: «نزرة هي الأخبار التي وصلتنا عن سيرة البارع، فنحن لا نعلم شيئًا عن حياته الأسرية سوى ما ذكرته المصادر عن أخ لأمه هو أبو الكرم المبارك ابن فاخر وكان نحويًا...»، وينظر مقدمة الديوان ص ٢٩.

ويرى كاتب هذه السطور أن مصادر التراث العربي أوردت أمورًا لو وقف عليها المحقق لأثبتها ضمن هذه الأطراف ؛ لأنها وثيقة الصلة بتقرير مكانة الشاعر بشكل أكثر دقة وعمقًا، وإلقاء الضوء على نصيب أولاده من الحياة العلمية والأدبية، مما يصح أن يكون نقطة انطلاق لمواصلة البحث من جديد من حيث انتهى «السامرائي» في كتابه السابق حول متابعة دراسة إبداع هذه الأسرة وحياتها العلمية في القرن السادس الهجري وما بعده، خصوصًا ذرية «القاسم بن عبيد الله الدَّبّاس»، فمن ذلك أن «البارع البغدادي»:

أ- أنجب بنتًا شاعرة، اسمها «بدر التمام»، ترجمتها وبعض أشعارها في كتاب المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٦٦، ونزهة الجلساء في أشعار النساء ٣١. قال «السيوطي» في هذا الكتاب: «بدر التمام بنت الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدَّبّاس، يعرف والدها بالبارع، ذكرها الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد وقال: كانت شاعرة رقيقة الشعر محسنة».

ب - له أخ آخر عالم اسمه «أحمد» على ما ذهب «الذهبي» في قوله: «أحمد بن محمد بن عبد الوهاب. أبو البركات الدَّبّاس، أخو الشيخ أبي عبدالله البارع، سمع أبا يعلى ابن الفَرّاء، والحَسَن ابن غالب المقريء، روى عنه المبارك بن أحمد الأنصاري، وذاكر بن كامل، وابن بَوش». تاريخ الإسلام ٣٦٦/١١.

ج- وأحمد هذا له ابن عالم اسمه «محمد» على ما ذكر «الذهبي» أيضًا في تاريخ الإسلام ١٥٠/١٢- ١٥١ في قوله عنه: «محمد بن أحمد ابن محمد الدَّبّاس المقرئ، هو ابن أخي أبي عبدالله البارع، كان صالحاً مقرئاً، وراقاً، سَمِعَ مالكاً البانِياسيَّ، والنِّعاليَّ، وعنه ابن الأخضر».

د- و«للبارع البغدادي» ابن أخ آخر له قدم راسخة في العلم أيضًا، اسمه «أحمد»، قال «الذهبي» عنه: «أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب. أبو المَحَاسِن ابن أبي نصر ابن الدَّبّاس. من أرباب البيوتات الكبار ببغداد، ومن ذُرية القاسم ابن عُبيد الله الوزير. أديبٌ، كاتبٌ، شاعرٌ، قعدَ به الوقتُ، وصار ينسخُ بالأجرة. سمع النِّعاليّ، وطِرادًا الزَّينبيّ. روى عنه ابن سُكَينة، ويوسف بن المبارك الخَفّاف». تاريخ الإسلام ١٠٨/١٢

هـ - وله أخت كان لها دور بارز في رواية العلم، اسمها: «بشارة بنت محمد بن عبد الوهاب الدَّبّاس». ينظر تاريخ دمشق ٢٧٢/٥٩.

و - ولبشارة هذه بنت كانت كأمها في الرواية العلمية، اسمها: «مهيار بنت ياسر»، وقد روى عنهما ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق ٦٣/٥٩، ١٢٦/٢٧٢، ٢٨٦/٣٦.

وهناك أعلام آخرون يتصلون بحياة هذا الشاعر الخاصة، وقف الباحث على بعضهم، ولم يدرجهم هنا اختصارًا، وهناك أعلام آخرون يفتقرون إلى تتبع سلسلة نسبهم؛ لأنهم ربما يكونون من أولاده؛ منهم على سبيل المثال والاستدلال:

ز- «أبو تمام البارد، عبد الواحد بن الحسين ابن محمد الدَّبّاس، أبو تمام الفقيه، الملقب بالبارد، كان يقول الشعر... سمع الحديث من جده لأمه أبي البركات محمد بن يحيى الوكيل. وروى عنه ولده». الوافي بالوفيات ١٦٩/١٩، وما بهامشه من مصادر

ح - «أبو الفضل هبة الله بن الحسين الدَّبّاس»،

ينظر بغية الطلب في تاريخ حلب ص ٢٦٨٦.

لا شك في أن إدراج هذه الأخبار في سيرة الشاعر أهمية لا تقل من وجهة نظر الباحث عمّا أثبته المحقق من المداعبة التي جرت بين الشاعر وبين «ابن الهبارية»، ثم إن هذه المعلومات لا تنتهي بباحث - أي باحث - كما انتهى المحقق - إلى أن يحكم بأن الأخبار التي وصلتنا عن هذا العالم الكبير والشاعر المجيد قليلة لأن في هذا التصريح عدم إظهار لمكانته على ما صورتها المصادر.

ط- أثبت المحقق في طرائف الطرف ص ٧ - ٨ أسماء شيوخ البارع البغدادي وطلابه، ثم أثبتها مرة ثانية في مقدمة الديوان ص ٢٦- ٢٧، وقد أردفها في طرائف الطرف بمقولة «ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ» الشاملة: «وأقرأ خلقًا كثيرًا وروى عنه الحافظ أبو القاسم بن عساكر»، وهي عبارة كما تبدو شاملة، ولو كانت مثبتة على شموليتها هذه في مقدمة الديوان المنشور مؤخرًا لما أضيفت إلى هذه الأسماء بعض أسماء أخرى لطلابه على النحو التالي، فمنهم:

أ- «ابن حمدي المقرئ، أحمد بن أحمد بن محمد بن علي بن عمر بن الحسن بن حمدي أبو المظفر بن أبي جعفر الشاهد المقرئ، قرأ القرآن بالروايات على أبي عبد الله البارع». الوافي بالوفيات ٦/ ١٤٤، وما بهامشه من مصادر.

ب- «ابن ساقي الماء، سعد الله بن مصعب بن محمد... قرأ بالروايات على أبي عبد الله الحسين ابن محمد بن عبد الوهاب الدّبّاس». الوافي بالوفيات ١١٥/١٥، وما بهامشه من مصادر.

ج- «ابن الباقلاني المقرئ، عبد الله بن منصور ابن عمران بن ربيعة الربعي، أبو بكر المقرئ المعروف بابن الباقلاني، من أهل واسط». الوافي بالوفيات ٢٤٢/١٧ - ٢٤٣.

د- «ابن المنّيّ الحنبلي، نصر بن فتيان بن مطهر النهرواني، ناصح الدين، أبو الفتح الحنبلي». الوافي بالوفيات ٥١/٢٧.

هـ - «ابن شُنَيْف المقرئ، هبة الله بن رمضان ابن أبي العلاء.. قرأ بالروايات على البارع أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدّبّاس». الوافي بالوفيات ١٦١/٢٧.

و - «علي بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الملك الدامغاني». ذيل تاريخ بغداد ١١٥/٣.

ز - شعلي بن عبيد الله بن الحسن بن الحسين ابن بابويه». التدوين في أخبار قزوين ٣٧٢/٣.

ح- «القاضي ابن أبي عصرُون، عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر... قرأ السبع على أبي عبد الله البارع». الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٠٩.

ط - «إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محفوظ أبو إسحاق السلمي الآمدي ثم البغدادي يعرف بالظهير ابن الفراء، قرأ بشيء من القراءات على أبي عبد الله البارع». المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي٢٣٢/١.

ي- «محمد بن أحمد بن بختيار بن علي». المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي ١٨/١.

ك- «أحمد بن محمد بن المبارك بن أحمد ابن بكْرُوس، أبو العباس البغدادي، الحنبلي الفقيه الزاهد... قرأ أيضًا القراءات على أبي عبد الله البارع». تاريخ الإسلام ٥٢١/١٢.

ل- «مَنُوجهر بن محمد بن تركانشاه، أبو الفضل

الكاتب... وحدّث بكتاب إصلاح المنطق عن أبي عبد الله البارع». تاريخ الإسلام ١٢/ ٥٦٧.

م- «عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر، العلامة أبو محمد ابن الخشاب النحوي». تاريخ الإسلام ١٢/ ٢٦٣

ن- «المبارك بن أحمد بن هبة الله، الشريف أبو المظفَّر الهاشميُّ، المعروف بابن المَكْشُوط». تاريخ الإسلام ١٣/ ٤٢٣.

هذا قليل من كثير الأخبار المتعلقة بهذا الأديب التي وقف عليها كاتب هذه السطور، وقد وقف على أسماء أخرى لكثير من طلابه خصوصًا في مجال دراسة القراءات القرآنية، أعرض - مراعاة للإيجاز - عن إثباتها هنا، ولا شك أن كل هذا يضائل من صحة ما ذهب إليه «هلال ناجي» من أن أخباره من القلة بمكان في مصادر التراث العربي، ولولا خشية الإطالة لأُزجِيَ هنا مما وُقِفَ عليه من الأخبار ما هو أكثر من هذا، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. بيد أن هناك أمرًا لابد من الإشارة إليه هنا، وهو التأكيد على أن المقدمة التي كتبها المحقق عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م في تحقيقه لـ«طرائف الطرف» أدق وأشمل من المقدمة التي صدر بها الديوان، ومثلها ترجمة «علي جواد الطاهر» المذكورة في كتابه السابق، وترجمة «يونس السامرائي» في كتابه السالف الذكر، وهذان الكتابان مطبوعان قبل «طرائف الطرف» بزمن؛ لذا ينبغي الاعتماد في ترجمة الشاعر على هذه المصادر، لأن المحقق اختصر مقدمته لكتاب «طرائف الطرف»، وأدرج هذا الاختصار في مقدمته للديوان، ثم إن الاختصار شابه التسرع، وعدم التريث أمام اختيار المهم لإدراجه في مقدمة الديوان، فأدى هذا التسرع إلى إخلال الديوان بأبيات يجدها القارئ في مقدمة هذا الكتاب، كما ذُكِر آنفًا، فضلاً عن إخلال المقدمة المنشورة مؤخرًا بإضافة جديد مما تم ذكره في السطور السابقة.

(٢) تتمة الديوان:

ذُكر آنفًا أن أول من التفت إلى جمع شعر الشاعر - كما ذكر المحقق - هو «يونس السامرائي»، ثم تلاه بمحاولة ثانية «هلال ناجي» الذي فاته من شعر «البارع» الشيء الكثير، إذ أضيفت إليه هنا حصيلة شعرية غير قليلة، تم التقاطها وإدراجها هنا لتكون تتمة للديوان، ومن ثم تظهر شاعرية الشاعر بصورة أنصع، وعلى الرغم من هذا لا يصرح الباحث أنه استدراك كل ما ضمَّنه المصادر، كما يصرح بأن ما أضافه هنا قد فات «هلال ناجي» لأنه ملتقط من بعض المصادر التي رجع إليها وأفاد منها، وبعض المصادر التي حققها بنفسه، وبعض المصادر التي كانت مطبوعة قبل نشره للديوان بزمن، وها هي ذي بقية الديوان:

(١) وقال:

١- خليلي مرًا بي على الرمل فاسألا
عن الحي (بالجرعاءِ) هاتيكما الكثْبا
٢- وعُوجا على وادي الأراك فحييا
هنالكَ أطلالاً (رَدَدْتُ) بها القلبا
٣- وحُطَّا بذاك الشِّعبِ رَحلي وأعقلا
قلوصَكما آليتُ أبرحُه شِعْبا
٤- ولا تُنكِرا تَشمي ثَراه فإنني
به ذاكرٌ عهدًا فمستلمٌ تربا

٥- تَشدُكما أن تمنحَانيَ وَقفةً
أبلّ بها شوقي وأقضي بها نحْبا
٦- وأن لا تلومَا في البكاءِ لَعَلَّهُ
يبل بها غليلا أو ينفس لي كربا

الرواية: (١) ورد البيت الأول في مثير الغرام الساكن أشرف الأماكن (ط. أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل) برواية: «عن الحمى»، وهي رواية مخلة بالوزن، وورد في المصدر نفسه بطبعتيه برواية: «بالجرعاء»، وهي رواية مخلة بالوزن.

(٢) وورد البيت الثاني في المصدر نفسه بطبعتيه برواية: «ردت بها»، والصواب ما تم إثباته لاستقامة الوزن.

(٥) وورد البيت الخامس في تشنيف السمع بانسكاب الدمع برواية: « بها شوقًا ».

التخريج: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٣٥٨ (ط. مصطفى الذهبي)، ص ١٩٨ (ط. أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل)، والبيتان: ٦،٥ له في تشنيف السمع بانسكاب الدمع ٦٢.

(٢) وقال:

١- دَعِ المطَايَا تَنسُمُ الجَنوبَا
٢- إنَّ لَهَا لنبأً عَجيبا
٣- حَنينها وما اشتكتْ لُغوبَا
٤- يَشهدُ أن قد فَارَقتْ حَبيبَا
٥- ما حَمَلتْ إلا فتىً كئيبَا
٦- يسرُّ ممَّا أعلنتْ نَصيبا
٧- شامتْ بنجد بارقًا كَذُوبا
٨- أذكرَها عهدَ هوى قريبا
٩- فغادرَ الشُوقَ لها (نحيبا)
١٠- يضرمُ في فؤادها لهيبَا
١١- تروم (إذ) ما استشرَفتْ كثيبًا
١٢- كأن بالرُملِ لها سقُوبا
١٣- يمسِي إذا حَنتْ لها مُجيبَا
١٤- لو غادَرَ الشُوقُ لنَا قلوبَا
١٥- إذن لأثرنا بهنَّ (نيبَا)
١٦- إن الغريبَ يُسعِدُ الغَريبَا

الرواية: (٣) ورد الشطر في المدهش (ط. مروان قباني، وط. حامد البسيوني) محرفًا هكذا: «لوباء».

(٤) ورد الشطر في المدهش في الطبعتين السابقتين محرفًا ومصحفًا هكذا: «يشهدان»، وفي (ط. حامد البسيوني: « تصحيف: «فارقته».

(٩) وورد قافية الشطر في مثير الغرام الساكن نونية هكذا: «حنيناه في هذه الأرجوزة البائية، والصواب ما تم إثباته.

(١١) ورد الشطر في مثير الغرام الساكن برواية: «إذا»، والصواب ما تم إثباته.

(١٥) ورد الشطر في مصادره برواية: «لهنَّ النِّيبَا»، والصواب ما تم إثباته.

التخريج: الأرجوزة في مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ١١٤ (ط.مصطفى الذهبي)، وص ٥٧ (ط.أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل) ماعدا الأشطر ٥، ٦، ١٠، والأشطر ١ – ٦، ١٤ – ١٦ بلا نسبة في المدهش ص ١٤٥ (تحقيق مروان قباني)، ص١٤٠ (ط. دار الجيل)، ص١٢٥ (ط. حامد البسيوني).

(٣) وقال:

١- أُوَدِّعُكم يا سادتي لا عدمتُكُمْ
وناظِرُ عَيني بالدِّماءِ خَضيبُ

٢- وإنَّ فُؤادي سارَ يقفو مَطيَّكُمْ
ألا أكرِمُوا مثواه فهو غريبُ

التخريج: طرائف الطرف ص ٨٩ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٤٨: «مج: وقال: معطوفة على ما قبلها». وما قبلها هو من شعر مؤلف الكتاب، البارع البغدادي.

(٤) وقال:

١- أشرتَ بأمرٍ فامتثلتُ ولي به
ثلاثةُ أيَّامٍ من العمرِ ضاعتِ

٢- أردتَ به مولايَ إهداءَ منَّةٍ
إليَّ فاستحلى مجيءَ مَجاعتي

٣- ولا أمتري ضَرْعَ الضَّراعة بعدَما
تكشَّفَ عَنْ وَجْهي قِناعُ القَناعةِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٤٦ – ٤٧، المقطعة رقم (٦٦)، وقال «هلال ناجي» في هامشها ص ١٢٧: «مج: وقال: معطوفة على ما قبلها». وما قبلها هو شعر للبارع البغدادي، كما قال الأستاذ في هامش المقطعة السابقة عليها برقم (٦٥) من هذا الكتاب.

(٥) وقال:

١- أفاتتني الأيَّامُ أدنى مَطالبي
وأبعدَ هَمّي والليالي على الفَوْتِ

٢- أرى النَّاسَ أقصى حُبِّهم لحياتِهِمْ
وإنِّي لتُصبيني حياتي إلى الموتِ

٣- وأهلُ زماني كلُّهم ذو خَساسَةٍ
فإنَّ سُكوتي كان أولى من الصَّوتِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٩٥ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٥٠: «مج: وقال، معطوفة على مقطعات لمصنِّف الكتاب».

(٦) وقال:

١- يا قلبُ صَبْرًا لنَبْلِ غُنْجِ
من مُقلةِ الشَّادنِ المليحَهْ

٢- هذا الذي كنتُ في مساءٍ
أنهاكَ عنه وفي صبيحَهْ

٣- حتى إذا ما وقعتَ فيه
وصرتَ في حالةٍ قبيحَهْ

٤- جئتَ من الحبِّ مُستغيثًا
تسألني سَلوةً مُريحَهْ

٥- كطالبِ الرُّشدِ عند أعمى
وقابسِ النَّارِ في البطيحَهْ

٦- سوف أُنادي عليكَ حتَّى
تصيرَ بينَ الملا فَضيحَهْ

٧- هذا جزا مَن نصحتُ جهدي
له فلم يقبلِ النَّصيحَهْ

التخريج: ذم الهوى ٢٥٤، وكتب البيت الثاني فيه مدورًا، وليس كذلك.

(٧) سقطت من القصيدة رقم (٨) من الديوان ستة أبيات، وقد أثبت المحقق هذه القصيدة تامة في مقدمته تحقيقه لكتاب طرائف الطرف ص ١٢ – ١٣ المنشور عام ١٩٩٨م، وسها عن إثباتها كاملة

في تحقيقه للديوان، وبالتالي ظهرت القصيدة في الديوان ناقصة بعد أن نشرها من قبل كاملة، والأبيات التي لم ترد في الديوان هي:

١- أو ما كنتُ ثانيًا لك إذ تُد
ـحِمُ في السوق حَلقةً وتُسَدِّي

٢- فتعففتُ واقتنعتُ بتدفيـ
ـع زماني وقلتُ: إني وحدِي

٣- كلُّ هذا عذرٌ إليكَ فإن تقـ
ـبل وإلا فاقعد على رأسِ قِردِي

٤- قد تناهيتَ في المزاح إلى الـ
ـغاية حتى كأنه عينُ حقدِ

٥- ووحقِّ العبَّاس جدِّك ما أنـ
ـسَبُ شيئًا منه إلى غيرِ جَدِّ

٦- فأَقِلني بحقِّ ما بيننا منـ
ـه فهذا نهايةٌ في البرد

ويضاف إلى تخريجها في مقدمة طرائف الطرف: جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ٥٦٣، باختلاف في رواية بعض الأبيات، والقصيدة مذكورة كاملة أيضًا في هذا المصدر، وقد سبق الحديث عنها.

(٨) وقال:

١- يا بأبي الرِّيم الذي زارني
كالبدرِ يجلوهُ القبا الأسودُ

٢- وافى إليَّ السكرُ ليلًا به
ولم يكن عندي لهُ موعِدُ

٣- فجاءَ يهتزُّ كريحانةٍ
يكادُ من لينته يُعقدُ

٤- وقال: ضيف قلتُ: أهلًا به
يدخلُ فالعيشُ به أرغدُ

٥- عرَضَ بالجَنر فناولته
في الوقتِ ما امتدتْ إليه اليدُ

٦- حتى إذا أوفيتُه نقده
والنقدُ سَمَّاعٌ له الجلمَدُ

٧- بتنا معًا في مَرْقدٍ واحدٍ
يضمُّنا تحتَ الدُّجى مَسْجِدُ

٨- يَؤمُّني لا لصلاةٍ فما
أركعُ إلا بعد ما يسجدُ

٩- حتى انجلى الليلُ بصُبحٍ ولم
أرقدْ ولا خَليتُه يَرقدُ

التخريج: معجم الأدباء ١١٤٢ – ١١٤٣.

(٩) وقال:

يمينًا لجهلي فيكَ أشهى من النُّهى
إليَّ مع الشَّيبِ الذي جارَ قَصْدُهُ

التخريج: بغية الطلب ٢٧٦٢، وقد سقط من القصيدة رقم: (١٩) ص ٤٨ – ٥١، حيث إن مصدره هو نفس مصدرها، ويوضع بعد البيت رقم (٥٨) في ترقيم المحقق لأبيات الديوان.

(١٠) وقال:

١- يا عيشةً مذمومةً لا أرتضي
بدوامها إذ ليسَ فيها فائِدَهْ

٢- أيامُ عُمْرٍ لا تفي بمواعد
أمَّلتُها فهيَ الحياةُ الفاسِدَهْ

٣- وقرأتُ قولَ الله جَلَّ جلالُهُ
وكلامُه حِكَم علينا وارِدَهْ

٤- أنْ تلكَ بينَ النّاسِ أيامٌ تُدَا
وِلُهَا فباديةٌ وَطَوْرًا عَايِدَهْ

٥- لكنَّني في ذا الزَّمانِ وأهْلِهِ
كالواوِ في عَمْرٍو تَرَاهَا زَائِدَهْ

٦- سَادَاتُ عَصْرِي لا تبضُّ صَفَاتُهُمْ
وعليهِمُ صَبُّ الإلهِ عَوائِدَهْ

٧- فنَصِيبُنا منهمْ شَدِيدُ مَجَاعَةٍ
يا رَبَّنَا أنزِلْ علينا مَائِدَهْ

التخريج: طرائف الطرف ص ٩٥ - ٩٦ عن النسخة (مج)، واحتلت هذه المقطعة رقم (٢٥٩) في الكتاب، وهي في متنه معطوفة على ما قبلها، وهو شعر منسوب لصاحب الكتاب كما قال المحقق في هوامشه ص ١٥٠، وأتت بعدها مقطعة برقم: (٢٦٠)، وقال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٥١: إنها «معطوفة على ما قبلها، وهي مقطعات لصاحب الكتاب».

(١١) وقال:

١- أبتْ نارُ قلبكَ إلا استعارا
وماءُ شُؤونِكَ إلا انهمارا

٢- وكنتَ صَبورًا قبيلَ الفراقِ
فهلا أطقتَ عليه اصطبارا

٣- أهابَ بقلبكَ داعي النَّوَى
غداةَ الوَدَاعِ ألا لا قَرارا

٤- فأزمَعَ إذْ أزمَعُوا نيةً
فراقَ حَشَاكَ وسَارُوا فَسَارا

٥- فلستَ تراكَ ضَنيَ بعدَها
عيونُ العَوائِدِ حتّى تَمارَى

٦- كأنْ لم يَطُفْ بسِوَاكَ الهوى
ولا احتلَّ غيرَ سُوَيداكَ دَارا

٧- وقد ماتَ قيسٌ به هَائِمًا
فمَا أدركتْ عامرٌ منه ثارا

٨- وأوْدَى بعُرْوَةَ من قَبْلِهِ
فلم تَغْزُ عذرةُ عنه انتصَارا

٩- وماتَ بدائِهِمَا تَوْبةٌ
أخْبُو كِرامًا وماتوا حِرارا

١٠- وأنتَ على إثْرِهم سالكٌ
سبيلَهم فالفِرارَ الفِرارا

١١- وكنتَ وليلى رَضيعَيْ هَوى
وجاريْ صَفًا ما تَذُمُّ الجوارا

١٢- فأصبح قد جُدَّ حَبْلُ الوصَالِ
وجَدَّ الفراقُ فشَطَّتْ مَزارا

١٣- وقد خلَّفَتني أرْعَى النُّجُو
مَ أينَ بدا ذا وذا أينَ غارا

التخريج: ذم الهوى ٢٥٥.

(١٢) وقال:

١- قالوا: عديٌّ ملكُ الحُسْنِ قدْ
أقسمَ أن لا يَشربَ الخَمرَا

٢- قلتُ: فَمَا يجعلُ في ريقِهِ
قد حنكَ البَدْرُ ومَا بَرَّا

٣- لو طَلَبَ الأجرَ لما صَفَّفَ الـ
أصداغَ أو ما زَرَّرَ الخَضرَا

٤- لتبكِ شمسُ الرَّاحِ من نُسْكِهِ
فإنَّهَا قد فارقَتْ بَدْرَا

التخريج: تاريخ الإسلام للذهبي ٦٨٨/١١.

(١٣) وقال:

١- تمنَّيتُ أنْ أحْيا بخيرٍ ولا أرَى
من الدَّهرِ لي خيرًا فأستشفعُ الصَّبرَا

٢- فإمَّا أصابَتْني من الدَّهرِ نَكْبَةٌ
أقولُ: لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ لي أمْرَا

التخريج: طرائف الطرف ص ٩٦ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٥١: «مج: وقال، معطوفة على ما قبلها، وهي مقطعات لصاحب الكتاب».

(١٤) وقال:

١- اليوم قد حلَّتْ لنَا الخَمْرُ
فعِندَنَا الصَّهْبَاءُ والجَمْرُ

٢- إنِّي ومَولاي لَفي خَلْوَةٍ
طَابتْ ولا زَيدٌ ولا عَمْرُو

التخريج: طرائف الطرف ٦٠، وقال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٢٤: «مج: وقال، معطوفة على مقطعات منسوبة إلى مؤلف الكتاب».

(١٥) وقال:

١- فُؤادٌ مَا يَقِرُّ له قَرَارٌ
لنيرَانِ الغَرامِ به استِعَارٌ

٢- وعينٌ ما يَجِفُّ لها غُرُوبٌ
كأنَّ شُؤونَها سُحُبٌ غِزارٌ

٣- وجِسمٌ شَفَّهُ بُرَحاءُ شَوقٍ
لهُ في كُلِّ عُضْوٍ منهُ نَارٌ

٤- سِمَاتُ الحُبِّ لائحةٌ عليه
فليسَ لما بهِ منها استِتَارٌ

التخريج: تاريخ الإسلام للذهبي ١٣/ ١٢١.

(١٦) وقال:

١- ساقٍ يُديرُ الكَأْسَ مُترَعَةً
وبها يَطُوفُ كَخُوطَةِ الآسِ

٢- فترى بريقَ الكَأْسِ في يَدِهِ
وترى صفاءَ يديه في الكَاسِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٥٩ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٢٣: «مج: وقال، معطوفة على المقطعة التي قبلها المنسوبة إلى المؤلف».

(١٧) وقال:

١- مُصَاحبَةُ الأضْدادِ أكبرُ خَطْأةٍ
لديَّ وإن الجنسَ يَصبُو إلى الجنسِ

٢- وجِسْمِيَ من دُنياي في ضيق محبَسٍ
ونفسيَ من جِسْمي ففي أضيقِ الحبْسِ

٣- لقد سَئِمَتْ نفسي الحياةَ وعِبأَها
فيا ليتَها طارت إلى حَضْرَةِ القُدْسِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٩٥ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٥٠: «مج: وقال، معطوفة على ما قبلها من شعر صاحب الكتاب».

(١٨) وقال:

١- تَفَقَّدْتَني طَوْلاً وأكرمَ زائرًا
وأبطلَ قولَ النَّاسِ طولُ المدى مُنسي

٢- دَنا وأخافُ البُعدَ بَعدُ وإنَّما
يُخافُ على بُرءِ المريضِ من النُّكْسِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٨٩ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٤٨: «مج: وقال، معطوفة على مقطعة صاحب الكتاب».

(١٩) وقال:

١- أيا شرفَ الهدَى مجدَ المَعَالي
أعـدْتَ إلـى الـمـكـارمِ خَـيـرَ لحظِ

٢- بسَعْيك عادَ غُصْنُ الدِّينِ غضًا
وعُـودُ الـمُـلـكِ مـأمـونَ التَّشظِّي

٣- وإنِّـي مَـادحٌ لـكَ ظِـلـتُ أكْـسُـو
ثَـنَـاءكَ حُـلَّـتَـيْ مَـعـنـىً ولَـفـظِ

٤- ويـقـبُـحُ مـنـكَ تَـعليلي بحظٍّ
وحـقُّ عُـلاكَ أن أحـظَـى بـحـظِّ

٥- بقِيتَ وريحُ عـزِّك في هُبُوب
ونـارُ سُـطَـاكَ دَائـمـةُ الـتَّـلـظِّـي

التخريج: طرائف الطرف ٨١، وقال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٤٤: «مج: وقال، معطوفة على ما قبلها من مقطعات صاحب الكتاب».

(٢٠) وقال:

١- كلُّ مـن خلتُهُ استخفَّ بقَدْري
إنَّ نفسي إلـيـه تَـأبـى الـرُّجـوعَا

٢- لستُ أهْـوى الـرُّجـوعَ قـطُّ إليه
لا وحـقِّ الـعُـلى وإنْ مـتُّ جُـوعـا

التخريج: طرائف الطرف ص ٤٦ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٢٧ : «مج: وقال: معطوفة على مقطعة لمؤلف الكتاب».

(٢١) وقال:

١- وسـهـام الـلَّـحـظِ يُـسـتحـ
ـسَـنُ فـي وَقْـتِ الـوُقُـوع

٢- ثـم يـصـرفـن فَـمَـا يَـقْـ
ـلَـعْـنَ إلا عَـن ضَـريـح

التخريج: ذم الهوى ٨٨.

(٢٢) وقال:

١- ما على حادي المطايا لو تَرَفَّق
رَيـثـمـا أسـكبُ دمـعي ثم أعتق

٢- هـذه الـدَّارُ الـتـي يَـعْـرِفُـهـا
بالهوى من أهله مَـن كان أشْـوَق

التخريج: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ١١٤ (ط. مصطفى الذهبي)، وص ٥٧ (ط. أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل)، وورد البيت مع خمسة أبيات أخرى بلا نسبة في المدهش ص ٥١٨ (تحقيق: مروان قباني)، ص ٤٢٣ (ط. حامد البسيوني)، ص ٥٤٠ (ط. دار الجيل)، والأبيات هي:

٣- ما على حادي المطايا لو ترفق
رَيـثـمـا أسـكُـبُ دَمـعـي ثم أعنق

٤- يـا فُـؤادًا كلَّما قُـلْـتُ خَـبَـتْ
نَـارُه ألـهـبَـه الـوجـدُ فـأحـرق

٥- ذلـكَ الـعـيـشُ الـذي فَـاتَ به
سـائقُ الـدَّهـرِ فـوَلَّـى أيـن يلحق

٦- زالَ إلا خـطـرةً مـن ذِكـره
كـاد إنـسـانـي لـهـا بـالـدَّمـعِ يشرق

٧- يـلـذع الـقـلـبَ إذا غَـنَّـى على
فَـنَـنٍ أو نَـاحَ قُـمْـرِيٌّ مُـطَـوَّق

وورد البيت الأخير من هذه الأبيات في المدهش (ط. البسيوني) مصحفًا هكذا: «عنى... ناخ»،

والرواية السليمة هي ما وردت في ما عداها من طبعات هذا الكتاب.

(٢٣) وقال:

١- لم يقضِ من سَفرِ الصُّدودِ قُدومُهمْ
خَتّى تَنائوا لِلنَّوى يتحمّلُ

٢- دَعْ شَأن عينك يا حَزينُ وشأنها
وضع اليدَينِ على الحَشَا وتمَلْمَلْ

٣- اليوم آخرُ عهدهم وَلَقَلَّمَا
يُغني وُقوفُك ساعةً في المنزلِ

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في مثير الغرام الساكن برواية: «يا شوق وشأنهم * ودع»، وهي رواية تكسر الوزن لذا اعتمدت رواية المدهش.

(٣) وورد البيت الثالث في المدهش: «هذا وإن فراقهم ولقل ما».

التخريج: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٤٣١(ط. مصطفى الذهبي)، وص ٢٤٢ (ط. أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل)، والبيتان ٢، ٣ بلا نسبة في المدهش ص ٤٦٧ (ط مروان قباني)، ص ٣٨٥ (ط. حامد البسيوني)، ص ٤٨٥ (ط. دار الجيل).

(٢٤) وقال:

١- تَكادُ تكلِّمُ الأحشاءُ مِنّا
إذا عَزَمَ الرفيقُ على الرحيلِ

٢- تودّعني الغَداةَ سُعادُ منها
مسيلُ الدَّمعِ في خدٍّ أسيلِ

٣- فأقفو رَكْبَها في كلِّ قَفْرٍ
وَحَسْبي وجه مالكتي دليلي

٤- وبي نارٌ تَلَظَّى من هَواهَا
ولكنْ حَرُّها بَرْدُ الغليلِ

٥- ونارُ العاشقينَ لها وَفاءٌ
قد انتَسَبتْ إلى نارِ الخليلِ

التخريج: طرائف الطرف ص ٦٧ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٢٧: «مج: وقال، معطوفة على المقطعة التي سبقتها»، والتي سبقتها منسوبة للبارع البغدادي في متن الكتاب.

(٢٥) وقال:

١- وليسَ من العَجائبِ أن تَراني
كثيرَ الخرجِ لي دَخْلٌ قليلُ

٢- ولكنْ أعجَبُ الأشياءِ أنّي
كما ألفيتَني عَزَبٌ مُعيلُ

التخريج: طرائف الطرف ص ٩٥ عن النسخة (مج)، حيث قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٥٠: «مج: وقال، معطوفة على ما قبلها من شعر صاحب الكتاب».

(٢٦) وقال يرثي «أبا منصور المضافري ت٤٦٨هـ»:

١- سَلامٌ وأنّى يرد السلام
مَعاشرُ في التُّربِ أمسوا رِمَامَا

٢- لدَى البِيدِ صَرعى كأن الحمَام
سَقَاهمْ بكأسِ المنايَا مُدامَا

٣- أحباءنا في بُطونِ الثَّرَى
فأبلينَ تلكَ الوُجوه الوِسَامَا

٤- فلو تبصرُ العينُ ما في الصَّفيح
نهاها تخوُّفُها أن تنامَا

مقالات

٥- ألا هل أرى لكمُ أوبةً
وللشمل بعدَ الفراقِ التئامَا

٦- ألا كلّ يوم مطايا المنون
تحفُّ بكم موحدًا أو تؤامَا

٧- تحييّ ضرائحكم إنها
تضمّنُ قومًا علينا كرامَا

٨- سلامٌ على جدثٍ بالعرا
قِ أغمدتُ بالأمسِ فيهِ حسامَا

٩- أناصرُ يفدِكَ مَن لو أطا
قَ دافعَ عنكَ المنايا وحامَى

١٠- دفنتُ العُلا والتُّقى والعفا
فَ والحلمَ والعلمَ فيه جمامَا

١١- أناصرُ لو أنّ لي ناصرًا
صببتُ على الموتِ موتًا زؤامَا

١٢- هو الدهرُ لا يتّقي ضيمَهُ
لشيءٍ (وأحرى بهِ) لا يُضامَا

١٣- أناديكَ إذ لاتَ حينَ الدُّعَاءِ
بمسمَعِهِ لو أطقتُ الكلامَا

١٤- لقد خصّني يا قرينَ الشّبا
بِ فيكَ المصابُ وَعمَّ الأنامَا

١٥- وأوجدني منكَ رَيْبُ المنو
نِ ظمآنَ لم أشفِ منكَ الأوامَا

١٦- وكيف يطيرُ مهيضُ الجنا
حِ خانته عندَ النُّهوضِ القدامَى

١٧- وأطفئُ بالدمعِ نارَ الحشا
ويأبى لها الوَجْدُ إلا ضرامَا

١٨- وكنتُ ألامُ على أدمُعي
فأيقنتُ بعدَكَ أن لا ألامَا

١٩- فلا استشعرَ القلبُ عنكَ السُّلوَّ
ولا ازدادَ بعدَكَ إلا هُيامَا

٢٠- إذا رامَ صبرًا تمثلتَ فيه
فأقصى خيالُكَ ذاكَ المرامَا

٢١- وما أنا من بعدِ علمِ اليقي
نِ أحسبُ يومَكَ إلا منامَا

٢٢- لقد كنتَ غُرَّةَ وجهِ الزمانِ
فقد عادَ مَن عادَ بشرٌ جهامَا

٢٣- وكنتَ على تاجهِ دُرَّةً
تضيءُ الدُّجى وتزينُ النّظامَا

٢٤- فأضحى بكَ اللهُ مُستأثرًا
وجلّلنا بعدَ نورٍ ظلامَا

٢٥- وضنَّ بكَ الدهرُ عن أهلِهِ
فنلتَ حميدًا ولم تلقَ ذامَا

٢٦- وأيقنتَ أن الدّنا للفنَا
ءِ فاعتضتَ في الخلدِ عيشًا دوامَا

٢٧- فغضّ ببردِ الزلالِ امرؤٌ
يرَى أن وردَ المنايا أمامَا

٢٨- لتبكِ عليكَ فنونُ العلوم
فقد كُنتَ في كُلِّ فنٍّ إمامَا

٢٩- وما كُنتَ إلا قريعَ الزّمانِ
وما النّاسُ بعدَكَ إلا سوَامَا

٣٠- ألا لا أرى مُشكلاتِ العلو
مِ يزددنَ بعدَكَ إلا انفحامَا

في مكتبة التراث الشعري: مراجعات وإضافات

٣١- فَمَنْ ذا يُفَرِّجُ عَنَّا الهموم
إذا ازدحمتْ في الصُّدورِ ازدحامَا

٣٢- ومَن للمَجَالسِ صَدْرٌ سواك
إذا اضطرمتْ أبحرُ العلمِ عَامَا

٣٣- ومَن للمحَاريبِ أهلٌ سواك
وقدمًا تقدمْتَ فيها غُلامَا

٣٤- تجاوزت في العلمِ حَدَّ الشيوخ
وكلُّ سِنِيكَ ثلاثونَ عَامَا

٣٥- ولم أرَ كاليومِ بدرًا سوا
ك عاجَلَ فيه السِّرارُ التَّمَامَا

٣٦- كَفَى حزنًا أنني لا أرى
ضريحَك يزدَادُ إلا لمامَا

٣٧- وإن لو يَفِي بالإخاءِ الوفاء
إذا (لسقيْنَا) ثَراه استلامَا

٣٨- وإني لأنظرُ دُونَ الصَّفيح
بحارَ العُلومِ لَدَيهِ نظَامَا

٣٩- أرى زفراتيَ تَحْدُو إلى
ضريحك من عَبَرَاتي غمامَا

٤٠- فيا ساكنَ القبرِ حيًا ثراه
مريضُ النَّسيمِ بريحِ الخُزامَى

٤١- ولا برحتْ بالغُدُوِّ الشَّمال
ولا بالأصائلِ فيه النُّعامَى

٤٢- وجاد أصيل (الغيوث) فكاكه
تبلُّ الثرَى وتروِّي العِظامَا

٤٣- ولا كَحَلَ التُّرْبَ تلكَ الجُفُون
ولا اضمحَلَّ اللَّحْدُ ذاك القوَامَا

٤٤- وحاشا لسانًا تلا ما تلَوْ
تَ يُصبحُ للدُّودِ يومًا طَعَامَا

٤٥- وحاشا لِكَفٍّ يخطُّ العُلوم
تعرَّى أشاجعُها والسُّلامَى

٤٦- فلستُ أرى جُثَثَ الأولياء
على الدودِ في الأرضِ إلا حَرامَا

٤٧- يُهَوِّنُ وَجْدِي أني غدًا
كمَا قدْ لقيتُ مُلاقٍ حِمَامَا

٤٨- وأن سَوفَ يَجمعُنا موقفٌ
تَرى الخلقَ في حَافتَيه قِيَامَا

٤٩- عليك السَّلامُ فإنِّي امرؤٌ
على القُرْبِ والبُعْدِ أهدي السَّلامَا

التخريج: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٦/١٧٧ - ١٧٩، وذكر «علي جواد الطاهر» في كتابه «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم» ص٢١٧ رقم صفحتها على طبعة حيدر آباد للمنتظم. ورد عجز البيت (١٢) هكذا: «لشيء فأجدر أن لا يُضامَا»، وهو مضطرب، ولعل الصواب ما تم إثباته، وكذلك ورد عجز البيت (٢٧) مضطربًا هكذا: «إذا لسقى ثراه استلاما)، ولعل الصواب ما تم إثباته، وورد صدر البيت (٤٢) مضطربًا هكذا: «أصيل الغيث»، ولعل الصواب ما تم إثباته.

(٢٧) وقال:

١- لي قَهْوةٌ مشمُولَةٌ
تَشْفِي غليلَ مُتَيَّمِ

٢- ياقوتُها وحَبَابُها
دُرَرٌ بَدَتْ لم تُنظَمِ

٣- فَكَأَنَّهَا شمسُ الضُّحَى
مَخْفُوفَةٌ بالأنْجُمِ

التخريج: طرائف الطرف ٦٠، عن النسخة (مج) فقد قال «هلال ناجي» في هامش تحقيقها ص ١٢٣: «مج: وقال، معطوفة على ما قبلها»، وما قبلها هو شعر لمؤلف الكتاب البارع البغدادي، وهي من الكامل المجزوء، وليس من الكامل التام كما ذهب محقق الكتاب.

(٢٨) وقال: [من المديد]

١- جنِّبِ الوادي فإنَّ به
تقنصَ الآسادَ غزلانُ

٢- وانزل الوادي بأيمنه
إنه بالدَّمع ملآنُ

٣- وارم بالطَّرفِ العقيقِ فلي
ثم أوطار وأوطانُ

٤- وانشد القلب المشوق عسى
يرجع المفقود نُشدانُ

٥- وابك عني ما استطعت إذا
ما بَدا للطرفِ نعمانُ

٦- واقرهِ عني السَّلام فكأن
قلبي فيه سُكَّانُ

٧- لا تزدني يا عَذول جوى
أنا بالأشواق سَكرانُ

الرواية: ورد البيت الثاني في تشنيف السمع برواية: «الوادي يأتمنه».

التخريج: الأبيات ١، ٢، ٥ للبارع البغدادي في تشنيف السمع بانسكاب الدمع ١٢٨، وهي في المدهش ١٤٧ (تحقيق: مروان قباني) بلا نسبة ومعها بقية الأبيات.

(٢٩) وقال:

حُرِمْتُ منك الرِّضا إن كان غيَّرني
عَمَّا عَهِدْتَيه شيءٌ أو يُغَيِّرُني

التخريج: معجم الأدباء ١١٤٣، ويوضع بعد البيت رقم (٤٢٦) في القصيدة (٢٥).

(٣) إخراج الشعر المخلوط بشعر البارع البغدادي.

وهناك أمر مهم يوضع في الاعتبار في جمع الدواوين ذات الأصول المفقودة، يتمثل في أخذ الحيطة في عملية جمع شعر الشاعر، وهذه الحيطة حقيقة بأن تجعل المحقق ينعطف على ما جمع ليتدبر مدى خلوص نسبته للشاعر الذي يجمع له حتى لا يخلط شعره بشعر غيره، وحتى لا توضع الأحكام بعد ذلك على شعر ليس للشاعر صراحة. وهذا أمر فات المحقق، وهو ظاهر هنا في هذا الديوان، يتضح من خلال النتف والمقطعات المدرجة فيه دون إشارة إلى تدافعها، لذا باتت هذه المقطعات مفتقرة إلى وضعها في نهاية الديوان في قسم خاص بهذا النوع من الشعر، والنتف والمقطعات المدرجة في الديوان دون وجود موقف من المحقق هي:

(١) النتفة رقم (١١)، ص ٥٢، وهي:

١- يوم من الزَّمهرير مَقرُورُ
عليه ثَوبُ الضَّبابِ مزرورُ

٢- كأنما حَشْوُ جوِّه إبَرٌ
وأرضُهُ فرشُها قواريرُ

٣- وشمسةُ حُرَّةٌ مُخدَّرةٌ

ليسَ لها من ضَبابِه نورُ

الرواية: (١) ورد البت الأول في أمالي الزجاجي برواية: «عليه جيب السحاب».

(٢) وورد البيت الثاني في الزهرة برواية: «وروضة حشوها قواريره، وورد في أمالي الزجاجي برواية: «كأنما الجو حشوه... والأرض من تحته».

(٣) وورد البيت الثالث في سرور النفس برواية: «ليس لها من ضيائها نوره».

التعقيب: أدرجها المحقق في الديوان، ولم يذكر أنها متدافعة، وهذا يفيد بأنها خالصة النسبة للبارع، وليس الأمر كذلك، والا لاختلط شعره بشعر غيره من الشعراء، فالمقطعة لوهب الهمذاني في سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ٢٤٣، وانظر ما به من مصادر، وأنشدها أبو غانم المعنوي في أمالي الزجاجي (ت٣٤٠هـ) ص١٢٤ باختلاف في الترتيب، وهي بلا نسبة في الزهرة ٨٣٢/٢، وخرجت هناك على أمالي الزجاجي، ووجودها في هذين المصدرين يقطع بأنها ليست للبارع، لأنه وُلد بعد وفاة مؤلفيهما بزمن طويل، والمقطعة مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا ضمن ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع البغدادي في كتابه السالف الذكر ص ٤٠١.

(٢) النتفة رقم: (١٩)، ص ٦١، وهي:

١- تُنازِعُني النَّفسُ أعلى مقامٍ

وَلَستُ مِنَ العَجْزِ لا أنشَطُ

٢- وَلَكِنْ بِمقْدارِ علو المَكانِ

يكونُ هبوط الذي يَسْقُطُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في ديوان ابن رشيق برواية: «أعلى الأمور * وليس»

(٢) وورد البيت الثاني فيه برواية: «قُرْبِ المَكانِ * يكون سلامة من».

التعقيب: أدرج المحقق هذه النتفة في ديوان البارع البغدادي دون إشارة منه إلى تدافعها، ويفهم من هذا أنها خالصة النسبة لهذا الشاعر، وهذا غير صحيح، فهي لابن رشيق في ديوانه بمختلف طبعاته، فهي فيه برقم (٧٤) (ط. الميمني)، وبرقم (٩١) (ط. عبد الرحمن ياغي)، وبرقم (٩٣) (ط. صلاح الدين الهواري)، وبرقم (١٠٩) (ط. محيي الدين ديب)، وانظر التعقيب عليها في البحث الموسوم بـ «صنع الدواوين الضائعة الواقع والمأمول: ديوان ابن رشيق القيرواني أنموذجًا»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ص ١٢٣ – ع ٧٥، وهي بلا نسبة في الكشكول ٣٠٤/٢، والنتفة مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا ضمن ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع البغدادي في كتابه السالف الذكر ص ٤٠٢.

(٣) النتفة رقم (٢٤)، ص ٦٧، وهي:

١- لِمْ لا أهيمُ إلى الرياض وحسنها

وأظلُّ منها تحت ظلٍّ ضافي

٢- والزهرُ حَيَّاني بثغرٍ باسمٍ

والماءُ وافاني بقلبٍ صافي

الرواية: (١) ورد البيت الأول في ديوان ابن لؤلؤ برواية: «أميل وطيبها... وأعيش منها».

(٢) وورد البيت الثاني في الديوان نفسه برواية: «يلقاني بقلب يلقاني».

التعقيب: وهذه النتفة أيضًا ينبغي إخراجها مما

أدرجه المحقق ضمن الخالص من شعر الشاعر، فهي لابن لؤلؤ الذهبي في ديوانه ١١٩ ضمن الشعر المتدافع، ونص محققه على نسبتها أيضًا لمجير الدين بن تميم، وخرجها على ديوانه أيضًا، والنتفة مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا ضمن ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع البغدادي في كتابه السالف الذكر ص ٤٠٢.

(٤) النتفة رقم (٢٧)، ص ٦٨، وهي:

١- إني رأيتُ الدهرَ في صَرْفِهِ

يمنحُ حظَّ العاقلِ الجاهِلا

٢- وما أراني نائلاً ثروةً

أظنُّه يحسبُني عاقلا

الرواية: (١) ورد البيت الأول في الوافي بالوفيات برواية: «إني رأيت».

التعقيب: أدرجها المحقق في الديوان دون ذكر لتدافعها، وهي لأبي تمام البارد في الوافي بالوفيات ١٩/١٧٠، وهي مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا ضمن ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع في كتابه المذكور سلفًا ص ٤٠٤.

(٥) النتفة رقم (٢٨)، ص ٦٩، وهي:

١- إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهت

ولم ينهها تاقتْ إلى كُلِّ باطلِ

٢- وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي

دعتْه إليه من حلاوةِ عاجلِ

التعقيب: أدرجها المحقق في الديوان اعتمادًا على معجم الأدباء، بيد أنها في ص ٢٦٤٠ من الكتاب ذاته لمحمد بن محمد بن القاسم الأخسيكاثي، أبي الوفاء المعروف بأبي المناقب، وهي مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا ضمن ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع في كتابه السالف الذكر ص ٤٠٤.

(٦) النتفة رقم (٣٠)، ص ٦٩، وهي:

١- وكنتَ وحيدَ الدَّهرِ إذ كنت واحدًا

فوافى ابنُك المحمودُ يحكيكَ في الفضلِ

٢- فلمَّا رآهُ الدَّهر غارَ فغالهُ

صُرُوفُ الليالي كي تكونَ بلا مثلِ

التعقيب: أدرج المحقق هذه النتفة في ديوان البارع البغدادي، وخرجها على طرائف الطرف ص١٠٨، وبالرجوع إليه وُجِدَ أنها لم تنسب إليه لا في متن الكتاب، ولا في هامش النتفة ص ١٥٧، وهي فوق ذلك ساقطة - كما قال المحقق - من النسخة (مج) التي تنسب الشعر عادة إلى أصحابه، ولم تنسب للشاعر في أي نسخة من النسخ المخطوطة، فليس هناك مبرر إذن لعزوها للبارع البغدادي، وإلا لنسبت إليه كل الأشعار العارية النسبة في كتاب طرائف الطرف.

(٧) النتفة رقم (٣٢) ص ٧٠، وهي:

١- كُلُّ غصنٍ مالَ جانِبُهُ

فكأنَّ الغصنَ سكرانُ

٢- لي غديرٌ من مُقبَّلِه

ومن الصُّدغينِ بُستانُ

الرواية: (١) ورد البت الأول في ديوان الشريف الرضي، والتذكرة الفخرية برواية: «كل فرع.. فكأن الأصل...».

(٢) وورد البيت الثاني في تاريخ الإسلام برواية: «في غديره».

التعقيب: ورد البيت الأول ضمن أبيات منسوبة للبياضي في التذكرة الفخرية ٢٧٥، وهما للشريف الرضي في ديوانه ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢ ضمن قصيدة في ٢٤ بيتًا، وهما للبارع في تاريخ الإسلام ١١/ ٤٠٠، والنتفة مدرجة دون إفصاح عن التدافع أيضًا في ما جمعه «يونس السامرائي» من شعر البارع البغدادي، في كتابه السالف الذكر ص ٤٠٥.

(٤) ملحوظات عامة على الديوان:

أما المحور الرابع في هذه السطور فهو يدور حول ملحوظات عامة، تتصل بالروايات والتخريجات، وغير ذلك، فمثلاً

- البيت التالي:

لِمْ لا أهيمُ إلى الرِّياضِ
وأظلُّ منها تحتَ ظلٍّ ضافي

أثبته المحقق هكذا، وهو مكسور بما لحقه من تحريف، حيث سقطت من نهاية صدره كلمة «وحسنها»، والصواب أن تثبت لتمام البيت واستقامته على ما ورد في معجم الأدباء ص ١١٤٢، وآل وهب من الأسر الأدبية في العصر العباسي ص ٤٠٢.

- والبيت التالي:

أفَهَذا إلى التبرطمِ منسو
بٌ إلى كَمْ تجني وكمْ تستعدي

هكذا أثبته المحقق محرفًا في مقدمة تحقيقه لكتاب طرائف الطرف ص ١٢، وأثبته في الديوان ص ٤٨ هكذا: «التغرم»، والصواب أن يرد كما ورد في معجم الأدباء ص ١٤٤٥ هكذا:

أفهذا إلى التبظرمِ منسوب
بٌ إلى كم تجني وكم تستعدي

والدليل على ذلك ما أثبته المحقق نفسه في مجلة العرب ص ٤٠٠- ج٥، ٦ - ١٤٢٩هـ في استدراكه قصيدة ابن الهبارية التي أجاب عنها البارع البغدادي، وفي البيت الثامن من هذه القصيدة هناك تحريف في كلمة (التبظرم)، حيث حرفت إلى (التبضرم)

تخريجات جديدة:

- القصيدة رقم (٨) هي للبارع أيضًا في معجم الأدباء ١١٤٤ - ١٤٤٥ (ط. إحسان عباس) التي خرج المحقق عليها في مقدمة طرائف الطرف، وخرج القصيدة ناقصة أيضًا «يونس السامرائي» على هذا المصدر في كتابه آل وهب من الأسر الأدبية في العصر العباسي ص ٣٩٩ - ٤٠٠، ولكن على طبعة أخرى من معجم الأدباء، والقصيدة له كذلك في جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ٥٦٢ - ٥٦٣، والبيت رقم (٤٣) في الديوان ناقص منه عجزه في محاولتي جمع الديوان على حين هو بتمامه في مقدمة طرائف الطرف ١٢، وجمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ٥٦٣.

- القصيدة رقم (٢٤): وردت الأبيات ذوات الأرقام: (٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٧،٢٩١،٢٩٣) له في تاريخ الإسلام ١١/٣٩٩ - ٤٠٠، وينظر ما به من مصادر، ووردت الأبيات (٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦ - ٢٧٩، ٢٨١ - ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٤) بلا نسبة في المدهش ص ٤٤٣ - ٤٤٤ (تحقيق مروان قباني)، ٢٦٨ (ط. حامد البسيوني) باختلاف في رواية بعض الألفاظ في بعض هذه المصادر.

وهناك بعض الأوهام الأخرى، والتخريجات الجديدة والروايات التي لم يتضمنها المجموع الشعري، بيد أن الباحث يكتفي بما تم ذكره هنا،

في مكتبة التراث الشعري: مراجعات وإضافات

وهو كاف لتقرير حقيقة مفادها أن نشرة هذا الديوان جاءت ناقصة مشوهة، لم تُظهر الشاعر بالصورة التي رسمتها له مصادر التراث العربي، تدل على ذلك الحصيلة المستدركة هنا التي لم أقف عليها - رغم البحث - حتى الآن ٢٨/١٠/٢٠١٠م منشورة في بحوث بعض الفضلاء ؛ لذا فالديوان لا يزال في حاجة ماسة إلى نشرة علمية، يمكن الاطمئنان إليها في الدراسات الأدبية والأكاديمية، وما تم تسطيره هنا أمر لا يقلل من الجهد المشكور الذي بذله المحقق في جمع شعر الشاعر، فيكفيه أنه بذل جهدًا ووقتًا، وله الحق - بعد ذلك - في أن يأخذ بما طُرح هنا في طبعة تالية للديوان أو لا يأخذ.

(٨) ديوان ابن المستوفي الإربلي:

نهض «هلال ناجي» بجمع شعر ابن المستوفي الإربلي في محاولتين متباعدتين، جاءت الأولى في «مجلة المورد» العراقية مج٢٦- ع٣- ١٩٩٨م، وكانت مع نشره لرسائله تحت عنوان: «رسائل المبارك بن أحمد...»، ثم نشره مع نشر هذه الرسائل مرة ثانية بعد عام واحد في كتاب صدر عن عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٩م، كما أفصح هو في مستهل محاولته الثانية التي ضمنها «مجلة العرب» ج ٧، ٨، س٤٤، ١٤٣٠هـ، ضمن بحثه الموسوم بـ«استدراكات على جملة من الدواوين (٢)»، وهذه المحاولة عبارة عن استدراك على محاولته الأولى. وكان قد وقف في محاولته الأولى على مخطوطة «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» لابن الشعار الموصلي (ت٦٥٤هـ)، ووقف على ما بها من شعر لـ«ابن المستوفي»، ولكنه أعرض عن تحقيقه ونشره ضمن ما نشره في محاولته الأولى ؛ لأن مخطوطة هذا الكتاب سيئة الخط على ما يتضح من قوله في «مجلة المورد» ص ١٠٩: «إن ابن الشعار أورد في كتابه» قلائد الجمان «باقة منتقاة من شعره الذي أنشده ابن المستوفي لنفسه، إلا أن المصورة التي بين أيدينا بالغة السوء رديئة الخط صعبة القراءة تحتاج جهدًا ضخمًا لفك غوامضها، وقد اقتطعنا منها المقطعات التالية مما استطعنا قراءته».

وقد وقفت على مخطوطة كتاب «ابن الشعار» حين جمعي لشعر «ابن الظهير الإربلي» (ت٦٧٧هـ)، فجمعت ما ضمَّه هذا الكتاب وغيره لابن المستوفي، ورأيته كثيرًا، ومن هنا أوليته عنايتي، وفي عام ٢٠٠٥م التقيت الأستاذ الفاضل «كامل الجبوري» - سلمه الله - رئيس تحرير «مجلة الذخائر البيروتية»، وأبلغته اهتمامي بشعر «ابن المستوفي» فقال: إنه صنع ديوانه وسينشره في مجلته بعدما حقق كتاب «ابن الشعار»، ومن ثم نفضت يدي من هذا الموضوع إلى أن وقفت العام الماضي في «مجلة العرب» ص٥١٧ ج٧، ٨، ١٤٣٠هـ على استدراك للأستاذ «هلال ناجي» على نفسه، التقطه برمته من كتاب «ابن الشعار» السابق بتحقيق الأستاذ «كامل الجبوري»، يقول «هلال ناجي»: «ثم صدرت عام ٢٠٠٥م الطبعة الأولى من كتاب ابن الشعّار، الموسوم «قلائد الجُمان في فرائد شعراء هذا الزمان» فوجدت فيه منبعًا ثرًّا لشِعر ابن المستوفي؛ ومن هذا المصدر الأصيل صنعت مستدركي هذا، وها هو ذا وقد ضمَّ (٢٤٦) بيتًا» أ. هـ. ثم وقفت على ديوان ابن المستوفي بتحقيق الأستاذ «كامل الجبوري» منشورًا في مجلة الذخائر ع٢١، ٢٢ سنة ٢٠٠٥م، ص ١٢٥ - ١٧٩، والحق أن صنعته جيدة، وفيها زيادات كثيرة عن الأخرى. وقد حدا اهتمامي بشعر «ابن المستوفي» منذ زمن إلى كتابة هذه السطور المتواضعة لمحاولة إصلاح ما

وقع في صنعة الأستاذ «هلال ناجي» لديوان «ابن المستوفي»، بسبب العجلة الذي قادته إلى:

١- أن يستدرك على نفسه شعرًا سبق له أن نشره بنفسه في مجموع شعر الشاعر، وسأرصد المقطعات المنشورة في الديوان ثم عاد واستدركها على نفسه في مجلة العرب.

٢- أن تتسرب بعض التحريفات في استدراكه لا نجدها في المصدر المنقول منه، وهو «قلائد الجمان»، وعلى أساسه سيكون تصحيحي لهذه التحريفات، مع الإحالة على مجلة الذخائر أيضًا.

٣- أن يفوته شعر في المصدر الوحيد المطبوع الذي استقى منه مادة استدراكه، وهو كتاب «قلائد الجمان»، وبعض هذا الشعر وارد في الصفحات التي استدرك هو منها كما سيتضح.

٤- أن يفوته شعر غير قليل وارد في مصادر أخرى.

١- وبالنسبة للنقطة الأولى أقول: إن أمر الأستاذ في استدراكه على شعر «ابن المستوفي» لا يختلف في قليل أو في كثير عن أمره في استدراكه على نفسه بعض الأشعار، قام بنشرها بنفسه من قبل في بعض أعماله التي يستدرك عليها، منها على سبيل المثال استدراكه في «مجلة العرب» ٣٧٤، ج٥، ٦، ١٤٢٩هـ على «شعر الأقرع بن معاذ القشيري» الذي نشره من قبل في «مجلة المورد مج ٧، ع٣، ص١٨٧، ١٩٧٨م تحت عنوان: «الأقرع ابن معاذ القشيري: حياته وما تبقى من شعره»، ثم استدرك عليه في «مجلة المورد مج ١٥، ع٢، ١٩٨٦م ص ٢٢٠، ففي استدراكه المنشور مؤخرًا في «مجلة العرب» مقطعتان هما: (٢)، (٣) يجدهما القارئ في استدراكه المنشور في مجلة المورد عام ١٩٨٦م دون الإشارة إلى سبق استدراكه لهما، وعلى هذا المجموع أشياء أخرى لا مجال للحديث عنها الآن.

وشبيه بهذا استدراكه على «ديوان علي بن الجهم» المنشور مؤخرًا في «مجلة العرب» ٢٨٦-٢٨٧، ج٥، ٦، ١٤٢٩هـ حيث استدرك ثلاث مقطعات، لا يصح استدراكها، إذ لم يسلم منها بيت واحد لعلي بن الجهم. (أ) فالنص الأول منها مطلعه:

إذا كنت في خير فلا تغترر به

ولكن قل اللهم سلم وسلم

هذا النص مستدرك من قبل في هذه المجلة ص ٨٤٨ - ٨٤٩، ج١١، ١٢، ١٤٢٨هـ على أنه متدافع، وليس خالص النسبة.

(ب) والنص الثاني، وهو في بيت من سوائر أبيات «علي ابن الجهم»، وهو:

وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوَّلُونَا

فَلَا شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ

هذا البيت موجود في «ديوان علي ابن الجهم» برقم (١٤) في القصيدة (٤) ص ٥٩، ط٢، فلا يصح استدراكه.

(ج) والنص الثالث، ومطلعه:

لقلع ضرس ونزع نفس

وضنك حبس ورد أمس

متدافع، ولم يذكر المحقق هذا، فهو للشافعي في ديوانه ٥٢ (ط. الزغبي) ضمن مقطعة في ٦ أبيات، وتنظر نشرة مجاهد مصطفى بهجت ص ١٢١، فقد أشار إلى نسبته إليه في الجوهر النفيس. والنص لعبد المحسن الصوري في ديوانه ٢/ ١٤٠ باختلاف يسير في رواية بعض الألفاظ في هذين الديوانين،

والنص بلا نسبة في «المحاسن والمساوئ» ٢٦٨/١ – ٢٦٩، ومن هنا فلا يصح استدراكه على أنه خالص النسبة لابن الجهم مرة واحدة.

وأعود إلى ما جمعه «هلال ناجي» من شعر «ابن المستوفي» لأذكر أنه استدرك على نفسه هنا شعرًا نسي أنه نشره منذ اثنتي عشرة سنة في مجموع شعر «ابن المستوفي» الذي يستدرك عليه، وهذا بيان بأرقام المقطعات التي وردت في استدراكه هنا، وسبق أن نشرها في شعر «ابن المستوفي» في «مجلة المورد»:

رقم المقطعة في الاستدراك	١٧	٢٦	٣٣	٥٩	٣٩	٤٨	٢٧
رقم المقطعة في المجموع الشعري	٤	١٤	١٨	٢	٨	١٩منها٥أبيات مكررة في المقال	١٥منهابيتان مكرران في المقال

٢- وأما بالنسبة للنقطة الثانية التي تخص أمور التحريف والتصحيف وغيرهما مما وقع في استدراكه فسأتناول هذه الأمور بالتصحيح اعتمادًا على المصادر مع العزو إليها، فمن ذلك:

١- البيت التالي الوارد في ص ٥١٨:

وإني ليشجوني الحَمَامُ إذا شَدا
فأطربُ والصَّبُّ المنشوقُ طَروبُ

كذا وردت كلمة «المنشوق» محرفة، وبها انكسر وزن البيت، والصواب على ما ورد في مصدره «قلائد الجمان» ٤٤/٥: «المشوق».

٢- يت التالي الوارد في ص ٥٢٢، وهو:

وَكَلَّتُهُ بغرامٍ لو رميتَ به
رَضْوى وهي صَلْدُهُ أو لان مَدُهُ

كذا وردت كلمة «مده» محرفة، وبهذا التحريف انكسر وزن البيت، والصواب على ما ورد في مصدره ٥٣/٥: «جلمده».

٣- البيت التالي الوارد في ص ٥٢٥، وهو:

فديتُكَ لا تُبلي غرامي ينقضي
ولا يتناهي عنكِ قلبي فَيُقْصِرُ

كذا وردت كلمة «ينقضي»، وبها اضطرب البيت، والصواب على ما ورد في مصدرها: «فينقضي».

٤- البيتان التاليان الواردان في ص ٥٢٧، وهما:

وبمسقطِ العَلَمينِ عُضُ أراكةٍ
ملكَ الجمالَ لخمسه ولِعَشْرِه

واهي الموئةِ والوفاءِ كأنَّما
عُقِدَتْ وَثيقةُ عَهْدِه من خَضْرِه

كذا وردت الكلمتان في المستدرك (عُض) في البيت الأول، و (خضرُه) – بالضاد المعجمة وبهذا الضبط الذي يجلب عيبًا من عيوب القافية، وهو الإقواء – في البيت الثاني بالتحريف والتصحيف، وبالأولى اختل وزن البيت، وبالثانية غاب معنى البيت، والصواب على ما ورد في المصدر المخرج عليه، وهو «قلائد الجمان» ٢٥/٥: «غصن» في البيت الأول، و «خصره» في البيت الثاني.

٥- البيت الوارد في ص ٥٢٩، وهو:

مثلَ زهرِ الرِّياضِ في الحُسْنِ بل
أزرتْ على حُسْنِها بزَهْرِ الرِّياضِ

كذا رسم البيت غير مدور، والصواب أنه مدور

على ما ورد في المصدر المنقول عنه ٦٠/٥، فتكون نهاية الشطر الأول عند حرف الزاي.

٦- وورد في القصيدة نفسها ص ٥٢٩ البيت التالي هكذا:

فهي من نقة المعاني (...)

سِحر أجفانِك الصّحاحِ المراضِ

كذا ورد صدر البيت ناقصًا على الرغم من وروده تامًا في المصدر الذي نقل عنه ٦٠/٥، ويتم البيت بجلب الكلمة منه، ووضعها مكان النقاط، والكلمة هي: «تخال».

٧- وورد البيت التالي في ص ٥٣٢ هكذا:

سَرى يملأُ الآفـاقَ طيبًا كَـأنَّمَـا

يحـمـلُ زاكـي نَـشْـرِك المـتـضـرِّعِ

كذا وردت كلمة (المتضرع)، وهي محرفة، ووردت الكلمة في المصدر المنقول عنه دون تعريف هكذا: (مُتَضَوِّع).

٨- وأورد البيتين التاليين بالتحريف والتصحيف في ص ٥٣٢ هكذا:

أو هـجَـرت بـي خـطـة صعبة

لـم يُضـحـني عـن ظـلّـه الـوافـي

ثـابـتُ مُـطـاعَ الأمـــر مَـقْـبُـولَـهُ

مـا اخـتـلـفَ الـمُـثْـبِـتُ والـنـافي

ومن يرجع إلى المصدر الذي نقل عنه المحقق ص٦١/٥، يقف على ما في البيتين من تحريف وتصحيف، فقد وردت فيه كلمة القافية فيهما هكذا: (الضافي)، ووردت الكلمة الأولى في البيت الثاني فيه هكذا: (فايق).

٩- ورد البيت التالي محرفًا على الصورة التالية ص ٥٢٧:

مخايلُ منها يوجَدُ البأسُ والندى

إذا مـا بـدا غـضـبـانَ أو مـتـبسِّمَا

كذا وردت كلمة (بدا) محرفة والصواب على ما وردت في مصدرها ٤٢/٥: (غدا).

١٠- وأورد الأبيات التالية ص٥٢٨ محرفة ومصحفة هكذا:

نـلـهُـو بـكُـلِّ أغـنَّ مـقـتـبـلَ الصِّبا

يَـفْـتَـرُّ مـن عـذب الـلَّـمَـى بَـسَّـامِ

نـتـنـاهَـبُ الـلـذات فـي أفـنـائـهِ

مُـتَـنَـزِّهـيـن بـه عـن الآثـــامِ

إن بـاتَ مَـهـجورَ الـحِـمَـى فيمَا غَـدَا

مـأوَى الـعـنـاةِ ومَـوْئِـلَ الأيـتـامِ

فكل بيت من هذه الأبيات فيه تحريف، فصواب البيت الأول على ما ورد في مصدره «قلائد الجمان» ٥٢/٥-٥٣: (يفتر عن)، وصواب البيت الثاني على ما ورد في المصدر نفسه: (في أفنائه)، وصواب البيت الثالث على ما ورد في المصدر ذاته: (العفاة)، وإلا فما وجه المناسبة هنا بين العناة والأيتام؟.

١١- وورد البيت التالي في المستدرك في «مجلة العرب» ص ٥٢٠، ج ٧، ٨، ١٤٣٠هـ محرفًا هكذا:

هـي الـحـوادثُ تـجـري فـي أعِـنَّـتِـهـا

إلـى مـداهـا وفـي أعـتـابـها الـفَـرَجُ

والصواب: (أعقابها) على ما ورد في مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي ١٠.

٢- خرجت التتمة رقم (٢) على «قلائد الجمان» ٥٨/٥ وليس كذلك، والصواب ٥٥/٥، وينظر في هذه التصحيحات في ديوان ابن المستوفي في مجلة الذخائر ع٢١، ٢٢ الصفحات ١٤٥،١٥١، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨، ١٦٧، ١٥٦، ١٤٤ على الترتيب.

٣ – وأما بالنسبة للنقطة الثالثة فأقول: سقطت منه بعض الأبيات من ترجمة «ابن المستوفي» المذكورة في «قلائد الجمان» وهو ينقل منه مادة استدراكه، وهذا بيان بهذه الأبيات:

البيت التالي:

وألصق أحشائي بحرّ ترابه

وإن تلفتْ روحي غراماً ببرده

يجده القارئ في «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» ٤٩/٥، ولا يجده في استدراكه، ويوضع بعد البيت رقم (٧٤) في المقطعة رقم (١٥) في استدراكه.

والبيتان التاليان:

١- طوبى لمادحه وإنْ لم يوفه

ما يستحقُّ فقدْ زهتْ أشعارُهُ...

٢- هيهاتَ ذلكَ فاتَ بشرُكَ للندَى

أنواره فقد استبانَ خسارُهُ

يجدهما القارئ في «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» ٥٩/٥، ولا يقف عليهما في استدراكه، ويوضع الأول منهما بعد البيت رقم (١١٦)، ويوضع الثاني بعد البيت رقم (١٢٠) في القصيدة رقم (٢٢)، والأبيات الثلاثة ليست من استدراكي، بل هي في ديوان ابن المستوفي المنشور في مجلة الذخائر ص ١٥٦، ١٥٢؛ لذا أثبتها هنا.

وهناك بعض الأبيات الأخرى فاته استدراكها، وهي ليست واردة في ترجمة «ابن المستوفي» في الجزء الخامس من «قلائد الجمان» الذي استدرك منه المحقق كل مادة استدراكه، وإنما واردة في الجزء الأول، وسأثبتها في السطور التالية.

٤- وأما بالنسبة للنقطة الرابعة فأقول: إن بقية الديوان هنا ملتقطة من عدة مصادر، منها: كتاب «قلائد الجمان» المصدر الوحيد للمحقق في استدراكه، وهذه البقية تضم حصيلة غير قليلة بالقياس إلى ما جمعه المحقق، فقد نشر أولا في «مجلة المورد» ٧٢ بيتًا، ثم استدرك على نفسه في «مجلة العرب» حسب قوله ٣٤٦ بيتًا، فيصير مجموع ما استدركه ٤١٨ بيتًا، اتضح – كما سبق في الجدول السابق – أن هناك بعض المقطعات مكررة في العملين، وحصيلة هذه المقطعات ٣٢ بيتًا، وبعد إخراج هذه الأبيات من الحصيلة الكلية يتبقى ٢٨٦ بيتًا، والمضاف هنا ليس قليلاً بالقياس إلى هذه الحصيلة. ومعظم هذا المستدرك ملتقط من مصادر مخطوطة، لا أمتلك أكثرها، وربما يكون شيء منه منشور في بحوث بعض الفضلاء هنا أو هناك في أرجاء المعمورة مما لم أقف عليه رغم كثرة التنقيب، ولو كنت وقفت حتى هذه اللحظة لأسقطت المنشور كما أسقطت من قبل من السطور التالية:

(١) قال «ابن المستوفي» من قصيدة: [من الطويل]

١- ولما التقى الجمْعانِ وانقصَدَ القنَا

وفلَّ الظُّبَا مِن شدَّةِ الطَّعنِ والضَّربِ

٢- وأمسَتْ سَماءُ النَّقعِ مُمْطِرَةً دَمَا

جنيتُ ثمارَ النصْرِ من ورقِ العضْبِ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٩، وربما يحسن للقارئ أن يقرأ العجز الأخير: (رونق العضب) لشيوع هذا التعبير، والتعبير المثبت كما نقلته من مصدره فيه دلالة على رهافة السيف، ولمعانه، وشدة حدته، على ما ورد في قولهم: «وما أحسن وَرَاقَهُ وأَوْرَاقَهُ»: أي لِبْسته وشارتهُ على التشبيه بالوَرَقِ». لسان العرب (ورق ٤٨١٥)، و«العَضْبُ: السَّيفُ القاطعُ». لسان العرب (عضب ٢٦٨٢). وفي صدر البيت الأول اقتباس من قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. سورة آل عمران، الآية رقم (١٦٦).

(٢) وقال: [من الطويل]

١- وكم عَرضتْ لي من سِواكَ مَواهِبُ
فلم يُعْطِها سَمْعِي طَريقًا إلى قَلْبي

٢- ولم أرجُ إلاّ من أنامِلِكَ الغِنَى
وهل يُرتجَى الغيثُ إلا من السُّحْبِ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٩، ولعل هذه النتفة والنتفة السابقة من قصيدة واحدة لاتحادهما في الوزن والقافية وحركة حرف الروي

(٣) وقال: [من الكامل]

١- عَهدي بجودِكَ يرتَوي من مَائهِ
أمَلِي ويرتَعُ في عَميمِ نباتِهِ

٢- فعلامَ تتركُهُ وأنتَ غرَسْتَه
يبدُو الذُّبُولُ عليه في عَذَباتِهِ

٣- عَوَّدْتَهُ حُسْنًا ومثلُكَ أهلُهُ
فارجعْ به كَرَمًا إلى عَادَاتِهِ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٣.

(٤) وقال: [من الكامل]

١- قالوا انمحَى عَنه جميعُ جَمَالِه
لما التحَى وَأَرَاحَ قَلْبَكَ بثُّهُ

٢- فهل التحَى من عِطْفِ قَدِّكَ لِينُه
وهلِ انمحَى من سِحْرِ طَرْفِكَ نفثُهُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في «الدر المصون المسمى بسحر العيون» برواية: «وراح قلبك»

(٢) وورد البيت الثاني في «الدر المصون المسمى بسحر العيون» برواية: «من قد عطفك... من طرف سحرك».

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي الورقة ٢٧، والدر المصون المسمى بسحر العيون» ٢/ ١٠٤.

(٥) وقال: [من البسيط]

١- بالله يا سحرَ عَينيه اللَّتينِ هُمَا
على ضَياعِ دَمي من أكبرِ الحجَجِ

٢- استبقِ من رَمَقِي مَا قَدْ سمحتَ به
فإن فعلتَ وإلاّ أنتَ في حَرَجِ

التخريج: «الدر المصون المسمى بسحر العيون» ١٠٦/٢.

(٦) وقال: [من الكامل]

١- يا ربَّ مَعشُوقِ الدَّلالِ أطعتُهُ
وعَصيتُ في كَلَفِي به نُصَّاحِي

٢- غرَسَ الجمالُ على مَحاسنِ وجْهِه
رَوضًا سَقَاه من دَمِ الأرواحِ

٣- وأردتُ أعلمُ أيَّ شيءٍ نبتُه
فأذابَهُ آسٌ على تُفَّاحِ

٤- سمحَ الزَّمانُ به فباتَ مُعانِقي
من بعْدِ طُولِ تَعَذُّرٍ وَجِمَاحِ
٥- عانقتُه أجني مَراشِفَ رِيقِهِ
فَكَأَنَّما أجني سُلافَةَ راحِ
٦- وثنيتُه فلثمْتُ نبتَ عِذَارِهِ
بَرَدَتْ غُلَّةُ قلبيَ الملتَاحِ
٧- ونعِمْتُ من قمَرٍ إذا استجليتَهُ
أغنَتْكَ طلعتُه عن المِصْبَاحِ
٨- في ليلةٍ جَمَعَ الهوَى أطرافَهَا
حتى التَقَى الإمْسَاءُ والإصباحِ
٩- تحكي سَماءُ نجومِهَا، ونجومها

....

الرواية: (١) ورد البيت الأول في «رياض الألباب برواية:» أطلعته.

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» ٩٤، والأبيات ١- ٣ له في مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأ للنواجي ٥١، ومخطوط «مراتع الغزلان» ١٦١ الإسكندرية، ولم تتوجه لي قراءة عجز البيت الأخير.

(٧) وقال: [من البسيط]

١- لم يَبْقِ حُبُّكَ من جِسْمِي سِوَى شَبَحٍ
مُرَدَّدٍ بين أثوابي وأَبْرادي
٢- أتلفتَ رُوحِي فاستدركْ حُشَاشَتَهَا
قَبْلَ المَمَاتِ بوصْلٍ أو بميعَادي
٣- واكفُفْ عَسَاكرَ عينيكَ التي انبعثَتْ
مُغِيرةً بين أحْشَاءٍ وأكبادِ
٤- وَقُلْ لِقَدِّكَ فليرفقْ تَأَوُّدَه
بكلِّ غُصْنٍ رَخِيمِ العِطْفِ مَيَّادِ
٥- وابلغْ بجهْدِكَ ما أرضَاكَ من تَلَفي
وَحَسْبُكَ اللهُ أن أشْمَتَّ حُسَّادي

الرواية: (١) في البيت الأول حُرِّف لفظ «شبح» في المخطوط إلى «شح».

(٢) وفي البيت الثاني حرِّفَ لفظ «حشاشتها» إلى «حشاشها».

(٣) وورد البيت الثالث هكذا: «أحشاء».

(٤) وفي البيت الرابع حرِّف «لفظ» تأوده إلى «تاوده».

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأ للنواجي ٢٤.

(٨) وقال: [من الكامل]

١- يا مَنْ أجانبُه على كَلَفِي به
لم أسْلُ عنكَ وإنما أتجلَّدُ
٢- لكَ بين (أثناء) الضُّلوعِ حَرارةٌ
بك لا تُغالبُها الدُّموعُ فتبرُدُ
٣- (لأوحشُنك) ما فعلْتَ فإنَّني
راضٍ بما تأتي وما تتعمَّدُ
٤- قريبٌ نَواعي الصَّبرِ منكَ فهل منعت
قدمٌ إليه أو دَنَتْ منه يَدُ
٥- وحياةِ ناظِرِكَ الذي في طرفِهِ
هاروتُ ينفثُ في العُقودِ ويعقِدُ
٦- ما صَحَّ عندي عنك أنَّك خُنْتَني
عَهدَ الهوى فأحُولُ عمَّا تعهدُ

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطره الورقة ٨٠، وكذا ورد البيت الرابع.

(٩) وقال: [من المنسرح]

١- بَكَى فأبكى عليه عُوَّدُهُ
ولهانَ أفنَى الهوَى تَجَلُّدَهُ

٢- إذا استقرَّتْ به مَضاجِعُه
أقامَهُ شَوْقُه وأقْعَدَهُ

٣- يا طالمَا كلَّما خَضَعْتُ لَهُ
نَفَّرَهُ تِيهُهُ وشَرَّدَهُ

٤- لم يبقِ منِّي الصَّبَا سِوَى نَفَسٍ
يَمْنَعُني الضَّيفُ أنْ أرَدِّدَهُ

٥- يُفديك صَبٌّ يبيتُ (ليلتَه)
يَدْعُو لَكَ اللهُ باسِطًا يَدَهُ

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطره الورقة ٣٤، وورد صدر الأخير فيه هكذا: «ليله».

(١٠) وقال: [من المجتث]

١- إذا بَدا يَتَثَنَّى
نَشْوانَ مِن غَيرِ خَمْرِ

٢- عَجِبْتُ مِنْ صُبْحِ وَجهٍ
يَلُوحُ مِن لَيلِ شَعْرِ

٣- فالشَّمْسُ تلْعَبُ ما بيـ
ـنَنَا بِدارَةِ بَدْرِ

التخريج: «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» ٢١٨/١، وهو المصدر الوحيد للمحقق في استدراكه.

(١١) وقال: [من المجتث]

١- عِذارُ خَدَّيكَ فيهِ
يقومُ للنَّاسِ عُذْرِي

٢- وفيكَ طابَ جُنُونِي
ولَذَّتي هَتْكُ سِرِّي

التخريج: «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» ٢١٨/١، ولعلهما تابعان لما قبلهما.

(١٢) وقال: [من البسيط]

١- ما أنصفَ الليلُ أهلَ العشقِ وكُلَّهم
في البعدِ والقربِ بالتنغيصِ والسَّهرِ

٢- يزدادُ إن قاطعوا طولاً ويقصُرُ إن
تعاطفُوا فهو لا يأتي على قدرِ

٣- فليتَهم عُوِّضُوا ليلاً يعاملُهمْ
في الوَصْلِ بالطُّولِ أو في الهَجْرِ بالقِصَرِ

التخريج: «مخطوط المرج النضر والأرج العطره ٦٤، والبيتان ١، ٢ ملفقان فيه أيضًا ٦٣ - ٦٤، وورد البيتان ١، ٢ في «رياض الألباب» لمجهول ٢٤ هكذا:

١- ما أنصفَ أهلَ العِشقِ عذَّبَهم
في الوَصْلِ بالطُّولِ أو في الوَصْلِ بالقِصَرِ

٢- فليتَهم رُزِقُوا ليلاً يُعامِلُهم
بالعَدْلِ فيهم فليلقاهُم على قَدَرِ

(١٣) وقال: [من الكامل]

١- صبرًا على نَهيِ العَذُولِ وأمْرِه
ورضَى بهِجْرانِ الحبيبِ وَغَدْرِهِ

٢- ارفقْ بصَبٍّ أنتَ مِلءُ فؤادِهِ
فَلِقُ خُلِقتَ لِنَفعِهِ ولِضَرِّهِ

٣- لو كانَ يُسْليه هَوَاكَ وَنَارهُ

شيءٌ لأسلاهُ الزَّمان بِمَرِّه

٤- هذا مُحِبُّكَ قدْ أضَرَّ بِهِ الهَوَى

إن لم تُصَدِّقْهُ فَسَلْ عَنْ أمْرِهِ

٥- إن كانَ في قلبي لِغَيرِكَ مَوْضِعٌ

وظننتَ ذاكَ فَشُقَّهُ واستَبِرهِ

٦- حَاشَاكَ أن تَبْلَى بمثلِ بليَّتي

وسَلِمْتَ مِن حُلوِ الغَرَامِ وَمُرِّهِ

الرواية: (٣) ورد البيت الأول في «المرج النضر والأرج العطر» برواية: «يثني لا سلاه».

(٤) وورد البيت الرابع في «رياض الألباب ومحاسن الآداب» برواية: «به النوى».

(٥) ورد البيت الخامس في «رياض الألباب ومحاسن الآداب هكذا: «لغيرك موضعًا»، وورد في «المرج النضر والأرج العطر» برواية: «فشقه واسبره».

(٦) وورد البيت السادس في «رياض الألباب» هكذا: «طوى الغرام».

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» الورقة ٧٤ دار الكتب، ومخطوط «رياض الألباب» لمجهول ٤٨ - ٤٩.

(١٤) وقال: [من الكامل]

١- يا رُبَّ ليلٍ قدْ هَتَكْتُ ظَلامَهُ

بأغنَّ يبدُو البَدْرُ مِنْ أزْرَارِهِ

٢- قَصُرَتْ مَسافَتُهُ عَليَّ كأنَّما

خِيطَتْ أصَائِلُهُ إلى أسْحَارِهِ

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» ٦٦.

(١٥) وقال: [من الكامل]

١- يبلَى الزَّمَانُ وتَنْقَضِي ساعاتُه

وهواكَ لا يَبْلَى ولا يَتَغَيَّرُ

٢- (عابَ) الوشاةُ عليكَ طولَ صَبَابَتي

بكَ والذي جَهِلَ الصَّبَابَةَ يَعْذِرُ

الرواية: (٢) ورد البيت الثاني في «رياض الألباب ومحاسن الآداب» برواية: «غاب».

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي الورقة ٥٧، ولعلهما والمقطعة السابقة من قصيدة واحدة.

(١٦) وقال: [من السريع]

١- يا ظالمًا جَارَ وَمَا أنصَفْ

كم تَعِدُ الوَصْلَ وكم تُخلِفْ

٢- يا غصنَ بانٍ طرفُه قاتلٌ

وبَدْرَ تِمٍّ قَدُّهُ أهْيَفْ

٣- تبارك الله الذي صَاغَه

يقرُّ بالحُسْنِ له يوسُفْ

٤- يَسْألُني قلبُك مُستَهْتِرًا

فَقُلتُ: مَنْ يَسْألُني أعْرَفْ

٥- مَنِ الذي أفتاكَ يا ظالمي

أنَّكَ لا تَضْمَنُ ما تُتْلِفْ ؟

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» ٧٣.

(١٧) وقال: [من الطويل]

١- تجلَّدْ على رَيبِ الزَّمَانِ فإنَّه

وإنْ خَالطَتْه سكرةٌ سَيفِيقُ

٢- ولا تُكثر الشكوى إلى كلِّ مَن تَرى
فمـا كـلُّ مَـن تَشكـو إليـه شَفيقُ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٩.

(١٨) وقال: [من الرمل]

١- لستُ أنسى ليلتي منه وقد
أنجزَ الوعدَ الذي كان مَطَلْ

٢- راقبَ الأعيُنَ حتى رَقدتْ
ورعى حارسَهُ حتّى غفَلْ

٣- بقوامٍ كلَّما مالتْ به
نشوةُ التِّيهِ انثنى ثم اعتدَلْ

٤- يا لها من ليلةٍ مَعشوقةٍ
لم تكُنْ غيرَ عِناقٍ وقُبَلْ

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي الورقة ٤٢.

(١٩) وقال: [من البسيط]

١- وعاشقين قضى اللهُ اجتماعَهُما
فلم يليما بما قالا وما فعَلا

٢- تجاذبا طرفي عَتْبٍ ومعذرةٍ
فاصفرَّ ذا فرَقًا واحمرَّ ذا خَجَلا

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي١٥، وفيه: «تجاذباه».

(٢٠) وقال: [من البسيط]

١- يزهو على خدِّه وَردٌ إذا نهبتْ
منه النواظرُ شيئًا ردَّهُ الخَجَلُ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٤.

(٢١) وقال: [من الطويل]

١- تمنيتُ أن يَهوى ولو ردُّ نَظْرةٍ
ليعلمَ أسبابَ الهوى (كيفَ) تَفعَلُ

٢- وقلتُ: عسى أن يعطفَ الوجدُ قلبَهُ
على عاشقٍ من هَجْرِه يَتَمَلْمَلُ

٣- فما زادَه ذلُّ الهوى غيرَ قَسْوةٍ
حَباهُ بها مَعشوقُهُ المتدَلّلُ

٤- فيا ربِّ حمِّلني هواه وعافِه
فإني لأشجانِ الهوى منهُ أحْمِلُ

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» الورقة ٢٤.

(٢٢) وقال: [من الكامل]

١- وتراه يُتبِعُ وعدَه إنجازَه
فيكادُ يَعثُرُ قولُه بفعالِه

٢- يا مَن شددتُ يدي عليه عاقدًا
طمعي به مُستَمسِكًا بحبالِه

٣- لم يُضحِني الدهرُ الحَرورُ بنَبْوةٍ
إلاّ وَفيَّأني مَديدَ ظلالِه

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٥، والبيت الأول له فيه ٢٠٩.

(٢٣) وقال: [من البسيط]

١- وافى كتابُك مَطويًا على مِنَنٍ
أدنى رغائبِها يستغرقُ الدِّيَما

٢- فبتُّ أُمتِعُه طَرْفي وألثِمُهُ
وإنما ألثمُ المعروفَ والكرَما

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٨

(٢٤) وقال: [من البسيط]

١- أنا الذي كادَ يجْري الدَّهْرُ من خُلُقي
ماءً ويصغي (صَدَى) الموتَى إلى كَلِمي

٢- لا تتعب الدَّهرَ في مبغى مَدَى أمَلِي
فليس في الأرضِ ما تسمُو به هِممي

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٨، وورد البيت الأول فيه هكذا: «صد الموتى»، والصواب ما تم إثباته، ومعنى الصدى هنا أتى عليه «ابن قتيبة الدينوري» في إتيانه على إحدى معتقدات الجاهلية من خلال شرحه لبيت «أبي دؤاد الإيادي» - الشاعر الجاهلي - الذي يقول فيه: «

سَلّطَ الموتُ والمنون عليهم
فلهم في صدَى المقابرِ هامُ

فإنهم كانوا يزعمون أن الميت إذا دفن خرج من قبره طائر مثل الهامة فلا يزال يصيح على قبره بالليل حتى يقتل من قتله ويدرك بثأره، ويقال: إنهم كانوا يزعمون أن عظام الموتى تصير هامة فتطير. أبو عمر قال وكانوا يسمون ذلك الطائر الصدى، والهام والصدى واحده. المعاني الكبير ص ٢٠٥، وبناءً على معنى الصدى هنا يتضح معنى بيت ابن المستوفي.

(٢٥) وقال: [من البسيط]

١- ما كنتُ أحْسَبُكُمْ والدَّهرُ ذو غِيَرٍ
ممن تُحيلُ الليالي صَبْغَ وُدِّهم

٢- ولا ظننتُ بكمْ ما قَدْ سَمِعْتُ به
لا والذي أوجَدَ الأشياءَ من عَدَم

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأً للنواجي الورقة ١٥، وحرّف الاسم فيه إلى ابن المستوي، وورد عجز البيت الثاني هكذا: « الأشيا »، ولعل هذه النتفة والنتفة السابقة من قصيدة واحدة.

(٢٦) وقال: [من المتقارب]

١- يقُولُون طَالتْ مواعيدُه
وذلك من فِعْلِ غيرِ الكَرِيمِ

٢- فقلتُ: بعدتُم ولكنَّهُ
يحبُّ سَمَاعَ تَقَاضِي الغَرِيمِ

التخريج: « طراز المجالس » ٢٠٢ - ٢٠٤.

(٢٧) وقال: [من المجتث]

١- فقلتُ عينيكَ أبغِي
منها شِفَاءَ سِقَامِي؟

٢- وهل رأيتَ جريحًا
يشفيه لَثْمُ السِّهَامِ ؟

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» ١٠٢.

(٢٨) وقال: [من البسيط]

١- والله لو قيلَ لي والخوفُ قد أخذتْ
أقصَى نَوَاحِيهِ من أدْنى نَوَاحِينا

٢- تَمَنَّ ما شئتَ تُعطه لما انصَرَفَتْ
عَنْكم على هَوْلِ ما نلقى أَمَانِينَا

٣- فالحرُّ مَن باتَ يَرْعى عَهْدَ صاحبِهِ
في القربِ رَاجِيًا وفي العَهْدِ وَافِينا

٤- أشفقتْ على تلفِ أرواحِنا فَمَرْ
طيفُ الخيالِ محيِّنًا فيحيينا

الرواية: (٢) وورد البيت الثاني في «روض

الآداب» برواية: «تمني (كذا) ما شئت تلقاه.... ما تلقى....».

(٣) وورد البيت الثالث في «روض الآداب» برواية: «فاختر بقربك أو فيّ».

(٤) وورد البيت الرابع في «رياض الألباب» برواية: «طيف الخيال تحييناه».

التخريج: مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأ للنواجي الورقة ٤٤، و«روض الآداب» ١٥١.

(٢٩) وقال: [من المجتث]

١- وربَّ أقـطـعَ يَـشْـدُو
سَـــارُوا ومـا وَدَّعُـونـي

٢- مـا أنـصـفُـوا أهـلَ وُدِّي
واصـلـتُـهـم قـطَـعُـونـي

الرواية: (١) ورد البيت الأول في النجوم الزاهرة برواية:

أفـديـه أقـطـعَ يَـشْـدُو
سَـارُوا ولا ودَّعُـونـي

التخريج: مخطوط «مراتع الغزلان» الورقة ١٢٣، وهما بلا نسبة في النجوم الزاهرة ١٥٦/٨.

(٣٠) وقال: [من الكامل]

١- أنفقتُ عمري في هواكَ وصرتُ من
نـدمـي أعضُّ أنـامـلَ المـغْـبُـونِ

٢- الـذَّنـبُ لـي فـيمَـا صَنعتُ لأنَّنِي
أودعـتُ قـلـبي عـنـدَ غـيرِ أمـيـنِ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٢.

(٣١) وقال: [من الكامل]

١- مذ غِبتَ غابَ الجودُ وانقطعَ النَّدَى
وعفَا السـمـاحُ وغـاضَ وهـو مَعِينُ

٢- إنَّ امـرأً تـأتـي عـلـيـه سـاعـةٌ
ويـفـوتُ مَـوقـعُ طَـرفِـهِ لَغَـبـينُ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠١.

(٣٢) وقال: [من السريع]

١- لا أبـعـدَ اللهُ فُـلانًـا عـلى
لُـؤمِ خِـصَـالٍ جُـمِـعـتْ فـيـهِ

٢- وأبـعـدَ اللهُ الـزَّمَـانَ الـذي
أخُـوجـنَـا (أنَّـى) نُـدَاريـهِ

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٨، والشطر الأخير فيه (أنا)، وأنَّى نداريه: كيف نداريه.

(٣٣) وقال: [من البسيط]

١- أصغَى ومَالَ إلى تَصْدِيقِ وَاشِيهِ
فـظـلَّ يُـلـفـتُـه عَـنَّـا ويـثـنـيـهِ

٢- يا مخجلَ البَدْرِ حُسنًا في تمثُّلِهِ
وفَـاضِـحَ الـغُـصْـنِ لـينًا في تثنيهِ

٣- ومُعْرِضًا عن شكَاتي وهو يَسمعُهَا
ولاهـيًـا عـن حَـديـثـي وهـو يَـرْويـهِ

٤- ما غيَّرَ البعدُ وَجْدًا كنتَ تَعْهَدُهُ
ولا سَـعَـى الـدَّهْـرُ يَـومًـا في تَنَاسِيهِ

٥- في كُـلِّ شَـيءٍ لـه شَـأْنٌ يُـجَـدِّدُهُ
كـأنَّـمَـا كُـلُّ شَـيءٍ مـن نَوَاعِـيـهِ

٦- فما يَـزُولُ ولـو زالـتْ نَوائِـرُهُ
ومـا يـحـولُ ولَـو حَـالـتْ لَـيَـالـيـهِ

٧- أخفي شُجُوني فتُخْفيني مُكافَاة
والعاشقُ الجَلْدُ يخفيها فتُخْفيهِ

٨- فلم يُكابدْ جميلَ ما أكابدُه
ولم يُعانِ كثيرَ ما أُعانيه

٩- عندي من الشوقِ ما لَوَ انّ أيسرَهُ
يلقى على الليلِ ما انجابتْ دَياجيهِ

١٠- كأنّ حَظّيَ منه اشتقّ أسوَدَه
فمَا يحولُ ولا الأيامُ تُبليه

١١- ما كانَ ما نَقَلَ الواشونَ-لا سلموا-
إلا القطيعين مِن زُورٍ وتَمْويهِ

١٢- فانظر إلى فرقِ ما بَيْني وبينهم
من كاذبينَ وزاكٍ في دعاويه

١٣- تجرادي الواحد يمحوهم ويثنيه
ومُؤلم اللومِ فيها هَمّ مُغريه

الرواية: (١٢) ورد البيت الثاني عشر في «المرج النضر» برواية: «وفراك في دعاويه».

التخريج: مخطوط «المرج النضر والأرج العطر» الورقة ١١٦، والأبيات ١، ٢، ١١، ١٢ من هذه القصيدة له في مخطوط «رياض الألباب ومحاسن الآداب» المنسوب خطأ للنواجي الورقة ٥٨، وكذا ورد صدر البيت الأخير.

(٣٤) وقال: [من البسيط]

١- يَرْضَى ويغضَبُ لا عمدًا ولا غلطًا
لكنّه ذو فُنُونٍ في تجنّيهِ

٢- فمَا تقرّبُه منّي محاسنُه
ولا تُبعدُه عنّي مساويه

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٨، ولعلهما تابعان للقصيدة السابقة.

(٣٥) وقال: [من الخفيف]

١- أيُّها السَّيدُ الذي لم يَعُدْ إلا (م)
(وَليًّا على النَّجا والوَفا)

٢- أنتَ في الأسْرِ ما وَعدْتَ فسَلبي
لكَ إمّا (مَنًّا وإمّا فِدا)

التخريج: «طراز المجالس» ٢٠٨، وورد عجز البيت الأول فيه هكذا: «وليٌّ على النَّجاحِ والوَفاء»، ولعل الصواب ما أثبت، وورد الشطر: «إما ثنا وإما فداء»، ولعل الصواب ما أثبت، لنزوع الشاعر إلى الاقتباس من قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ سورة محمد ﷺ، الآية رقم (٤). «السلب: ما يسلب». لسان العرب (سلب ٢٠٥٧).

(٣٦) ونسب إليه وإلى غيره: [من البسيط]

١- وليلةٍ كاغتماضِ الجفنِ قصَّرها
وَصْلُ الحبيبِ ولم تقصُرْ عن الأمَلِ

٢- بتنا تُجاذبُ أهدابَ الظلام بها
كفُّ الملالِ وذكرُ الصَّدِّ والملَلِ

٣- وكلّما رامَ نطقًا في مُعاتبتي
سَدَدْتُ فاهُ بطيبِ اللثْمِ والقُبَلِ

الرواية: (٣) ورد البيت الثالث في معاهد التنصيص برواية: «بنظم اللثم».

التخريج: مخطوط «رياض الألباب» لمجهول

مقالات

الورقة ٣٧، والبيتان ١، ٣ في أربعة أبيات للقاضي أبي الفتح بن قادوس في معاهد التنصيص ١/ ١٧٠، و«المَلُّ المَلالُ: وهو أن تَمَلَّ شيئاً وتُعْرِض». «لسان العرب» (ملل ص ٤٢٦٩).

(٩) عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ هـ - ٩٦٣هـ):

عبد الرحيم العباسي هذا أديب كبير من أدباء القرنين التاسع والعاشر الهجريين، كان ناثرًا من طراز فريد له بعض الرسائل الإنشائية، منها «أنفع الوسائل إلى أبدع الرسائل»، و«أنس الأرواح بعرس الأفراح»، وقد قمت بتحقيقهما، وبالإضافة إلى ذلك كان «العباسي» ناقدًا، ضمَّن مؤلفه القيم الموسوم بـ«معاهد التنصيص على شواهد التخليص» كثيرًا من طروحاته النقدية، وجمع «العباسي» إلى الأدب الثقافة الإسلامية، وله في ذلك آثار تشهد له بسعة اطلاعه وعمق ثقافته، وعلى صعيد الحياة الشعرية كانت له محاولات في نظم الشعر التي لم تصلنا في ديوان، لذا نهضتُ بجمع شعره وتحقيقه، ونشرته في مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠٠٦م، ولا يزال تراث «العباسي» في دائرة اهتمامي المتواضع، فأتتبعه في مصادره، وكان من آثار ذلك أن عثرت على أشياء جديدة منها هذه المقطعة الشعرية التي تستدرك على ما نشرته:

١- يا فؤادي وأين مني فؤادي؟
لست أدريه ضل في أي وادي!

٢- شعب الحب قد تشعب قلبي
في ذراها وغاب عنها الهادي

٣- يا خليلي إن تمرا بلعلٍ
فأنشداه ما بين تلك الوهاد

٤- فهو في قبضة الغرام أسير
دون فادٍ وهالك دون وأد

٥- ليس غير الصدا يرد جواباً
لي منه في حالة الإنشاد

٦- كلما قلت: أين غاب فؤادي؟
رد لي منه أين غاب فؤادي؟

التخريج: الكشكول للعاملي مج ٢/ص ٢٥٢.

هذا ما تيسر إثباته في المراجعة، وما عن لي إضافته هنا، وأعود فأكرر أنني لما لم أقف على هذه الإضافات في بحث منشور على الرغم من كثرة البحث والتنقيب أثبتها هنا، وربما يكون هناك من طرق بعضها مما لم أهتد إليه، ولا أقطع بأنها كل ما في المصادر بخصوص ما تناولته في المراجعة، فربما تكون هناك أشياء أخرى جانبني التوفيق في الاهتداء إليها، وأعترف بأن كل ما تقدم لا ينقص أبدًا من جهود المحققين الفضلاء أصحاب الأعمال مناط المراجعة هنا، وليس الهدف من إثبات ما تقدم إلا الدعوة المخلصة لأصحاب هذه الأعمال إلى مراجعتها، واضافة هذه الإضافات في طبعة ثانية، فهي منهم واليهم ولولا أعمالهم المشكورة، وجهودهم لما كانت السطور السابقة. والأمر لا يعدو من كاتب هذه السطور سوى العناية بالتراث والمشاركة المتواضعة في محاولة إظهاره على الوجه الذي يليق بما بذله الأجداد من معاناة في إبداعه وتدبيجه، والظن أن هذا هو هدف الباحثين جميعًا، وإن كان ثمة تقصير أو خطل غير مقصود هنا أو هناك في الصفحات السابقة وهو أمر وارد ومتوقع، فإنما لأن كاتبها بشر، والعزاء أنه اجتهد وما قصر، وعلى الله قصد السبيل.

المصادر :

١- آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة: لأبي البركات الغزي (ت ٩٨٤ هـ)، تحقيق عمر موسى باشا، مجمع دمشق، ١٩٦٨م.

٢- آل وهب من الأسر الأدبية في العصر العباسي: ليونس السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٧٩م.

٣- الإحاطة في أخبار غرناطة: للسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٤م.

٤- الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار: للسيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، المكتب الإسلامي، دار الخافاني، بيروت، الرياض، ط١، ١٩٩١م.

٥- اعتلال القلوب: للخرائطي (ت٣٢٧ هـ)، بعناية: سمير رباب، وكمال مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٦- أمالي الزجاجي: لأبي إسحاق الزجاجي (ت٣٤٠ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

٧- الإنباء في تاريخ الخلفاء: لابن العمراني (ت٥٨٠ هـ)، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

٨- تاريخ الإسلام: للذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٤هـ.

٩- تاريخ دمشق: لابن عساكر (ت٥٧١ هـ)، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

١٠- تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب: للسيوطي (ت٩١١هـ)، دراسة تحقيق: حسن الملخ، وغيره، عالم الكتب الحديث، الأردن.

١١- التدوين في أخبار قزوين: لعبد الكريم القزويني (ت٦٢٣هـ)، تحقيق: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٢- التذكرة الفخرية: لبهاء الدين الإربلي (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق: حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

١٣- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: للقاضي عياض (ت٥٤٤ هـ)، ج٣، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٥م.

١٤- تشنيف السمع بانسكاب الدمع: للصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: محمد داود، دار الوفاء الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

١٥- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: للصفدي (ت٧٤٦ هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، ١٩٦٩م.

١٦- جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام: للشيزري (ت٦٢٢هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم حور، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٥م.

١٧- دراسة تحقيقية نقدية لخمسة دواوين شعرية: عبد الرازق حويزي، نشر مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٤م .

١٨- الدر المصون المسمى بسحر العيون: للبدري الدمشقي (٨٩٤ هـ)، نشره: سيد صديق عبد الفتاح، ط دار الشعب، ١٩٩٨م.

١٩- ديوانا القاسم بن يحيى بن معاوية المريمي، والحسين بن محمد البارع البغدادي: حياتهما وشعرهما: جمع وتقديم وتحقيق: هلال ناجي، دار الهلال، دمشق.

٢٠- ديوان ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣ هـ)، جمع وتحيق: عبد العزيز الميمني، ضمن كتابه: النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السلفية، ١٣٤٣هـ، وجمع وترتيب: عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، وشرح: صلاح الدين الهواري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، وجمع وتحقيق وشرح: محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨.

٢١- ديوان الشافعي، تحقيق: محمد عفيف الزغبي، طبعة ١٣٩١ هـ، وتحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٢- ديوان الشريف الرضي (ت٤٠٦ هـ): شرحه وعلق عليه وضبطه وقدم له: محمود مصطفى حلاوي، شركة الأرقم ابن الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٢٣- ديوان الصبابة: لابن أبي حجلة التلمساني (ت٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

٢٤- ديوان الصوري (عبد المحسن بن غلبون ت ٤١٩ هـ)، تحقيق: شاكر هادي شكر، وآخر، بغداد، ١٩٨١م.

٢٥- ديوان علي بن الجهم (ت٢٤٩ هـ): تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

٢٦- ديوان أبي الفرج بن هندو (ت ٤٣٣ هـ): جمع وتحقيق: عبد الرازق حويزي، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٠م، وعلقت عليه في كتابي الذي نشرته تحت عنوان: دراسة تحقيقية نقدية لخمسة دواوين شعرية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م، وصدرت نشرة خاصة جديدة من هذا الديوان عام ٢٠٠٧م، وفي مجلة العرب مجلة العرب ص٦٣، ج٢، ١س٤٢ رجب و شعبان ١٤٢٨هـ تعقيب على النشرة الأولى بعيد عن العلمية، وفي النشرة الأخيرة

ستة أبيات جديدة لم يستركها صاحب التعقيب، وقد خرجتها على تاريخ طبرستان ١١١، والحدائق الوردية ١٦٨/٢، ومطلع البدور ٢٥/٤، مع الاختلاف في رواية بعض ألفاظها لذا لم أثبتها هنا.

٢٧- ديوان ابن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠ هـ): جمع وتحقيق: د.عباس هاني الجراخ، بغداد، ٢٠٠٦م.

٢٨- ديوان أبي نواس(ت ١٩٧هـ): تحقيق: إيفالد فاغنر، وغريغور شولر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٠م.

٢٩- ديوان يحيى بن علي المنجم (ت ٣٠٠ هـ): جمع وتحقيق: هلال ناجي، ضمن كتاب أربعة شعراء عباسيون، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤م.

٣٠- ذم الهوى: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، صححه: أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٢م.

٣١- ذيل تاريخ بغداد: لابن النجار (ت ٦٤٣ هـ): تحقيق: قيصر فرح، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢- روض الآداب: للشهاب الحجازي (ت٨٧٥ هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الباسط عابدين، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ١٩٩٢م.

٣٣- روضة البلاغة: لعبد الملك بن المعافى، تحقيقي: عبد المنعم الرجبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م

٣٤- رياض الألباب: لمجهول، دار الكتب المصرية، شعر تيمور ٨٦٧.

٣٥- رياض الألباب ومحاسن الآداب: المنسوب خطأ للنواجي، وهو للشريف الأسيوطي (ت ٨٥٩ هـ)، المكتبة الأزهرية، برقم ٢٧٩.

٣٦- زهر الأكم في الأمثال والحكم: للحسن اليوسي (ت ق ١١)، تحقيق: محمد حجي، دار الثقافة، المغرب ١٩٨١م.

٣٧- الزهرة: لمحمد بن داود الأصفهاني (ت ٢٩٦هـ) ،تحقيق: إبراهيم السامرائي، وآخر، الأردن، ط٢، ١٩٨٥م.

٣٨- سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: للتيفاشي (ت٦٥١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٣٩- ٢سفر السعادة وسفير الإفادة: للسخاوي (ت٦٤٢هـ)، تحقيق: محمد أحمد الدالي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٤٠- شروح سقط الزند: للبطليوسي وغيره، تحقيق: عبد السلام هارون وغيره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

٤١- شعر عبد الرحيم العباسي(ت٩٦٢هـ): جمع وتحقيق: عبد الرزاق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٤٢- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي: علي جواد الطاهر، دار الرائد، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٤٣- طرائف الطرف: للبارع البغدادي، الحسين بن محمد (ت ٥٢٤هـ)، تحقيق: هلال ناجي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٤٤- طراز المجالس: للشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٨٤هـ.

٤٥- الفرج بعد الشدة: المحسّن بن علي التنوخي - تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.

٤٦- الفصوص: لصاعد البغدادي، تحقيق: عبد الوهاب التازي سعود، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٥م.

٤٧- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: لابن الشعار الموصلي (ت٦٥٤هـ)، تحقيق: كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٤٨- كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري (ت٢٩٥هـ)، الأستانة، ١٣٢٠هـ.

٤٩- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي للصاحب بن عباد (ت٣٨٥ هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٥م.

٥٠- الكشكول: لبهاء الدين العاملي (ت١٠٣١هـ) تحقيق: الطاهر الزاوي، طبعة عيسى الحلبي، ١٩٦١م.

٥١- لسان العرب: لابن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبد الله الكبير، وآخرين، دار المعارف، القاهرة.

٥٢- مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن: لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ): تحقيق: مصطفى الذهبي، دار الحديث -القاهرة- ط١، ١٩٩٥م، وتحقيق: أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٥٣- مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد ع ٦٨،٢٠١٠م .

٥٤- مجلة الذخائر، رئيس تحريرها الأستاذ كامل سلمان الجبوري، ع٢١، ٢٢، ١٤٢٦هـ، وفي هذا العدد (ديوان ابن المستوفي الإربلي (ت٦٣٧هـ): جمع وتحقيق وتقديم: كامل سلمان الجبوري).

٥٥- مجلة العرب: ج ٥ -٨، س٤٤، ١٤٢٠هـ، ج١١، ١٢، ١٤٢٨هـ (استدراكات على جملة من الدواوين: هلال ناجي).

٥٦- مجلة العرب، ج٥، ٦، ١٤٢٩هـ.

٥٧- مجلة المورد: مج ٧، ع٢، ١٩٧٨م (الأقرع بن معاذ القشيري: حياته وما تبقى من شعره)، مج ١٥، ع٢،

١٩٨٦م (المستدرك على شعر الأقرع بن معاذ القشيري)، مج ٣٦، ع٢، ١٩٩٨م. وفيه: رسائل المبارك بن أحمد، وفيها مجموع شعره، ونشر هلال ناجي - كما صرح في مستهل استدراكه المنشور في مجلة العرب - هذا العمل في كتاب صدر عن عالم الكتب، بيروت سنة ١٩٩٩م = ١٤٢٠هـ أي بعد نشره في مجلة المورد بعام واحد، ولم أقف على هذا الكتاب، وعلى العموم لا زيادة في ما ضمه من شعر لابن المستوفي عما نشر في المورد، إذ ضم ٧٢ بيتًا على ما ذكر مجاهد مصطفى بهجت في بحثه الموسوم بـ«المستدرك على المكتبة الشعرية ص ٣٢٦ - ٣٢٧ المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ع٦٦، وعدد الأبيات هو نفسه المنشور في مجلة المورد.

٥٨- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٧٥، ٢٠٠٩م.

٥٩- المحاسن والمساوئ: للبيهقي، تحقيق: محمد أبي الفضل، نهضة مصر ،١٩٦١م.

٦٠- محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء: الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٥ هـ)، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م .

٦١- المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن محمد بن الدبيثي، انتقاء: محمد بن أحمد الذهبي - تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١م.

٦٢- المدهش: لابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ):

١- تحقيق: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- تحقيق: حامد البسيوني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣- وطبعة دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٧٧م.

٦٣- مراتب النحويين: لأبي الطيب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة.

٦٤- مراتع الغزلان في وصف الحسان من الغلمان: للنواجي، مخطوط مكتبة الإسكندرية برقم ٢٢٩ أدب.

٦٥- المرج النضر والأرج العطر: للشريف الأسيوطي، معهد المخطوطات العربية، برقم ٧٥٩ أدب، وفيه ٨٦ دوبيت.

٦٦- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: لابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ)، انتقاه ابن الدمياطي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: قيصر فرح، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٧- مستوفى الدواوين: لمحمد بن عبد الله الأزهري، تحقيق: زينب القوصي، وزميلتها، دار الكتب المصرية - ٢٠٠٢ وما بعدها.

٦٨- المعاني الكبير: لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ): دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٨٤م.

٦٩- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: لعبد الرحيم العباسي (ت٩٦٣هـ)، المطبعة البهية المصرية، ١٣١٦هـ.

٧٠- معجم الأدباء: لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.

٧١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٧٢- المنصف: لابن وكيع التنيسي (٣٩٣هـ)،ج٢ تحقيق: محمد عبد الله العزام، مركز الملك فيصل، الرياض، ٢٠٠٨م.

٧٣- الموسوعة الشعرية (cd) - المجمع الثقافي - أبوظبي - ٢٠٠٣م.

٧٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ)، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٧٥- نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب: للتيفاشي (ت٦٥١هـ)، تحقيق: جمال جمعة، مكتب رياض الريس للنشر، الرياض، قبرص، ط١، ١٩٩٢م.

٧٦- نزهة الجلساء في أشعار النساء: للسيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.

٧٧- نصرة الإغريض في نصرة القريض: للمظفر بن الفضل العلوي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: نهى عارف الحسن، دمشق، ١٩٧٦م.

٧٨- نظم الدر والعقيان في محاسن الكلام لمحمد بن عبد الله ابن عبد الجليل للتنسي ، تحقيق: نوري سودان، شتاينر، بيروت، ١٩٨٠م.

٧٩- نفح الطيب: للمقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٨٦م.

٨٠- النور السافر عن أخبار القرن العاشر: لعبد القادر العيدروس (ت ١٠٣٨هـ)، تحقيق: أحمد حالو، وآخرين، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٨١- الوافي بالوفيات: للصفدي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق: نخبة من المحققين، دار نشر فرانز شتاينر، فيسبادن، وطبعة أخرى بتحقيق: تركي مصطفى، وآخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

وقفات مع التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة من خلال كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير

أ. طاهر سبع أبو مالك
جامعة المسيلة - الجزائر

توطئة: إن تاريخنا الإسلامي خاصة السياسي منه - فيه الكثير من الجوانب الإيجابية، كما فيه أيضا جوانب السلبية، خاصة فيما يتعلق بالنزاعات الإقليمية، والصراع على السلطة الذي حدث كثيرا بين أفراد الأسرة الواحدة أو مجموعة من الأسر، أو القبيلة الواحدة أو مجموعة من القبائل، وهو الذي أدى - في كثير من الأحيان وعلى مر العصور - إلى التمزق السياسي لأمتنا، لهذا لابد أن يدرس تاريخنا بسلبياته وإيجابياته معا، ولا يمكن دراسة التاريخ بموضوعية إن أبرزنا الجوانب المضيئة في هذا التاريخ، دون إبراز الجوانب السلبية أو المظلمة فيه، وذلك لأن الفائدة من التاريخ أخذ العبرة والاستفادة منه بإيجابياته وسلبياته في حاضرنا ومستقبلنا، وإلا أصبح هذا التاريخ بلا فائدة، وأشبه شيء بالحكايات التي تروى في مجالس السمر.

والتاريخ السياسي للدولة الحمادية الذي بدأ مع مطلع القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي بعد استقلال حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط، متخذا من القلعة أبي طويل عاصمة له[1]، لا يعدو أن يكون فصلا من

فصول تاريخ أمتنا الطويل، وفيه كغيره من تواريخ الدول أو الدويلات الإسلامية في المشرق والمغرب الإسلاميين،جوانب إيجابية وأخرى سلبية، لا بد على دارسي التاريخ الكشف عنها وعدم إغفالها، حتى يتسنى لنا دراسة تاريخنا الإسلامي بصدق وموضوعية، دون زيادة أو مبالغة، أو تحريف للنصوص.

وقد تناولت مختلف المصادر التاريخية الوسيطة التاريخ السياسي للدولة الحمادية باستفاضة خاصة المصادر المغربية منها، بيد أن المصادر التاريخية المغربية المعاصرة للحدث، أو القريبة منه لم تصلنا، بل وصلتنا مادتها العلمية ضمن مصادر تاريخية أخرى متأخرة عنها نوعا ما.

ويأتي في طليعة المصادر التاريخية التي استوفت التاريخ السياسي للدولة الحمادية، كتاب البيان

المعرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي (٧١٢هـ/١٣١٢م)، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

ويُعَدُّ الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري[٢]، من أهم المصادر التاريخية المشرقية التي تناولت تاريخ العالم الإسلامي كله، بما في ذلك الجزء الغربي منه، حيث احتوى هذا الكتاب على معلومات مستفيضة ودقيقة، من أخبار المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى أيام الدولة الموحدية الذي كان معاصرا لها[٣]. ومما يميز كتابه الكامل، أنه وازن فيه تقريبا بين أحداث المشرق والمغرب الإسلاميين فلم يطغ اهتمامه بهذا على اهتمامه بذاك[٤].

وفيما يتعلق بتاريخ المغرب الإسلامي في «الكامل»، نشير إلى أن المستشرق الفرنسي فانيان Fangan قد قام بجمع المادة العلمية المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي من تاريخ ابن الأثير، ونشرها في الجزائر سنة ١٩٠١ تحت عنوان[٥]:

«Annals du Maghreb et de L'Espagne du tarikh d'ibn al-athir».

وقد اعتمد ابن الأثير على الكثير من المصادر المكتوبة والتي أكثرها لم يصل إلينا، ومن المرجح أنه اعتمد في جمع مادته العلمية عن المغرب الإسلامي على مصادر تاريخية مغربية معاصرة للدولة الحمادية أو قريبة منها، والتي كانت متوفرة في زمانه – وإن لم يصرح بذكرها – بحيث نقل أو انتخب منها، الكثير من المادة العلمية ليدعم بها كتابه الكامل في التاريخ، ونقصد بذلك كتاب «تاريخ إفريقية والمغرب» للرقيق القيرواني الذي يعد من المؤرخين المعاصرين للدولتين الحمادية والزيرية، حيث توفي منتصف القرن الخامس الهجري.

و يتميز ابن الأثير في كتابه الكامل على العموم، بروح علمية نقدية كبيرة، حيث كان يرجع إلى أوثق الروايات والنصوص، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بحيث لا يأخذ الأخبار على عواهنها، بل كان يمحصها ويرفض منها ما لا يصمد أمام النقد، كما يتسم منهجه بمحاولة تقديم تاريخ الأمة الإسلامية كوحدة متناسقة، مما يضفي صبغة عالمية للتاريخ الإسلامي، يضاف إلى ذلك ما اتسم به أسلوبه من سلاسة ووضوح، ودقة وبساطة واختصار[٦].

وتأتي أهمية الكامل في التاريخ بالنسبة لأحداث القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي في المغرب الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ الدولة الحمادية بصفة خاصة، أن معظم المصادر التاريخية المغربية المعاصرة للحدث، أو القريبة منها على الأقل لم تصلنا، وحسب الترتيب الزمني للمصادر التاريخية المتوفرة لدينا، والتي تناولت الأحداث السياسية للدولة الحمادية واستفاضت في الحديث عنها، فإن الكامل في التاريخ يُعَدُّ أقدم هذه المصادر، ونقصد هنا مصدرين مغربيين سبقت الإشارة إليهما ألا وهما: البيان المعرب لابن عذاري المراكشي، وكتاب العبر لابن خلدون، لوفرة مادتيهما واعتماد الباحثين في تاريخ المغرب الإسلامي عليهما كثيرا.

وستتناول هذه الدراسة بشيء من التحليل التاريخي، فالمعلومات التي أوردها ابن الأثير حول التاريخ السياسي للدولة الحمادية بالقلعة (٤٠٨هـ- ٤٦٠هـ)، أي في مرحلة التأسيس، ومنذ قيام هذه الدولة حتى بناء مدينة بجاية ثم انتقال

السلطة الحمادية إليها ؛ هذا وسوف نتوقف من خلال هذه الدراسة عند بعض الأحداث الهامة في تأسيس الدولة الحمادية بالقلعة، مسلطين بعض الأضواء عليها، ومحاولين تفسير بعض الأحداث التاريخية أيضا، مثل ظروف وأسباب نشأة الدولة الحمادية، ومراحل الصراع الزيري الحمادي، والغزو الهلالي للمغرب الأوسط، ومحاولة الكشف عن السبب أو الأسباب الرئيسية لانتصاراتهم واكتساحهم للمغرب الإسلامي، وسبب بناء الناصر ابن علناس(٤٥٤-٤٨١هـ) لمدينة بجاية، وأسباب الانتقال إليها، مقارنين ذلك بما ورد عند ابن عذاري المراكشي، أو عند ابن خلدون أو غيرهما.

أولا: ظروف تأسيس الدولة الحمادية: إن التاريخ السياسي للدولة الحمادية التي قامت بالمغرب الأوسط يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الدولة الزيرية التي قامت قبلها بنحو نصف قرن تقريبا، لأنهما كانتا في الأصل دولة واحدة ثم انشطرت إلى دولتين كما هو معروف في تاريخ الدويلات الانفصالية في التاريخ الإسلامي.

وقد تناول ابن الأثير سبب قيام الدولة الزيرية وطرفا من أخبارها، كما تناول ظروف قيام الدولة الحمادية بكل مراحلها، وإن لم يفصّل في بعض الأحداث والجزئيات.

لهذا تقتضي منا الدراسة عند الحديث عن الدولة الحمادية، الحديث عن قيام الدولة الزيرية، ثم انقسام هذه الدولة إلى دولتين وأسباب ذلك.

١- رحيل الفاطميين وقيام الدولة الزيرية في المغرب: يخبرنا ابن الأثير في صدد الكلام عن حوادث سنة ٣٦١هـ - على غرار باقي المؤرخين الذين تحدثوا عن قيام هذه الدولة- بأن سبب قيام الدولة الزيرية هو انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، وأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي لما انتقل من إفريقية يريد مصر، استعمل على إفريقية يوسف بلكين ابن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري»[٧]، ولكن لم يجعل لنائبه هذا « حكما على جزيرة صقلية ولا على مدينة طرابلس و لا على أجدابية وسرت»[٨].

ثم ذكر ابن الأثير خبر يوسف بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي واجتماع صنهاجة على طاعته، وذكر في معرض حديثه هذا بناء بلكين بن زيري لمدينة أشير[٩] سنة ٣٢٤هـ في موقع حصين بعيدا عن متناول الأعداء[١٠].

وقد تعرض ابن الأثير لبعض أخبار الدولة الزيرية بعد ذكر تأسيسها، حيث ذكر وفاة بلكين ابن زيري سنة ٣٧٢هـ، وهو في طريقه إلى فاس متأثرا بالمرض، وولاية ابنه المنصور[١١]، ثم ذكر انهزام جيش المنصور بن بلكين أمام الجيش الزناتي بقيادة خزرون وزيري بن عطية صاحبا سجلماسة وفاس، في معرض حديثه عن حوادث سنة ٣٧٥هـ[١٢].

وفي حوادث سنة ٣٧٧ هـ تعرض ابن الأثير إلى خروج المنصور بن بلكين لحرب قبيلة كتامة[١٣]، ثم ذكر في حوادث سنة ٣٧٩هـ مسيره لمحاربة عمه الذي كان واليا على مدينة تهارت بعد أن شق عصا الطاعة عليه، واحتماء عمه هذا بزيري بن عطية المذكور صاحب فاس[١٤].

و في حوادث سنة ٣٨٦ هـ ذكر ابن الأثير وفاة المنصور بن بلكين وولاية ابنه باديس وذكر ضمن هذا الحادث، أنّ باديس لما آل إليه الحكم استعمل عمه حماد على مدينة أشير[١٥]؛ ثم ذكر مشاركة حماد مع ابن أخيه في محاربة زناتة بسبب تغلب زيري بن عطية على مدينة تهارت التابعة للزيريين،

وذكر أيضا في معرض حديثه هذا انتصار باديس على قبيلة زناتة[١٦].

٢- الصراع الزيري الحمادي ومراحله: سوف نتطرق إلى هذا الصراع ومراحله حسب العناصر الآتية:

- سبب اشتعال الحرب بين الطرفين وبدايتها: نشير هنا في معرض حديثنا عن ظروف نشأة الدولة الحمادية، أن ابن الأثير لم يتعرض لحادثة بناء مدينة القلعة في حوادث سنة ٣٩٨هـ، وإنما تعرض مباشرة لنار الفتنة التي اشتعلت بين باديس ابن المنصور، وعمه حماد بن بلكين ضمن حوادث سنة ٤٠٦هـ، وذكر ابن الأثير أن سبب اشتعال هذه الحرب أن باديس طلب من عمه حماد التنازل عن بعض المدن الشرقية في المغرب الأوسط - التي أقطعه إياها من قبل - إلى نائب ابنه المنصور، وتسليم ذلك هاشم بن جعفر، ولكن أخا حماد المسمى إبراهيم والذي كان مقيما مع باديس، انفصل عن الوفد الذي كان مقبلا على حماد وأسرع إلى أخيه، وزين له الخروج عن الحكم الزيري وإعلان العصيان على باديس ومحاربته إن اقتضى الأمر، مما يفسر أنّ انفصال حماد بن بلكين عن الدولة الزيرية كان مخططا له، وذلك ربما راجع إلى شخصية حماد وطموحه الشخصي للسلطة والانفصال و الاستقلال بالحكم، ولو كلف ذلك قتل الكثير من الأبرياء[١٧].

- دخول حماد مدينة باجة ثم انسحابه إلى أشير وتوجه باديس إلى القلعة: ثم يحدثنا ابن الأثير عن دخول حماد - بعد انتصاره على جيش عمه باديس- إلى مدينة باجة حيث قام -حسب الرواية - بالبطش والتنكيل بأهلها، لكنه ما لبث أن تراجع أمام الجيش الزيري الذي تولى قيادته باديس بنفسه، وانسحب إلى مدينة أشير للاحتماء بها، بينما توجه باديس بجيشه إلى مدينة المسيلة واستقبله أهلها بحفاوة، ومنها انتقل إلى مدينة القلعة ليقوم بتخريبها[١٨].

ويحدثنا ابن الأثير في هذا الصدد عن انضمام الكثير من جنود حماد الذين تركهم بالقلعة تحت قيادة أخيه إبراهيم - بقصد الدفاع عنها- إلى الجيش الزيري، وكيف انتقم إبراهيم هذا- حسب رواية ابن الأثير- من ذويهم بلا رحمة أو شفقة[١٩].

- معركة وادي شلف: وبعد ذلك ينتقل ابن الأثير لينقل إلينا وقائع معركة وادي شلف بالمغرب الأوسط في حوادث سنة ٤٠٦هـ، بين حماد وباديس وانهزام جيش حماد وانسحابه إلى القلعة، حيث أوشك أن يقع مكبلا في الأغلال خلال هذه المعركة، حيث قال:«وتقارب باديس وحماد والتقوا مستهل جمادى الأولى واقتتلوا أشد قتال وأعظمه، ووطن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لما كان حماد يفعله لمن يظفر به، واختلط الناس بعضهم ببعض وكثر القتل، ثم انهزم حماد وعسكره لا يلوي على شيء، وغنم عسكر باديس أثقاله وأمواله وفي جملة ما غنم منه عشرة آلاف درقة، ولولا اشتغال العسكر بالنهب لأخذ حماد أسيرا، وسار حتى وصل إلى قلعته تاسع جمادى الأولى»[٢٠].

ونشير هنا إلى أن ابن الأثير لم يذكر اسم هذه المعركة، ولا المكان الذي جرت فيه، وإنما ورد ذكرها بتفصيل أكثر عند ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب[٢١].

ثم ذكر ابن الأثير خلال عودة حماد إلى القلعة للتحصن بها، خروجه بعد ذلك إلى مدينة دكامة

القرية من المسيلة[٢٢] قصد التنكيل بأهلها، ولكن دون أن يذكر السبب وراء إحداث تلك المذبحة[٢٣].

- **اشتداد الحصار على حماد بالقلعة**: بعد انهزام حماد في شلف وتراجع الجيش الحمادي إلى القلعة للتحصن والاحتماء بها، تعقب جيش باديس فلول هذا الجيش، ووصل إلى القلعة ضاربا الحصار عليها لعدة أيام، وطال الحصار حتى اشتد ذلك على حماد وتوالت عليه المصائب[٢٤].

- **وفاة باديس وفك الحصار عن حماد**: كان من حسن حظ حماد بن بلكين، أن الظروف ساعدته في ذلك الوقت العصيب على تجاوز المحنة التي كانت، حيث فُكّ عنه الحصار، وكان ذلك بسبب وفاة الأمير الزيري باديس خلال الحصار وهو مقيم بمدينة المسيلة، فاضطر اثنين من قادة الجيش - وهما حبيب بن أبي سعيد و باديس بن أبي حمامة- إلى ترك خلافاتهما السابقة، واتخذا قرارا بمبايعة كرامة أخي باديس وليا للعهد بدل المعز بن باديس صاحب ولاية العهد، لأن ظروف الحرب تقتضي ذلك، حتى إذا ما انتهت الحرب بايعوه، وذلك قبل أن يعلم الجند بوفاته فتتفرق الكلمة، ويعلم حماد أيضا بالأمر فيساعده اختلاف الكلمة وتفرق الجيش على فك الحصار.

وقد تناول ابن الأثير خبر وفاة باديس وتأبينه، وكيفية مبايعة ابنه المعز بالتفصيل، وذكر ضمن هذا الحديث أن المعز بن باديس لما آل إليه الحكم، عمل على إعادة تقوية المذهب المالكي بالمغرب الأدنى بعد أن كان يغلب عليها المذهب الحنفي[٢٥].

- **معركة أشير و تجدد الصراع الزيري الحمادي**: وخلال سرد هذه الوقائع تطرق ابن الأثير أيضا إلى خروج حماد بعد أن فك عنه الحصار، متوجها نحو مدينة أشير لاسترجاعها، وكانت هذه المدينة قد دخلت تحت حكم الزيريين أثناء الحصار، حيث استولى عليها كرامة أخو باديس، وقد ذكر ابن الأثير أنه لما وصلها كرامة «اجتمع عليه قبائل صنهاجة وغيرهم»[٢٦]، فجاءه حماد في «ألف وخمسمائة فارس فتقدم إليه كرامة بسبعة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، فرجع بعض أصحاب كرامة إلى بيت المال فانتهبوه وهربوا، فتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، ووصل إلى مدينة أشير فأشار عليه قاضيها وأعيان أهلها بالمقام ومنع حماد عنها ففعل»[٢٧]، وذكر ابن الأثير أيضا أنه لما دخل حماد المدينة وحاصرها استدعى ابن أخيه كرامة للتفاوض معه حول تسليم المدينة مقابل إعطائه الأمان، ولكن لما خرج منها كرامة ودخلها حماد قام هذا الأخير بالتنكيل بأهلها، لكونهم أشاروا على كرامة بحكمها ورفض تسليمها لحماد «وقتل حماد من أهل أشير كثيرا حيث أشاروا على كرامة بحفظ البلد ومنع حماد منه»[٢٨]، أما كرامة فقد وصل «إلى المعز في المحرم هذه السنة (أي سنة ٤٠٧هـ) فأكرمه وأحسن إليه»[٢٩].

وضمن هذا الحديث ذكر ابن الأثير أن المعز ابن باديس خرج لمحاربة حماد بن بلكين في أواخر شهر صفر سنة ٤٠٨هـ [٣٠]، وكان من نتائج هذه المعركة أن «أسر إبراهيم أخو حماد ونجا حماد وقد أصابته جراحة وتفرق عنه أصحابه ورجع المعز»[٣١].

- تأسيس الدولة الحمادية سنة٤٠٨هـ: بعد هذه المعركة التي انهزم فيها حماد أمام الجيش الزيري رأى من مصلحة دولته الناشئة أن يهادن بني عمومته، و يصل رباط الود بينه وبين الأمير الزيري

المعز بن باديس، فأرسل برسالة إلى المعز معتذرا له عما بدر منه، ومقرا له بالخطأ راجيا عفوه[٣٢]، فأجابه المعز: «إن كنت على ما قلته فأرسل ولدك القائد إلينا، واستعمل المعز على جميع العرب المجاورة لإبراهيم عمه كرامة، فعاد جواب حماد أنه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهم أنه قد أخذ له عهد المعز بعث ولده القائد أو حضر هو بنفسه، فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعز وأرسل إليه يعرفه ذلك ويشكر المعز على إحسانه إليه»[٣٣].

وفي هذا الصدد ذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس رجع بعد ذلك إلى قصره بالمنصورية آخر جمادى الأولى سنة ٤٠٨ هـ، ولما وصل أطلق سراح عمه إبراهيم من الأسر «وخلع عليه وأعطاه الأموال والدواب وجميع ما يحتاج إليه، فلما وردت هذه الأخبار إلى حماد «أرسل ولده القائد إلى المعز وكان وصوله للنصف من شعبان فأكرمه وأعطاه شيئا كثيرا وأقطعه المسيلة وطبنة[٣٤] وغيرهما، وعاد إلى أبيه في شهر رمضان ورضي الصلح وحلف عليه، واستقرت الأمور بينهما وتصاهرا، وزوج المعز أخته بعبد الله بن حماد فازدادوا اتفاقا وأمنا»[٣٥].

وبهذا الاتفاق تكون الظروف قد تهيأت لحماد بن بلكين كي يوطد دعائم دولته الناشئة، حيث أصبح حاكما مستقلا على المغرب الأوسط، ليركن بعد ذلك إلى الهدوء نسبيا، وذلك بعد صراع مرير - مع بني عمومته الزيريين- راح ضحيته الكثيرون.

وبعد الحديث عن هذا الصراع الزيري الحمادي المرير، وانفصال حماد بن بلكين عن الدولة الزيرية، وتكوين دولة مستقلة هي الدولة الحمادية في المغرب الأوسط، يمكننا القول -حسب روايات ابن الأثير وغيره - أن حماد بن بلكين لما خامرته فكرة الانفصال عن الدولة الزيرية وعزم على ذلك، سيطر عليه شعور بإثبات الذات، حيث لم تأخذه رأفة أو شفقة بخصومه، وكل من اعترضوا طريقه، أو حتى ممن حدثتهم أنفسهم برفض الإنضمام إليه، دون أن يقوموا بذلك، وربما قد كلفه ذلك المنطق والشعور، إبادة قرى ومدن بأهلها، كما مر بنا خلال الحديث عن مجريات الحرب.

ثانيا: - الدولة الحمادية بعد وفاة حماد بن بلكين: بعد مدة من الصلح الزيري الحمادي والمصاهرة التي تمت بينهما واستقلال حماد بالمغرب الأوسط، توفي حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية حسب رواية ابن الأثير على إثر مرض أصابه وهو يقوم بنزهة خارج عاصمة ملكه، مع بعض خاصته في سنة ٤١٧هـ[٣٦]، فحمل على إثرها إلى القلعة ودفن بها[٣٧]، ووُلّيّ بعده إبنه القائد بن حماد، وذكر ابن الأثير أنه لما وصلت أنباء الوفاة إلى المعز «عظم على المعز موته لأن الأمر بينهما كان قد صلح واستقامت الأمور للمعز بعده وأذعن له أولاد عمه حماد بالطاعة»[٣٨].

ونفهم من عبارة ابن الأثير الأخيرة، أن الحماديين عادوا -مجددا- بعد وفاة حماد للانضواء تحت الدولة الزيرية، ويؤيد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن الأثير نفسه في موضع آخر ضمن حوادث سنة ٤٣٢هـ، حيث ذكر تجدد الصراع الحمادي الزيري بعد خلع الحماديين طاعتهم للمعز، مما استدعى المعز بن باديس القيام بحملة إلى القلعة وضرب عليها الحصار مجددا لمدة سنتين تقريبا[٣٩].

وفيما يتعلق بالحوادث السياسية والعسكرية في عهد القائد بن حماد فإن ابن الأثير لم يتحدث عنها إطلاقا، سوى ما ذكر عن وفاة القائد في

سنة ٤٤٦هـ، ووصيته لابنه المحسن قبيل الوفاة بالإحسان إلى عمومته، ومخالفة المحسن لهذه الوصية، مما تسبّب في مقتله من طرف بلكين بن محمد بن حماد وانتقال لسلطة إلى هذا الأخير في نفس السنة[١٠].

ثالثا: الغزو الهلالي لإفريقية (تونس) وموقف الحماديين منه:

أرجع ابن الأثير سبب دخول أعراب بني هلال سنة ٤٤٢هـ إلى إفريقية (تونس)، إلى الوزير الفاطمي أبو محمد الحسن بن علي اليازوري الذي حنق كثيرا على المعز ابن باديس لما أظهر ولاءه للخلافة العباسية وخلع طاعة العبيديين، ولما كان يُبيّته هذا الوزير من حقد دفين للمعز بن باديس، لأن المعز كان يحتقره، ولم يخاطبه بلقب الوزارة كسابقيه، أو بالألقاب التشريفية الدالة على الولاء له، وإنما خاطبه بمهنته السابقة قبل أن يصبح وزيرا، فبيّت اليازوري الانتقام من المعز، وقد ذكر ابن الأثير ذلك في حوادث سنة ٤٤٢هـ[١١].

فشرع الفاطميون على إثرها « في إرسال العرب إلى الغرب فأصلحوا بني زغبة ورياح وكان بينهم حروب وحقود، وأعطوهم مالا وأمروهم بقصد بلاد القيروان وملكوهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والعدد ؛ فدخلت العرب إلى إفريقية وكتب اليازوري إلى المعز أما بعد: « فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا وحملنا عليها رجالا وكهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا»[١٢].

ويذكر ابن الأثير أن المعز لما بلغته أنباء الزحف الهلالي على أراضي دولته استهان بالأمر معتمدا على فرق العبيد فقط، والبالغ عددهم ثلاثون ألف مقاتل فقط، لأن الجيش الصنهاجي خذله من قبل في كثير من المواقف مع زناتة، فكان من غير المستبعد أن يخذله في حربه مع الهلاليين[١٣].

ونلاحظ -حسب رواية ابن الأثير- أن القبائل الهلالية اكتسحت المغرب الإسلامي بدءا من برقة بسرعة خاطفة لا تمر على شيء إلا وجعلته قاعا صفصفا، حتى وطئت حوافر خيولهم الأراضي التونسية، ولما أرادوا دخول القيروان قال لهم: «مؤنس بن يحيى المرداسي ليس المبادرة عندي برأي، فقالوا: كيف تحب أن تصنع فأخذ بساطا فبسطه ثم قال من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه قالوا: لانقدر على ذلك قال: فهكذا القيروان خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ فقالوا: إنك لشيخ العرب وأميرها، أنت المقدم علينا ولسنا نقطع أمرا دونك»[١٤].

ولما دخل أعراب بني هلال إفريقية أراد المعز أن يصطنعهم ويعزز بهم جيشه كما فعل أباطرة الرومان مع القبائل الجرمانية وخلفاء بني العباس مع الديلم والأتراك[١٥]، ولكن الهلاليين جاؤوا إلى المغرب للتمتع بالسلطة لا ليكونوا في خدمة الغير، لكن سرعان ما اتضح أن الاتفاق بينهم وبين الأمير الزيري مستحيل، فقرر المعز مواجهتهم بالقوة ليوقفهم عند حدهم فكانت الدائرة عليه[١٦]، وذلك في معركة حيدران[١٧].

وبعد هذه الحرب المنهكة حاصر الهلاليون مدينة القيروان، واستولى مؤنس بن يحيى على مدينة باجة، وفي هذه الظروف العصيبة التي ألمت بالجيش الزيري الذي عجز في الدفاع عن القيروان «أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب[١٨]»، فدخلت القبائل الهلالية مدينة القيروان وشرعت -حسب رواية ابن الأثير- « في هدم الحصون والقصور، وقطعوا

الثمار وخربوا الأنهار، وأقام المعز والناس ينتقلون إلى المهدية إلى سنة تسع وأربعين، فعندما انتقل المعز إلى المهدية في شعبان فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه، وكان أبوه قد ولاه المهدية سنة خمس وأربعين، فأقام بها إلى أن قدم أبوه الآن، وفي رمضان من سنة تسع وأربعين نهبت العرب القيروان، وفي سنة خمسين خرج بلكين ومعه من العرب لحرب زناتة فقاتلهم فانهزمت زناتة وقتل منها عدد كثير»[٤٩].

وبهذه الطريقة والصورة تم دخول قبائل بني هلال إلى القيروان واستباحوها، بعد أن تخاذلت قبيلتا صنهاجة وزناتة عن نصرة الأمير الزيري، ووجهت له طعنة في الظهر، وبعد ذلك انساحت القبائل الهلالية في الأراضي التونسية، واستولوا على الكثير من الضياع والقرى والمدن، وراحوا يقتسمون الغنائم والسبي، وكل وما وصلت إليه أيديهم فيما بينهم[٥٠]، وبدأوا يتقدمون رويدا رويدا حتى وصلوا إلى حدود الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

- **موقف الحماديين من الغزو الهلالي:** وفيما يخص موقف الحماديين من هذه الحوادث، فإن ابن الأثير لم يقدم لنا أي خبر عن الأحداث التي جرت في المغرب الأوسط أثناء حديثه عن الزحف الهلالي على إفريقية (تونس)، خاصة فيما يتعلق بموقف القائد بن حماد من معركة حيدران، لكن ذكر في حوادث سنة ٤٥٧هـ، أن القائد بن حماد كان «يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه من ذلك فلما رأى القائد قوة العرب وما نال المعز منهم خلع الطاعة»[٥١]، ونفهم من قول ابن الأثير هذا أن القائد كان مظهرا الولاء و الطاعة للمعز فلمّا قامت هذه الحرب استبشر خيرا بذلك وأعلن العصيان.

أما ابن خلدون، فقد ذكر عند الحديث في تاريخ القبائل العربية أن المعز: «بعث بالصريخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حماد بن بلكين، فكتب إليه بكتيبة من ألف فارس سرحهم إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من قومه». ثم أردف قائلا: «وارتحل المعز في أولئك النفر ومن لف لفهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالتهم من بقايا عرب الفتح وحشد زناتة والبربر، وصمد نحوهم في أمم لا تحصى يناهز عددهم فيما ذكر ثلاثين ألفا» إلى أن يقول: «ولما تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة، وخانته زناتة وصنهاجة، وكانت الهزيمة على المعز، وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان.»[٥٢]

وهنا نجد أنفسنا أمام روايتين متناقضتين لا تسمح لنا بالضبط معرفة موقف الحماديين من الغزو الهلالي لأراضي الدولة الزيرية، ولكننا نرجح رواية ابن الأثير، للدلائل التاريخية التي ذكرها حول قيام الدولة الحمادية، والعلاقات الحمادية الزيرية منذ عهد حماد وباديس، لأن بني حماد ظنوا في البداية أن الأهوال والمصائب التي لحقت بني عمومتهم ستفيدهم، فعاد القائد بن حماد إلى الدعوة الفاطمية الشيعية، عندما دعا المعز للدولة العباسية السنية اعتقادا منه أن بني هلال سيقفون عند حدود إمارته[٥٣]، وكذلك الأخبار التي ذكرها ابن الأثير حول تحالف تميم بن المعز مع الهلاليين للإيقاع بالناصر بن علناس، وسيتضح هذا عند ذكر الغزو الهلالي للمغرب الأوسط.

رابعا: الغزو الهلالي للمغرب الأوسط ومعركة سبيبة ٤٥٧هـ: بعد وفاة الأمير الحمادي القائد ابن حماد سنة ٤٤٧هـ انقسم البيت الحمادي على

نفسه ووصل الحكم الناصر بن علناس بن حماد ٤٥١-٤٨١هـ، فارتكب خطأ قاتلا بتحالفه مع قبيلتي الأثبج وعدي ضد رياح وزغبة وسليم لكن انهزم حلفاؤه وانهزم معهم في معركة سبيبة سنة ٤٥٧هـ، فسمح مرغما لقبائل الأثبج بعد طردهم من تونس ان يستوطنوا منطقة قسنطينة و بالطبع حصل له ما حصل للمعز بن باديس قبله، فاضطر هو الآخر إلى مغادرة القلعة والانحياز إلى الشاطئ(٥٤).

وقد ذكر ابن الأثير ضمن حوادث سنة٤٥٧هـ، الغزو الهلالي للمغرب الأوسط بعد أن مهد له بذكر الأسباب الداعية إلى ذلك، والتي أعانت على هذا الأمر، وهذه الرواية التي أوردها ابن الأثير(٥٥)، تلقي الأضواء على الأسباب الرئيسية للغزو الهلالي للمغرب الأوسط، حيث نرى أن تميم بن المعز هو الذي شجع الهلاليين على غزو المغرب الأوسط وأعانهم بالمال والسلاح، ربما انتقاما من الحماديين الذين لم يحركوا ساكنا أثناء حربهم مع الهلاليين، ولو تحالف الحماديون مع الزيريين منذ البداية لكان بالإمكان وقف الزحف الهلالي على المغرب ولكن لله في خلقه شؤون والأيام دول، ويمكن تشبيه العلاقات بين الحماديين والزيريين في المغرب بالعلاقات التي كانت بين الملوك الطوائف في وقت كان النصارى يتحالفون وتزداد قوتهم، والنورمان القادمون من شمال أوربا يتوسعون في غرب المتوسط، مستفيدين من تطاحن الدويلات الإسلامية في المغرب(٥٦).

خامسا: تجديد بناء مدينة بجاية وسببه(٥٧):

ضمن حوادث سنة ٤٥٧هـ ذكر ابن الأثير تأسيس الناصر بن علناس لمدينة بجاية، وذلك بعد أن ذكر معركة سبيبة - قرب تونس -، وأرجع ابن الأثير سبب إعادة تجديد بناء مدينة بجاية إلى موقعها الاستراتيجي المنفتح على البحر، يضاف إلى ذلك الأسباب التوسعية التي انتهجتها الدولة الحمادية على حساب الدولة الزيرية، لكون بجاية قريبة من جهة البحر من المهدية عاصمة تلك الدولة، ولا يخفى على أي دارس أن المدن عبر التاريخ كانت تتخذ عواصم لعدة أسباب من جملتها وأهمها الموقع الاستراتيجي للمدينة، وقد ذكر ابن الأثير أن الذي أشار على الناصر ببناء مدينة بجاية رجل يدعى محمد بن البعبع، وهو الشخص الذي أرسله الأمير تميم بن المعز الزيري إلى الناصر بن علناس بقصد إصلاح ذات البين، وإيقاف الحرب الضروس التي كانت بينهما، فخان هذا الشخص أميره، وأشار على الأمير الحمادي الناصر بن علناس بتغيير العاصمة إلى بجاية حتى يسهل عليه غزو المهدية - عاصمة الزيريين - عن طريق البحر.

ونحن هنا نورد رواية ابن الأثير بكاملها لأهميتها، حيث ذكر ابن الأثير هذه الحادثة قائلا: « لما كانت هذه الوقعة بين بني حماد والعرب وقويت العرب فاهتم تميم بن المعز لذلك وأصابه حزن شديد، فبلغ ذلك الناصر وكان له وزير اسمه أبو بكر بن أبي الفتوح، وكان رجلا جيدا يحب الاتفاق بينهم ويهوى دولة تميم، فقال للناصر: ألم أشر عليك أن لا تقصد ابن عمك وأن تتفقوا على العرب [يقصد بنو هلال] فإنكما لو اتفقتما لأخرجتما العرب؟ فقال الناصر: لقد صدقت ولكن لا مرد لما قُدِّر، فأصلح ذات بيننا.

فأرسل الوزير رسولا من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح، فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولا إلى الناصر فاستشار أصحابه فاجتمع رأيهم على محمد بن البعبع، وقالوا له: هذا رجل

غريب وقد أحسنت إليه وحصل له منك الأموال والأملاك، فأحضره وأعطاه مالا ودواب وعبيدا، وأرسله فسار مع الرسول حتى وصل إلى الناصر.

فلما أوصل الكتاب وأدى الرسالة قال للناصر: معي وصية إليك وأحب أن تخليّ المجلس فقال الناصر: أنا لا أخفي عن وزيري شيئا، فقال: بهذا أمرني الأمير تميم، فقام الوزير أبو بكر وانصرف.

فلما خرج قال الرسول: يا مولاي إن الوزير مخامر عليك هواه مع الأمير تميم لا يُخفي عنه من أمورك شيئا وتميم مشغول مع عبيده، قد استبد بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلت بعسكرك ما بت إلا فيها لبغض الجند والرعية لتميم، وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، **وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية**، وقال له: أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك، فأجابه الناصر إلى ذلك وارتاب بوزيره، وسار مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة.

فلما وصل الناصر والرسول إلى بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل، وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ورجعا إلى القلعة فقال الناصر لوزيره: إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا، فاكتب له جواب كتبه فضل.

وسار الرسول وقد ارتاب به تميم حيث تجدد بناء بجاية عقيب مسيره إليهم وحضوره مع الناصر فيها، وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولا يثق به فكتب معه إنني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية، وقد عظم أمرها عليه واتهمني فانظر إلى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا، فإني سائر إليهم مسرعا، وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك، وسير الكتاب فلما قرأه الناصر سلمه إلى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكره وأثنى عليه، وقال لقد نصح وبالغ في الخدمة فلا تؤخر عنه إنفاذ العرب ليحضر معهم.

ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم وكتابا منه يذكر له الحال من أوله إلى آخره، فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك، وبقي يتوقع له سببا يأخذه به إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر.

فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أن الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه فأحضره تميم فقال: كنت واصلا إليك وحدثه أن البعبع الرسول دعاني فلما حضرت عنده قال: أنا في ذمامك أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهدية فمنعته، وهو خائف فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره بإحضاره فأحضره الشريف.

فلما وصل إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتب منه فإذا عنوان أحدها من الناصر بن علناس إلى فلان فقال له تميم: من أين هذه الكتب فسكت فأخذها وقرأها، فقال الرسول ابن البعبع العفو يا مولانا فقال: لا عفا الله عنك وأمر به فقتل وغرقت جثته[٥٨].

إذن فمن خلال ما ذكره ابن الأثير نرى أن تجديد بناء مدينة بجاية كان بسبب موقعها الاستراتيجي على ساحل البحر المتوسط، ولأسباب توسعية أيضا استدعت نقل العاصمة إلى بجاية، بعد أصبحت القلعة لا تفي بذلك الغرض وتراجعت مواردها، ولكن الكثير من الباحثين جعلوا السبب الرئيسي لانتقال الناصر بن علناس إلى بجاية بعد بنائها سنة ٤٦٠هـ، ثم الانتقال إليها في السنة الموالية، هجمات أعراب بني هلال المتتالية على القلعة بدعم من الأمير الزيري تميم بن المعز، مما أزعج الناصر بن علناس، وجعله يفكر في بناء مدينة حصينة لا تصل إليها حوافر خيل الهلاليين،مغفلين الموقع الجغرافي الاستراتيجي لمدينة بجاية والأغراض التوسعية للناصر بن علناس على حساب الزيريين، ولعل ذلك بسبب اعتمادهم على رواية ابن خلدون في العبر، مهملين رواية ابن الأثير[٥٩].

ونحن هنا لا ننكر ما سببته هجمات الهلاليين التخريبية من إزعاج للناصر بن علناس في عاصمته بالقلعة، لكننا نرى بعد قراءتنا المتفحصة للرواية التي أوردها ابن الأثير وللملابسات التاريخية المحيطة بضرورة تغيير عاصمة الدولة، أن تجديد بناء بجاية من طرف الناصر بن علناس كان لأسباب توسعية واستراتيجية، وليس كما وصفته رواية ابن خلدون[٦٠]، ويؤيد ما ذهبنا إليه من ترجيح رواية ابن الأثير ما ذكره أيضا ياقوت الحموي- وهو معاصر لابن الأثير- في معجم البلدان حول أسباب بناء مدينة بجاية حيث ذكر نفس السبب الذي ذهب إليه ابن الأثير، وذلك بنوع من الاختصار[٦١].

زيادة إلى أن الانتقال إلى بجاية كان على مراحل ولم يتم دفعة واحدة، ولو تخربت القلعة بالكامل على أيدي الهلاليين لتم الانتقال بسرعة، كما حصل مع المعز عندما انتقل إلى المهدية بعد خراب القيروان، كما نوضح في هذا الصدد للحقيقة التاريخية،أن مدينة القلعة برغم انتقال السلطة الحمادية منها إلى مدينة بجاية، إلا أنها بقيت مركز إشعاع حضاري لفترة طويلة إلى أن دخلتها جيوش الموحدين سنة ٥٤٧هـ بقيادة عبد المؤمن بن علي ونهبت ما فيها[٦٢].

وختاما لهذه للدراسة، نرى أن المعلومات التي أوردها ابن الأثير في الكامل عن التاريخ السياسي للدولة الحمادية خاصة، والمغرب الإسلامي بصفة عامة جد مُهِمَّة، خصوصا أن معلومات ابن الأثير تعد من أقدم ما وصل إلينا من معلومات حول تاريخ المغرب في هذا العهد بالذات، وهذا لا يعني الإنقاص من قيمة المصادر المغربية وما فيها من معلومات وفيرة وقيمة معا[٦٣].

الحواشي:

١- القلعة: وتسمى قلعة أبي طويل، أوقلعة بني حماد، وتسمية القلعة في العصور الإسلامية الوسيطة، تعني المكان الحصين أو المكان الحربي الذي يصلح لحماية الدولة، والقلعة المذكورة مدينة حصينة تقع على جبل عجيسة وهو جبل عظيم ضمن سلسلة جبال الحضنة بالجزائر، يمتاز هذا الجبل بمناعته حيث بنى حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية على قمته التي تسمى تقربوست حصنا يطل على سهل أو شط الحضنة بمدينة المسيلة، وكان بناء القلعة من أجل التدعيم المادي والعسكري والسياسي لاستقلال دولته، حيث كان حماد يبحث عن مكان حصين يحمي من خلاله دولته الناشئة، وقد بقيت القلعة عاصمة للدولة الحمادية واستبحرت في العمران، كما لازدهرت من جميع النواحي الاقتصادية والثقافية، حيث توافد عليها التجار والحرفيون، وأهل العلم من النواحي المجاورة،حتى أصبحت قطبا اقتصاديا هاما في المنطقة آنذاك، ومسلكا تجاريا تسلكه القوافل التجارية، ومركز إشعاع

حضاري، إلى أن نقل الحاكم الحمادي الناصر بن علناس عاصمة الحماديين إلى بجاية سنة ٤٦٠هـ. ويسمى مكان القلعة حاليا بمدينة المعاضيد التي تقع شمال شرقي مدينة المسيلة بالجزائر على بعد حوالي ٤٠كم ، للتوسع حول تاريخ القلعة وموقعها الجغرافي حضارتها و آثارها انظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٥، ج ٤، ص٣٨٩ -٣٩٠؛ أبو عبيد البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر ،د.ت،ص٥٩؛ محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس،مكتبة لبنان، بيروت،لبنان،ط٢،١٩٨٤،ص٤٦٩؛ رشيد بورويبة: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية - المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر ط ١٩٧٧؛ عبد الحليم عويس: **دولة بني حماد صفحة رائعة في التاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنشر والتوزيع،القاهرة مصر، ط٢، ١٩٩١، ص٨٩-٩٩.

٢- **ابن الأثير**: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بعز الدين ، ولد ابن الأثير بإقليم الجزيرة الفراتية المعروفة بجزيرة ابني عمر سنة ٥٥٥هـ وتوفي سنة ٦٣٠هـ بمدينة الموصل.

ولقد كان ابن الأثير إماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيرا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم - كما ذكر تلميذه ابن خلكان -. وقد ألف ابن الأثير العديد من الكتب في التاريخ أهمها: الكامل في التاريخ وهو من التواريخ الشاملة، وكتاب الباهر في الدولة الأتابكية، وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب، اختصر فيه كتاب الأنساب للسمعاني، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة. انظر ترجمته في: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار الثقافة، بيروت لبنان، د.ت، ج٣ص٣٤٨ وما بعدها؛ مجموعة من المؤلفين: **موسوعة أعلام الفكر الإسلامي** تحت إشراف وتقديم: محمود حمدي زقزوق، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط١٩٩٤م، ص٣٦.

٣- تعددت طبعات الكامل في التاريخ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة المطبوعة بدار الكتاب العربي ببيروت.

٤- مجموعة من المؤلفين: موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، ص ٣٦.

٥- عبد العزيز فيلالي: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط٢، ١٩٩٩ ص٢٣.

٦- انظر: السيد عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص٧٩.

٧- أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ،،عز الدين ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب لعربي، بيروت، لبنان، ط ٦، د ت، ج٧،ص ٤٥.

٨- نفس المصدر، نفس الموضع.

٩- **أشير**: مدينة تقع في المغرب الأوسط كان أول من بناها - حسب ياقوت الحموي- زيري بن مناد الصنهاجي سنة ٣٢٤هـ وعمل على جبلها حصنا مانعا فقصدها الناس للأمن والسلامة فصارت مدينة مشهورة، ثم استولى عليها بنو حماد فيما بعد واتخذوها عاصمة لملكهم قبل الانتقال إلى القلعة واستولوا على جميع النواحي المجاورة لها خلال الصراع مع الزيريين، وأطلالها باقية إلى يومنا هذا بالقرب من مدينة عين بوسيف بولاية المدية بالجزائر، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣ .

١٠- ابن الأثير، نفس المصدر، ج٧، ص٤٧.

١١- نفس المصدر، ج٧ص ١٢١.

١٢- نفس المصدر،ج٧، ص١٢٨.

١٣- نفس المصدر، ج٧ص ١٣٣.

١٤- نفس المصدر، ج٧ص ١٤١ .

١٥- نفس المصدر، ج٧، ص١٨٢، قال ابن الأثير: «وفيها استعمل باديس عمه حماد بن يوسف بلكين على أشير وأقطعه إياها، وأعطاه من الخيل والسلاح والعدد شيئا كثيرا فخرج إليها».

١٦- نفس المصدر، ج٧، ص ١٩٩.

١٧- نفس المصدر، ج٧، ص ٢٧٦ ،يقول ابن الأثير بصدد ذكر

هذه الحرب: «فسارا إلى أن قارب حمادا ففارق إبراهيم هاشما وتقدم إلى أخيه حماد. فلما وصل إليه حسن له الخلاف على باديس ووافقه على ذلك وخلعا الطاعة وأظهرا العصيان، وجمعا الجموع الكثيرة فكانوا ثلاثين ألف مقاتل. فبلغ ذلك باديس فجمع عساكره وسار إليهما، ورحل حماد وأخوه إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذي معه – وهو بقلعة شقنبارية – فكان بينهم حرب انهزم ابن جعفر ولجأ إلى باجة وغنم حماد ماله وعدده، فرحل باديس على مكان يسمى قبر الشهيد فأتاه جمع كثير من عسكر عمه حماد، ووصلت كتب حماد وإبراهيم إلى باديس أنهما ما فارقا الجماعة ولا خرجا عن الطاعة فكذبهما ما ظهر من أفعالهما من سفك الدماء وقتل الأطفال، واحراق الزروع والمساكن وسبي النساء».

١٨- نفس المصدر، ج٧، ص٢٧٦-٢٧٧.

١٩- نفس المصدر، ج٧، ص٢٧٧، يقول ابن الأثير في هذا الصدد: «وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من جند القلعة التي له، وفيها أخوه إبراهيم، فأخذ إبراهيم أبناءهم وذبحهم على صدور أمهاتهم فقيل: إنه ذبح بيده ستين طفلا فلما فرغ من الأطفال قتل الأمهات».

٢٠- نفس المصدر، نفس الموضع.

٢١- انظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١٩٥٠، ج١، ص٢٨٠-٢٨١، وقد ذكر ابن عذارى في هذا الصدد حديثه عن المعركة أن الناس أخذوا: «من الأموال والغنائم ما لا يحصى عددا وكثرة ووجد رقعتان فيهما: أن الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمئة، ومن الورق ألف ألف وخمسمئة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقا، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه»، ج١، ص٢٨٠.

٢٢- دكامة: وتسمى دكمة بفتح الأول وسكون ثانيه، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

٢٣- ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٧، حيث قال: «وجاء إلى مدينة دكمة [هكذا] فتجنى على أهلها فوضع السيف فيهم فقتل ثلاثمئة رجل، فخرج إليه فقيه منها وقال له: يا حماد إذا لقيت الجيوش انهزمت وإذا قادمتك الجموع فررت، وإنما قدرتك وسلطانك على أسير لا قدرة له عليك فتقتله، وحمل جميع ما في المدينة من طعام وملح وذخيرة إلى القلعة التي له». وللمقارنة فقد ذكر ابن عذارى المراكشي بتفصيل أكثر سبب نهب حماد لمدينة دكامة وانتقامه من أهلها وقتله لثلاثمائة رجل، وأنه نقم عليهم بسبب ميلهم إلى باديس من جهة، ومن جهة أخرى لنقص المؤونة بالقلعة، حيث ذكر ابن عذارى أنّ حمادا «لما وصل إلى قلعته تحصن فيها مع أخيه إبراهيم فأقاما بها ثلاثة أيام حتى استراحا وأراحا دوابهما ومن كان معهما، فعرفه أخوه إبراهيم بحاجته إلى الازدياد من الطعام والملح»، ج١، ص ٢٨١، فخرج حماد مع أخيه إلى دكامة وهي على بعد مرحلتين من المسيلة «فلما وصلها تصايح أهل الموضع بسلاته، فاعترضهم بالسيف وقتل منهم ثلاثمئة رجل»، ج١، ص ٢٨٤؛ وذكر ابن عذارى أيضا، أن رجلا صالحا وعظ حماد ونهاه عن أفعاله تلك قائلا له: «يا حماد اتق الله، فإني حججت حجتين. فقال له حماد: أنا أزيدك عليهما الشهادة وأمر به فضربت عنقه» ج١، ص٢٨٤، كما ذكر أيضا أن جماعة من التجار العابري السبيل كانوا متواجدين بمدينة دكامة أثناء الغزو وطلبوا الأمان من حماد قائلين له: «نحن قوم غرباء، لا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك. فقال لهم اجتمعوا وأعرفكم، فاجتمعوا ودخل معهم غيرهم ممن طمع في الخلاص معهم، فلما وصلوا إليه أمر بهم فضربت رقابهم أجمعين» ج١، ص٢٨٤.

٢٤- ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٧، ويحدثنا ابن الأثير عن ذلك قائلا: «وسار باديس خلفه وعزم على المقام بناحيته وأمر بالبناء وبذل الأموال لرجاله، فاشتد ذلك على حماد وأنكر رجاله، وضعفت نفسه، وتفرق منه أصحابه، ثم مات وَرّو بن سعيد الزناتي المتغلب على ناحية طرابلس واختلفت كلمة زناتة، فمالت فرقة مع أخيه خزرون وفرقة مع ابن وَرّو فاشتد ذلك أيضا على حماد وكان يطمع أن زناتة تغلب على بعض البلاد فيضطر باديس إلى الحركة إليهم».

٢٥- نفس المصدر، ج ٧، ص٢٧٧- ٢٧٨، ذكر ابن الأثير كل ذلك بتفصيل قائلا: «لما كان يوم الثلاثاء سلخ ذي القعدة سنة ست وأربعمائة أمر باديس بعرض العساكر فرأى ما سره، وركب آخر النهار ونزل ومعه جماعة من أصحابه ففارقوه إلى خيامهم فلما كان منتصف الليل توفي، وخرج الخادم في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد و باديس بن أبي حمامة، وأيوب بن يطوفت – وهم أكبر

قواده - فأعلمهم بوفاته وكان بين حبيب وباديس بن حمامة عداوة فخرج حبيب مسرعا إلى باديس، وخرج باديس إليه أيضا فالتقيا في الطريق فقال كل واحد منهما لصاحبه، قد عرفت الذي بيننا والأولى أن نتفق على إصلاح هذا الخلل، فإذا انقضى رجعنا إلى المنافسة، فاجتمعا مع أيوب وقالوا: إن العدو قريب منا وصاحبنا بعيد منا ومتى لم نقدم رأسا نرجع إليه في أمورنا لم نأمن العدو ونحن نعلم ميل صنهاجة إلى المعز، وغيرهم إلى كرامت [هكذا] بن المنصور أخي باديس، فاجتمعوا على تولية كرامت ظاهرا فإذا وصلوا إلى موضع الأمن ولوا المعز بن باديس وينقطع الشر، فأحضروا كرامت وبايعوه وولوه في الحال وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر خبر من ذلك وعزموا أن يقولوا للناس بكرة: إن باديس قد شرب دواء، فلما أصبحوا أغلق أهل مدينة المحمدية أبوابها وكأنما نودي فيهم بموت باديس فشاع الخبر، وخاف الناس خوفا عظيما واضطربوا لموته وأظهروا ولاية كرامت، فلما رأى ذلك عبيد باديس ومن معهم أنكروه، فخلا حبيب بأكابرهم وعرفهم الحال فسكتوا ؛ ومضى كرامت إلى مدينة أشير ليجمع صنهاجة وتلكاتة وغيرهم وأعطوهم من الخزائن مائة ألف دينار، وأما المعز فإنه كان عمره ثمان سنين وستة أشهر وأياما تقريبا، لأن مولده كان في جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، ولما وصل إليه خبر أبيه أجلسه من عنده للعزاء ثم ركب في الموكب وبايعه الناس فكان يركب كل يوم ويطعم الناس كل يوم بين يديه، وأما العساكر فإنهم رحلوا من مدينة المحمدية إلى المعز، وجعلوا باديس في تابوت بين يدي العسكر والطبول والبنود على رأسه والعساكر تتبعه ميمنة وميسرة، وكان وصولهم إلى المنصورية رابع محرم سنة سبع وأربعمائة، ووصلوا إلى المهدية والمعز بها ثامن المحرم فركب المعز ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرفه بقوادهم وأكابرهم فرحل المعز من المهدية فوصل إلى المنصورية منتصف المحرم، وهذا المعز أول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة».

٢٦- نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٧٨.

٢٧- نفس المصدر، نفس الموضع .

٢٨- نفسه.

٢٩- نفسه.

٣٠- نفسه .

٣١- نفسه ، ونشير هنا إلى أن ابن الأثير لم يذكر- في حوادث هذه السنة - الأحداث التي كانت تجري في تونس آنذاك مما استدعى المعز بن باديس للإيقاف الحرب مع حماد، ولعل ظروف توليته للحكم هي التي جعلته يتوقف عنها، إضافة إلى إعلانه منذ توليه الحكم، المذهب السني المالكي مذهبا رسميا للدولة وتنكيله بالشيعة، حيث ذكر ابن خلدون أن المعز بن باديس كان: «منحرفا عن الرافضة ومنتحلا السنة، فأعلى بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار إلى قتل من وجد منهم»، انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٢، ج٦، ص١٨٧ .

٣٢- ابن الأثير، نفس المصدر، ج٧، ص٢٧٨.

٣٣- نفس المصدر، نفس الموضع.

٣٤- طبنة: مدينة بالمغرب الأوسط تقع على ضفة الزاب، قال عنها ياقوت الحموي ليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها، وتقع الآن بالجزائر بالقرب من مدينة بريكة بأرض الأوراس- باتنة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢١.

٣٥- نفس المصدر، ج٧، ص٢٧٩، ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد أن حمادا قد استقل بعد -هذه المفاوضات- «بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتهارت، وما يفتح من بلاد الغرب، عقد المعز للقائد بن حماد على طبنة ومرسى الدجاج وبلاد زواوة ودكامة وبلزمة وسوق حمزة». ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص١٨٧ .

٣٦- ذكر ابن خلدون أن وفاة حماد كانت في سنة ٤١٩هـ. المصدر السابق، ج٦،ص٢٠٢.

٣٧- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧،ص٢٢٦.

٣٨- نفس المصدر، نفس الموضع.

٣٩- نفس المصدر،ج٨،ص٢٩، ذكر ابن الأثير ذلك قائلا: «في هذه السنة خالف أولاد حماد على المعز بن باديس صاحب إفريقية وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه فسار إليهم المعز وجمع العساكر وحشدها وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة حماد وضيق عليهم وأقام عليهم نحو سنتين»، وذكر ابن خلدون خروج المعز بن

باديس إلى القلعة كان سنة ٤٢٤هـ،و أن القائد بن حماد «راجع طاعة العبيديين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة». المصدر السابق، ج٦،ص٢٠٢.

٤٠- ابن الأثير، نفس المصدر،ج٨،ص٦٨. قال ابن الأثير: «في هذه السنة في رجب توفي القائد بن حماد وأوصى إلى ولده محسن وأوصاه بالاحسان إلى عمومته فلما مات خالف ما أمره وأراد عزل جميعهم، فلما سمع عمه يوسف ابن حماد بما عزم عليه خالفه، وجمع جمعا عظيما وبنى قلعة في جبل منيع وسماها الطيارة، ثم إن محسنا قتل من عمومته أربعة فازداد يوسف نفورا وكان ابن عمه بلكين بن محمد في بلده أفريون فكتب إليه محسن يستدعيه فسار إليه فلما قرب منه أمر محسن رجالا من العرب أن يقتلوه فلما خرجوا قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: إن بلكين لم يزل محسنا إلينا فكيف نقتله فأعلموه ما أمرهم به محسن فخاف، فقال له خليفة: لا تخف وإن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك، فاستعد بلكين لقتاله وسار إليه، فلما علم محسن بذلك وكان قد فارق القلعة عاد هاربا إليها فأدركه بلكين فقتله وملك القلعة وولي الأمر وكان ملكه القلعة سنة سبع وأربعين وأربعمائة».

٤١- ابن الأثير، نفس المصدر، ج٨،ص٥٥، حيث قال: «في هذه السنة دخلت العرب إفريقية، وسبب ذلك أن المعز ابن باديس كان خطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسي، وقطع خطبة المستنصر العلوي صاحب مصر سنة أربعين وأربعمائة فلما فعل ذلك كتب إليه المستنصر العلوي يتهدده فأغلظ المعز في الجواب، ثم أن المستنصر استوزر الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة، إنما كان من أهل التباذة والفلاحة، فلم = = يخاطبه المعز كما كان يخاطب من قبله من الوزراء كان يخاطبهم بعبده، فخاطب اليازوري بصنيعته فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع إلى ما يحب، فأكثر الوقيعة في المعز وأغرى به المستنصر». وأرجع ابن خلدون الزحف الهلالي على المغرب الإسلامي إلى نفس السبب الذي ذكره ابن الأثير، أنظر: ابن خلدون، كتاب العبر، ج٦،ص١٧.

٤٢- ابن الأثير، نفس المصدر، نفس الموضع، ذكر ابن خلدون أن هذا الزحف كان في سنة٤٤١هـ، نفس المصدر،ج٦،ص١٧، لكن نرى الأصح ما ذكره ابن الأثير.

٤٣- نفس المصدر، نفس الموضع.

٤٤- نفس المصدر، ج٨،ص٥٦.

٤٥- عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب** (المغرب في عهد الوحدة والسيطرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط٢، ٢٠٠٠، ص٩٨ .

٤٦- نفس المرجع، نفس الموضع .

٤٧- ويصف ابن الأثير وقائع معركة حيدران بقوله: «ثم قدم أمراء العرب على المعز فأكرمهم وبذل لهم شيئا كثيرا، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان إليهم بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذ احتفل المعز وجمع عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس، فلما رأت العرب صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم، فقال مؤنس بن يحي: ما هذا يوم فرار، فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكاذغندات والمغافر؟ قال: في أعينهم فسمي ذلك اليوم يوم العين والتحم القتال واشتدت الحرب فاتفقت صنهاجة على الهزيمة وترك المعز مع العبيد حتى ترى فعلهم ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز فكثر القتل فيهم، قتل منهم خلق كثير وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك واستمرت الهزيمة، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة ودخل المعز القيروان مهزوما على كثرة من معه وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره، وفيه يقول بعض الشعراء:

وإن ابن باديس لا فضل مالك
ولكن لعمري ما لديه رجالُ
ثلاثون ألفا منهم غلبتهم
ثلاث آلاف إنَّ ذا لمحالُ

ولما كان يوم النحر من هذه السنة [أي سنة٤٤٢هـ] جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس وسار إلى العرب جريدة، وسبق خبره وهجم عليهم وهم في صلاة العيد فركبت العرب خيولهم وحملت فانهزمت صنهاجة، فقتل منهم عالم كثير ثم رجع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير فلما اشرف على بيوت العرب وهو قبلي جبل جندران انتشب القتال واشتعلت نيران الحرب، وكانت العرب سبعة آلاف فارس فانهزمت صنهاجة وولى كل

رجل منهم إلى منزله وانهزمت زناتة وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما لم يسمع بمثله. ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلف وثلاثمائة. ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان ووقعت الحرب فقتل من المنصورية ورقادة خلق كثير. فلما رأى ذلك المعز أباحهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء. قارن ذلك: مع ما ذكره ابن خلدون حول وقائع هذه المعركة. ابن خلدون. المصدر السابق. ج٦. ص١٨-١٩ .

٤٨- ابن الأثير. نفس المصدر. نفس الموضع.

٤٩- نفس المصدر. ج٨ص٥٦ -٥٧ ؛ وقارن بـ: ابن خلدون. نفس المصدر. ص١٩.

٥٠- انظر: ابن خلدون. نفس المصدر. نفس الموضع .

٥١- ابن الأثير. نفس المصدر. ج٨. ص١٠١.

٥٢- ابن خلدون. نفس المصدر. ج٦. ص١٨.

٥٣- عبد الله العروي. المرجع السابق. ص ٩٤ .

٥٤- العروي. المرجع السابق. ص ٩٤ .

٥٥- ابن الأثير. المصدر السابق. حيث قال: في هذه السنة كانت حرب بين الناصر بن علناس بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة ومن زناتة... وكان سببها أن حماد بن بلكين جد الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور من الخلف وموت باديس محاصرا قلعة بني حماد ما هو مذكور. ولولا تلك القلعة لأخذ سريعا وإنما امتنع هو وأولاده بعده بها وهي من أمنع الحصون وكذلك ما استمر بين حماد وبين المعز بن باديس ودخول حماد في طاعته ما تقدم ذكره. وكذلك أيضا ما كان بين القائد ابن حماد وبين المعز... وبعده ولده محسن وبعده ابن عمه بلكين بن حماد وبعده ابن عمه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد وكل منهم متحصن بالقلعة وقد جعلوها دار ملكهم. فلما رحل المعز من القيروان وصبرة إلى المهدية تمكنت العرب ونهبت الناس وخربت البلاد وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب. فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم وفي نفوسهم الضغائن والحقود من باديس ومن بعده من أولادهم يرثه صغير عن كبير. وولي تميم بن المعز بعد أبيه فاستبد كل من هو ببلد وقلعة بمكانه وتميم صابر يداري ويتجلد واتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه وأنه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهدية. وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية فلما صح ذلك عنده أرسل إلى أمراء بني رياح فأحضرهم إليه وقال: أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا. وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم فقالوا له: الذي تقوله حق ونحب منك المعونة فأعطاهم المال والسلاح من الرماح والسيوف والدروع والدرق فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا على لقاء الناصر وأرسل (أي تميم) على من مع الناصر من بني هلال يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر ويخوفونهم منه إن قوي أنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة وأنهم إنما يستمر لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تم الخلف وضعف السلطان فأجابهم بنو هلال على الموافقة. وقالوا: اجعلوا أول حملة تحملونها علينا فنحن نهزم بالناس ونعود عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة فأجابهم إلى ذلك واستقر الأمر وأرسل المعز بن زيري الزناتي على من مع الناصر بزناتة بنحو ذلك. فوعدوه أيضا أن ينهزموا، وذكر ابن الأثير في هذا الصدد أيضا أن الغنائم والأسلاب ردها الأمير الزيري تميم بن المعز وقال: يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك. ج٨. ص ١٠١-١٠٢. وقارن بابن خلدون. المصدر السابق. ج٦. ص٢٦.

٥٦- حول التوسع النورماني في الحوض الغربي للمتوسط في تلك الفترة انظر: عزيز أحمد. __تاريخ صقلية الإسلامية.__ ترجمة: أمين توفيق الطيبي. الدار العربية للكتاب. تونس. طرابلس. ليبيا. ط ١٩٨٠. ص٥٧ - ٦٢.

٥٧- __بجاية__: مدينة ساحلية مشهورة. تقع بالساحل الشرقي بالمغرب الأوسط - الجزائر - على بعد ٢٥٠كم تقريبا شرق العاصمة الجزائرية. أنشأها أول الأمر الفنيقيون في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وعرفت باسم صالداي نظرا لموقعها البحري الحصين ن وكانت هذه المدينة نقطة لتبادل السلع والبضائع التجارية المختلفة التي اعتمد عليها الفينيقيون في تجارتهم، وعندما جاؤ الرومان دمروا المدينة.ثم أعادوا بناء مستعمرة على أنقاضها سميت Salday وضموها إلى مملكة موريطانيا في حدود سنة ٣٣ ق.م وفي العصر الإسلامي الوسيط أعد بناءها الناصر بن علناس واتخذها عاصمة لدولته وبقيت بجاية بعد عاصمة للدولة الحمادية إلى أن دخلها الموحدون في

عهد عبد المؤمن بن علي سنة٥٤٧هـ. انظر: يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر (القديم والوسيط)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط١٩٩٩، ج١، ص٢٧؛ وانظر أيضا: عبد الواحد علي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨، ص١٤٥؛ إسماعيل العربي، **دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١٩٨٠، ص١٨٦.

٥٨- ابن الأثير، نفس المصدر، ج٨، ص١٠٢.

٥٩- حول سبب انتقال الناصر بن علناس من القلعة إلى بجاية واختلاف المصادر حول ذلك انظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، ص٩٩، ١٠٠.

٦٠- ابن خلدون، نفس المصدر، ج٦، ٢٤. قال ابن خلدون: «ثم لحق بالقلعة (أي الناصر) فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها ...إلى أن قال: «ولم يزل هذا دأبهم حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة، ولختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته وأعدها لنزله». ثم قال: «نزلها المنصور ابنه من بعده فرارا من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال، وتوعر المسالك على رواحلهم، واستقروا بها بعد وتركوا القلعة».

٦١- انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٩.

٦٢- ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣١؛ المراكشي، المعجب، ص١٤٥.

المصادر:

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب لعربي، بيروت، لبنان، ط٦، د.ت.

٢- ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٢.

٣- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار الثقافة، بيروت لبنان، د.ت.

٤- البكري، أبو عبيد: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، د.ت.

٥- الحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤.

٦- المراكشي، ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار المغرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١٩٥٠.

٧- المراكشي، عبد الواحد علي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨.

٨- ياقوت الرومي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٥.

المراجع:

١- أحمد، عزيز: **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس ن طرابلس، ليبيا، ط ١٩٨٠.

٢- العربي، إسماعيل: **دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١٩٨٠.

٣- العروي، عبد الله: **مجمل تاريخ المغرب** (المغرب في عهد الوحدة والسيطرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠.

٤- بورويبة، رشيد: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية – المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر ط ١٩٧٧.

٥- بوعزيز، يحي: **الموجز في تاريخ الجزائر (القديم والوسيط)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط١٩٩٩.

٦- سالم، عبد العزيز: **التاريخ والمؤرخون العرب**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ط١٩٦٧.

٧- **عويس، عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة في التاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط٢، ١٩٩١.

٨- فيلالي، عبد العزيز: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط٢، ١٩٩٩.

٩- مجموعة من المؤلفين: **موسوعة أعلام الفكر الإسلامي**، تحت إشراف وتقديم: محمود حمدي زقزوق، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط١٩٩٤م.

الصين بين الأمس واليوم

الأستاذ الدكتور: عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

كان قلم التحرير في جريدة «العلم» صادقاً في تعليقه على صورةٍ نشرتها الجريدة بتاريخ ١٦ مارس ٢٠١٠ رفقة السفيرة الصينية بالمغرب السيدة تشو تينغْه XU JIN GHU عندما قال: إنّ ابن بطوطة ضَرَبَ موعداً للدكتور التازي مع سفيرة الصين.

فعلاً زارتني، وكان الحديث يدور حول صِيت الرحالة المغربي ابن بطوطة في الصين، وحديثه المتميز عن الصين في رحلته «تُحفة النظار»، وقيام أحد رجال الاستشراق في بكين، مؤخراً بترجمة الرحلة **ترجمة كاملة للغة الصينية**، معتمداً في ذلك العمل على النسخة التي نشرتها أكاديمية المملكة المغربية بتحقيقي عام ١٩٩٧...

لقد قرر المستشرق الصيني الأستاذ (لي قوانْغْبِين) - وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بمصر- قرر أن يترجم الرحلة إلى الصينية، بكاملها نظراً لأهميتها واعتباراً لما تتمتع به من مصداقية... وبما أنه احتار حول: أي النسخ المطبوعة يعتمد. هل ما صدر في مصر، أو لبنان، أو المغرب، وكلٌّ فيه ما فيه! لهذا كان حصيفاً عندما كاتب وزارة الخارجية بالمغرب ليستمزج رأيها، وكاتبت الوزارة أكاديمية المملكة المغربية التي نصحت باعتماد النسخة التي نشرتها الأكاديمية عام ١٩٩٧ على ما أسلفنا.

وهكذا فإن زيارة السيدة السفيرة كانت حول هذا التراث المغربي العظيم الذي لم يعد ملكاً لنا وحدنا في المغرب، ولكنه عاد تراثاً عالمياً يهم تاريخ كل الدول التي زارها ابن بطوطة والتي كانت الصين منتهاها حيث نقف على معلوماتٍ جد هامة عن العبقرية الصينية، ونقف على مظاهر حضارية ذات أهمية بالغة لم يقدمها مؤرخ عن الصين بمن في أولئك: المسعودي في موسوعته. (مروج الذهب)[١]، وياقوت الحموي في مدونته: (معجم البلدان)[٢] ... والوزير رشيد الدين في تأليفه باللغة الفارسية: (جامع التواريخ)[٣] ...

وقد انتهت هذه الاتصالاتُ إلى دعوةٍ كريمةٍ من السيدة السفيرة لزيارة الصين، ولا سميا أن هذه الفترة تصادف تنظيم المعرض الدولي الكبير الذي شهدته شنغهاي على مدى سته أشهر ابتداءً من أول ماي إلى نهاية أكتوبر ٢٠١٠.

لقد أسهم قادة العالم، كلّ حسب استطاعته، في التظاهرة الكبرى التي شهدها هذا الثغر الصيني الذي يقع على المحيط الهادئ والذي يحمل اسم (شنغهاي). تتألف (شانغ هاي) من كلمتين، تعني فوق البحر، لم يكن لها شأنٌ يذكر في الماضي، وإنما كانت قرية للصيد، لكنها انتقلت إلى مدينة تعج

بالآلاف من ناطحات السحاب على اختلاف الأشكال والأحجام والأنماط...وقبل منتصف القرن السابع عشر كان عدد سكانها يصل إلى مائتي ألف نسمه..

وقد بنيت المدينة من لدن الغرب الذين احتلوها واستعملوها قاعدةً للتجارة في الحرير والشاي والأفيون، وأمست وكراً للتنافس بسبب وجود العشرات من الذين يتاجرون في مثل هذه الصناعات! وأصبح في استطاعة الأجانب أن يعيشوا فيها دون مضايقةٍ من رجال السلطة... وفي الوقت الذي عكفت فيه الصين على نفسها خلال السبعينات من القرن الماضي فقدت (شانغ هاي) مكانتّها الاقتصادية، وكان عليها أن تنتظر التسعينات لتسترجع مكانتها كمدينةٍ كبيرة على مقربه من هانك زهو Hangzhou، المدينة العظمى التي وصلها الرحالة المغربي في العصر الوسيط وهو في طريقه إلى القان الأعظم، حاملاً جواباً من سلطان الهند على خطاب القان عام ٧٤٢هـ ١٣٤١م.

هذه المدينة العظيمة التي سماها ابن بطوطة بالخنّساء على نحو ما التقطّه أذناه، وتساءل: هل ما إذا كان للاسم علاقة بالشاعرة العربية الشهيرة الخنساء! هذه المدينة التي كانت حسب رأي الخبير الصيني في الأسماء الجغرافية، زميلنا في المؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية البروفيسور دوكّسيانكينك، هي مدينه هانك زهو Hangzhou.

وهي المدينة التي تعتبر – منذ التاريخ الوسيط – عاصمةً لبلاد الخِطا على ما يذكره الوزير رشيد الدين سابق الذكر، ويذكره الرحالة ابن بطوطة في رحلته[٤].

كان برنامج زيارتي للمدينة حافلاً بالتحركات التي حسّنت وحيّنت-بعض الشيء-معلوماتي عن الصين التي كنت قمت بزيارةٍ أولى لها صيف عام ١٩٨٠ عندما عزمت على القيام بجولةٍ حول العالم من هونك كونغ إلى سان فرانسيسكو... وقد قمت بزيارة ثانية للصين عام ١٩٨٨ رفقة وفد ترأسه الأستاذ محمد بنعيسى وزير الثقافة وقتئذٍ بمناسبة توقيع البرنامج التنفيذي للاتفاقية الثقافية بين المغرب والصين[٥].

وقد رأيت أن يشركني في هذه الزيارة الثالثة للصين، التي تعددت جوانب المتعة فيها، أن يشركني قُرائي من الذين يؤمنون بجدوى الرحلات، على تنمية المعلومات في عصر ازدهار المواصلات...

جلُ الفوائد بالأسفار مكتسبٌ

والله قد قال (فامْشوا في مناكِبها)!

لا أتحدث عن المسافات، فقد أصبحت بفضل ما جد من تنافس بين الشركات، معدودةً من بين «الكرامات» إن لم أقل «المعجزات»! لقد كان على ابن بطوطة أن يقطع المسافة بين الصين والمغرب في ستةَ عشرَ شهراً تعددت فيها المواسم والفُصُول.. بينما تم قطع المسافة بين مطار (كازا بلانكا) ومطار (شانغ هاي) (PUNDONG) في ستّ عشرة ساعة!! وعلى طائراتٍ ضخمة تابعةٍ لدولة الإمارات العربية المتحدة، تتوفر على ما يسمى اليوم (شْويت) وعلى (دوش) كذلك...! تقاسمت الطريقَ مع طائرة أخرى عند الوصول إلى دبي... المعلومات عن الطائرة أودعتها مؤلفي حول (رحلاتي بالطائرة) التي بلغت اليوم ألفاً ومائتين وستاً وتسعين رحلة!!

بعد راحة في شنغهاي بفندق كاطرسيزون

(QUATRE SAISON) امتدت إلى صباح الثلاثاء ٢٠١٠/١٠/١٢ قصدنا (متحف شانغهاي)، ولا أقول متحفاً بالمفرد ولكنه متاحف عدة، فهو يحتوي على أدوار، وكل دور يختص بنوع من أنواع المعروضات ... هنا أقاليم الصين التي تتكون من ست وخمسين قومية!

هنا نقود الصين كما كانت، ومنها العملة الورقية التي تحدث عنها رحالتنا ابن بطوطة[٦] !! هنا أدوار خاصة بالخزف الصيني مرتبة حسب الدول التي تعاقبت على حكم الصين ... مع العلم أن كل دور له أكثر من مرشد ومرشدة، وله دليل مطبوع لمحتوياته بمختلف اللغات...

كنت أشعرُ بأنني بحاجةٍ ماسةٍ إلى الوقوف على هذه الزوايا وأنا أتتبع ما قرأته عن الصين وعن تلك المعالم والعوالم، كنت أشعرُ بالفرحة وأنا أقارن وأفارق بين ما نراه خلف الزجاج وما عرفناه عن الصين عبْر الكتب...

تكون زيارةُ متحف شانغهاي ضروريةً لكل من يريد التعرف على الصين، فهو نافذة على تاريخ الأمس، وواقع اليوم، وتطلعات الغد، وكان اللافت للنظر عندي أن أستعرض هذه الحشودَ الكثيرة التي تحمل قَسَمَات وجوهها إشاراتٍ على أنها آتية من الصين نفسها ومن دول الجوار للبحث عن الذات وهناك حشود من أوربا وأميركا أتت للوقوف على هذه المعالم وهذه الآثار في الصين التي انفتحت اليوم على الدنيا!!

كنت في هذه الجولة أرتدي اللباس الوطني: الجلابة المغربية ويا ما أبهاها! وكنت إلى جانب هذا أركب كرسياً متحركاً يستعين به «ذوو الاحتياجات الخاصة»، يعفيني من خطواتٍ طويلةٍ لا أستطيعها، فكنت أثير انتباه بعض الزائرين والزائرات من الذين لا يترددون في السؤال عن جنسيتي حيث كنت أغتنم الفرصة بدوري لمعرفة أصولهم ومصادرهم! وكنت بفضل هذا الكرسي المتحرك أسلك مسالك لا يسلكها القادرون، فكنت أكتشف أيضاً بذلك مدى قدرة المشرفين على مساعدة كل الزوار... وكنت أكتشف مدى هيمنة أهل الصين كذلك على ضبط النظام في هذا المتحف الذي يعتبر القلبَ النابض للحضارة الصينية عبر العصور.

وقد كان من المفروض أن نتناول طعام الغداء في (مطعم اسطامبول) لولا أنه كان في حال تصليح حيث اختارت لنا السيدة المرافقة مطعماً ذا طابع شرقي كذلك، يحمل اسم (ألف ليلة وليلة) يشرف عليه أحد السادة من أصل سوري... وهناك التقينا بوفدٍ وردٍ من طهران فتذكرنا ما كنا نحفظه من كلماتٍ فارسية...!

وبعد قيلولة قصيرة اتجهنا إلى زيارة إكسبو شانغهاي الذي كان «المقصود بالذات» كما تقول عبارة الفقهاء، وعلى الأخص الرواق الصيني والرواق المغربي...

كانت زيارة المعرض تحمل إلينا مفاجئاتٍ إثر مفاجئات... وخاصة عندما كنا نسمع من السيدة المرافقة العارفة، كنا نسمع الأرقام اللافتة والصادمة، أولاً لمساحة المعرض التي كانت تعدها لنا بالكيلومترات وليس الميترات! وخاصة مساحة الرواق الصيني التي كانت تفوق سائر المساحات وخاصة منه القسم الثقافي الذي كان يغطي أرضاً شاسعة...

وقد انتصب في قلب المعرض شبه صاروخ على

مقالات

لون أحمر في شكل ميزان حرارة كبير ظهرت فيه أحوال الطقس لذلك المساء! استقطب المعرض أكثر من ١٩٢ دولة و٥٠ منظمة دولية على رأسها منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن...

وقد كان علينا أن نخصص رواق المملكة المغربية بزيارة مستوعبة... استقبلتنا السيدة (مريم) التي فاجأتنا بأنها تتحدث اللغة الصينية بطلاقة وكأنها من مواليد شانغهاي!! وقادتنا السيدة مريم إلى السيد مصطفى المدير المساعد للجناح الذي بواسطته تعرفنا على زوايا المعرض ... التي كانت تعطي فكرةً دقيقة عن زوايا هذا القصر الجميل الأنيق الذي شيدت مرافقه في ظرف سنةٍ واحدة، والذي كان يستحق كل ضروب التنويه والإشادة ... كان الجناح المغربي يمتد على مساحة ألفي ميتر مربع. وفي أناقةٍ لافتة!

لكن ما بهرني حقيقة وشعرت إزاءه باعتزاز كبير هو هذه الوفود المتوالية التي كانت تتهافت على باب الرواق المغربي، وعلى كل زواياه ومنعرجاته التي كانت تمثل مختلف أوجه الحياة المغربية، فهنا نماذج من المخطوطات المغربية، وهنا مهنة تجليد الكتب، وهنا سائر الصناعات، وسائر أنماط الموروث الثقافي، وسائر المنتوجات الفلاحية... عرفنا عن الزيوت بما فيها زيت أركان «كنز المغاربة» كما ينعتها العلامة الشهير ابن البيطار، وكنت ألاحظ الزائرين يشعرون بالمتعة وهم يقفون على ما تصنعه الأيادي المغربية من تُحَف وطُرَف، إلى جانب هذا ما تؤديه الصور والرسوم من دلالاتٍ وحمولات، لقد ضرب الصناع المغاربة المثل في الإبداع والإمتاع ... كانوا يَخلقون من الخشب ومن الجبس ومن الزليج لوحاتٍ فنيةً رائعة...

كان ظفر الجناح المغربي بترتيبه في الدرجة الثالثة من بين الفائزين في هذا الاستحقاق بعد الصين وبريطانيا مما دعاني إلى الاتصال مع بعض المحكمين في أمر هذا الترتيب، وكان مما أثلج صدري أن أسمع أن أهم رسالات (إكسبو شانغهاي) عند الصين، هي تحميس الناس بقيمة البيئة والحفاظ عليها، وقد كان رواق المغرب أصدقَ معبر عن بيئته، دون دَعاوى لا تُعبر عن واقع البيت المغربي، لقد حرص المغرب فعلاً على أن يظهر بصدقٍ أمام العالم بما يتوفر عليه من تراثٍ كان أسلافه يحافظون عليه بغيرة طَوال العصور.

بعد هذه الجولة الممتعة في رواق المغرب قدمت إلينا البعثة المغربية عدداً من النشرات إلى جانب الشريط الخاص بالجناح D.V.D وزودتنا بمظلاتها الحمراء التي تحمينا من زخات المطر الذي كان يداعبنا!

لقد ساعدتنا البعثة المغربية على زيارة بعض الأروقة للدول الشقيقة والصديقة حيث قمنا بزيارة عدد من الرواقات التي كانت محل إعجاب، وأذكر بالخصوص رواق المملكة العربية السعودية التي برهنت على أنها ليست فقط ملاذاً للحجاج والمعتمرين، ولكنها أيضاً مصنع للمفكرين والمبدعين وبناة المستقبل الذين يُعدون لحاجيات الغد...!

لم يكن رواق المغرب ولا الصين ولا السعودية مما تمكنا من زيارته، ولكننا زرنا رواق دولة الإمارات العربية المتحدة الذي شعرت بالرغبة في رؤية معرضها نظراً لما يربطني بالإمارات التي كنت أولَ سفير مغربي يحل بمدرج «مطارها» في أبو ظبي عام ١٩٧٠-١٩٧١على "طائرة" ليست

في ملك أصحاب البلاد!! حللتُ لرفع دعوة كريمة من العاهل الراحل الملك الحسن الثاني إلى الشيخ زايد بن سلطان رحمهما الله... زرت رواق الإمارات بدافع من فضول لأعرف الفرق بين أمس الإمارات وحاضرها الذي يسجل كلّ يوم خطواتٍ قافزة إلى الأمام، وقد أشرت قبل قليل إلى «طائرتها» التي أقلتنا من البيضاء إلى شانغهاي...

وزرنا أيضا رواق فرنسا حيث أمسينا نعيش في عالَم وافر بلغته الخاصة ومخترعاته الجديدة، إلى جانب أروقةٍ أخرى سمح الوقت بإلقاء نظرة خاطفة عليها...

وكان العزم أن نستمر في الزيارة لكن وقت إغلاق المعرض حان، ولا بدّ لي أن أفتح قوسين هنا لأشيد مرة أخرى إشادة مستحقة بالمنظمين وبالمشرفين على منافذ ومواقع هذا المعرض العملاق الذي كنا نتجول فيه بسهولة فائقة رغم دروبه ومسالكه...

وأنا أرى حضور المغاربة في إكسبو شانغهاي متحدّين بُعد المسافات وتعدد اللغات، استحضرت حرص بلادنا، قبل أكثر من قرن ونصف القرن، أيام الملك محمد الرابع على أن تشارك في المعارض الدولية تعبيراً منها على التطلع الذي كان يسكُنها لمواكبة الركب العالمي حيث تذكرَ الشيخ الناصري صاحب الاستقصا قول المتنبي:

تَجَمَّع فيه كلّ لِسْنٍ وأمّةٍ

فما تُفهِم الحداثَ إلا التَّراجم!!

كان ذلك المعرض في أوروبا برئاسة القبّاج قبل أن ينعقد معرضٌ آخر أيام الملك الحسن الأول عام ١٨٧٨ برئاسة المزامزي[٧]...

وكان اليوم الموالي: الأربعاء ١٣/١٠/٢٠١٠ هو اليوم الأكاديمي الذي كان ينتظرنا والذي أعدته السيدة السفيرة بالتشاور مع جامعة شانغهاي:

لقد كان علينا أن نرحل بالسيارة إلى (معهد الدراسات الدولية لشانغهاي) للاتصال بخبراء المعهد والمحادثة معهم حول الشؤون التي يهتم بها المعهد، وخاصة العلاقات العربية الصينية، بمشاركة ثلاثةٍ من خبراء المعهد المذكور...

ولا بد أن أذكر هنا أن معهد الدراسات الدولية هذا أسّس بمبادرة من الرئيس الصيني شُو أنْ لاَيّ الذي عُرف بأنه يهتم **بعلاقات آسيا بإفريقيا**، هذا الرئيس الذي لا ننسى أنه زار المملكة المغربية بعد استرجاع استقلالها حيث وجدنا أن الملك الحسن الثاني يخاطبه يوم ٢٧ دجنبر ١٩٦٣ بخطابٍ هام أشاد فيه بالعلاقة التاريخية التي تربط بين البلدين الصديقين مذكراً بالرحالة المغربي ابن بطوطة الذي - قدّم في العصر الوسيط، وصفاً جيداً للصين العظيمة التي يحتفظ لها المغرب بذكر جميل، مؤكداً أيضاً برغبة المغرب الصادقة في التعاون بين البلدين[٨]...

وقد أجاب الرئيس شُو أنْ لاَيّ بخطاب هام كذلك أشاد فيه بنضال المغرب قمةً وقاعدة من أجل استرجاع استقلاله مشيراً لدعم المغرب للمؤتمر الأول الأسيوي الإفريقي الذي انعقد في باندونك عام ١٩٥٥ والذي حضره الرئيس الصيني، والذي نذكر أن ممن شارك فيه من رجالاتِ العالم الزعيم المغربي علال الفاسي[٩].

ولم يفت الرئيس الصيني أن يَذْكر أن الملك الراحل محمد الخامس هو الذي قام ١٩٦١ باتخاذ المبادرة الداعية إلى المؤتمر الإفريقي الأول بالدار

مقالات

البيضاء الذي حضره ستة رؤساء دول إفريقية، وكانت هذه المبادرة في الواقع دعماً للسلام العالمي وإسهاماً في بناء الجسور بين القارتين آسيا وافريقيا.

وبعد أن أشاد الرئيس الصيني شُو أَنْ لَايْ بالعلاقات الدبلوماسية بين المغرب والصين التي فاجأت بعض الجهات والتي شهدها العالم منذ عام ١٩٥٨ بإعجابٍ كبير، تمنى للمغرب كل ازدهار وتقدم...

ولعل من الطريف أن نسمع أن الرئيس الصيني المذكور أعرب عن أمنيته في زيارة طنجة تحيةً لهذه التربة التي أنجبتْ ابن بطوطة الذي كان أسبق العرب للتعريف بالصين!!

لقد استحضرت تلك المرحلة الحساسة من تاريخ العلاقات بين المغرب والصين لأنني كنت أحل ضيفاً على رجال معهد الدراسات الدولية الذي أنشاه ذلك الرئيس المذكور والذي صادفنا الاحتفال بذكرى إنشائه قبل خمسين سنة...

فماذا عن هذا الصرح العلمي الذي تعتمد عليه جمهوريةُ الصين في أطرها الدبلوماسية؟ لقد علمت من الأساتذة الأجلاء أن رئيس المعهد يوجد خارج البلاد، وأن الذي سيتولى تقديمي لأركان المعهد هو نائبه الأستاذ شين دونك سياو (Chen Dongxiao).

ولقد سرَّني أن أجد هنا أستاذاً جليلاً كنت تعرفت عليه في ندوة الحوار بين الحضارتين العربية والصينية التي انعقدت برئاسة زميلنا الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة في (بيت الحكمة بتونس) في مايه ٢٠٠٩، كان هذا الأستاذ هو السيد لي وي جيان LI WEIJIAN...

وقد تطرقنا: نائب الرئيس وبعض السيدات والسادة للحديث حول المؤسسات المماثلة في المغرب، حيث ذكرتُ أكاديمية المملكة المغربية التي استقبلنا فيها عصر يوم ٣٠ شتنبر ٢٠٠٣ بعثة للعلوم الاجتماعية يرأسها مدير معهد دراسات غرب آسيا وافريقيا[١٠] ... وتبادلنا الهدايا، وكان فيما أهديتُ للمعهد المذكور الترجمة الانجليزية لتأليفي الأخير: «الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب» في ثلاث مجلدات[١١].

وقد فهمت أن المعهد المذكور الذي أسس – كما قلنا منذ عام ١٩٦٠– يهتم بكل ما يتصل بعلاقات الصين مع أطراف العالم وخاصة إفريقيا وآسيا، وأن أطره تهتم، في صدر ما تهتم به بتكوين تراجمة أكفاء لا يهتمون فقط بترجمة الكلمات والعبارات ولكنهم يتعمقون في الموضوعات المتصلة بالقارتين حتى يكونوا على خبرة تامة بما يريدون إبلاغه، أو يتوقعون سماعه ... إن المعهد يساعد الحكومة على معرفة ما تريد معرفته عن «الآخر» في آسيا وفي إفريقيا مثلاً... من حيث الإستراتيجية والمواقف السياسية المتبعة إزاء ما يجد في العالم اقتصادياً، وأمنياً، كذلك فإن المعهد يساعد الصين بالنسبة لعملها الدبلوماسي، فهو يجعل هذه المعلومات رهن إشارة الحكومة المحلية والمركزية، هذا إلى تبادل المعلومات والأبحاث على صعيد الداخل والخارج، لصالح المعرفة المضبوطة المنشودة من أجل التخطيط للمشاريع ذات المدى الطويل والمتوسط.

وباختصار فإن المعهد يكون وسيلةً للتواصل بين الصين وبين أجهزة المعرفة في الداخل والخارج، وهو – أي المعهد – يتوفر اليوم على أكثر من تسعين عضواً من بينهم أكثر من ثلاثين باحث وباحثة من درجات عالية.

وقد كان علينا بعد تبادل الحديث في صالة الاجتماعات مع الأساتذة الذين عهد إليهم بتنشيط الحديث حول العلاقات بين الصين والعرب.. كان علينا أن نتجول في المكتبة الفسيحة الغنية بالتآليف التي تحتضنها الرفوف .

ويلاحظ أن لغة الحديث ، بالرغم من الإلمام باللغة العربية - كانت بالانجليزية بالدرجة الأولى أو الفرنسية، كنا جميعا نستعين بهاتين اللغتين حتى يكون تفاهمنا وتواصلنا أكثر نفعاً وأجدى فائدة.

ومن هنا انتقلنا إلى مأدبة غداء عمل دعانا إليها المعهد المذكور.. كانت المائدة مستديرة متحركة على الطريقة الصينية، وكان تجدد حركة المائدة يساعد بدوره في تجدد الحديث لما يوجد بين المغرب والصين، وقد أخذت منا كلمة "الصينية" المستعملة بالمغرب نصيباً من الحديث، لأن الصينية بالفعل تعتبر من الأدوات الأساسية عند تقديم الشاي الأخضر فهي تجري على ألسنة المغاربة كل وقت وحين...

وكلّ هذه المناقشات كانت تزيد من تقارب بعضنا بعضا، وتقوي من الرغبة في أن نعمل جميعاً على التغلب على بعد المسافة التي تفصل بيننا، كذلك والتغلب على المشكل الثاني الذي لا يخفى على أحد هو مشكل اللغة!!

لقد لاحظنا ولاحظ زملاؤنا معنا أن كلاً من اللغة العربية واللغة الصينية تحتاج منا إلى عناية زائدة، وإلى ممارسات أكثر... ولعلي أكون على صواب إذا ما قلت: إن زملاءنا يبذلون جهداً أكثر منا في التعرف على العربية، يبدو ذلك من نسبة الذين يقبلون على هذه اللغة... وإني إذْ أقول هذا عن الاهتمام باللغة العربية في شانغهاي بالذات، أعرف أن معظم المدن الصينية تهتم هي الأخرى بالعربية جامعات ومعاهد. إن الصين واعية جداً بمركزها الدولي وهي تعرف مدى أهمية اللغة العربية في هذا العالم، ولذلك فهي ما تنفك تشجع الدراسات العربية في الأوساط الثقافية...

لهذا كان مجرى الحديث على المائدة هو ضرورة تعدد المنابر من أجل تعليم العربية من جهة، وإنشاء مراكز ثقافية للصين في البلاد العربية من أجل فتح الآفاق أمام الذين يتوقون لمعرفة اللغة الصينية ... وقد سجلنا بارتياحٍ كبير إقدام عدد من الأساتذة الصينيين على نقل طائفةٍ من المؤلفات العربية إلى اللغة الصينية، وفيها تآليف لأساتذة مغاربة أقيم لها معارض خصوصية في عدد من الدول العربية كان منها ترجمة رحلة ابن بطوطة موضوع حديثنا!!

وخلال هذا جرى الحديث عن (المطبخ الصيني) وغناه وتنوع صحونه التي تعد بالآلاف وليس بالعشرات والمئات على ما يفيده الأرشيف التاريخي، وأعترف هنا بأن تناول الطعام بالأعواد كان مما يئسنا من تعلمه! مما جعلنا نعود إلى أصابعنا وشوكة الآخرين!!

ولقد حضرت معنا في مأدبة الغداء أستاذة تحسن اللغة العربية جيداً فهمت أنها حضرت لمؤانستنا أولاً ولأنها ستكون رفيقتنا للنشاط الموالي في جامعة شانغهاي، كانت تتوفر على ملف ضخم يتناول التاريخ المعاصر لبلادنا! بمن فيهم أسماء عددٍ من الكتاب المغاربة والشعراء والمؤرخين...

ولقد كان علينا أن نتحرك في الساعة المحددة صحبة الأستاذة الفاضلة التي وردت، كما أشرت،

خصيصاً لمرافقتنا إلى **جامعة من أعرق الجامعات** في شانغهاي. جامعة الدراسات الدولية، وبالضبط إلى كلية اللغات الشرقية فيها، حيث سعدت بزيارة بعض المرافق الجامعية، بقدر ما تسمح به الظروف!

وقد كنا على موعد في الساعة الثالثة مع طلبة وطوالب الأقسام العليا للكلية: الطلبة الذين كانوا يُحضّرون لنيل الماجستير من هذه الجامعة (جامعة شانغهاي للدراسات الدولية) قدمني لهذه الدورة السابعة عشرة من دورات الجامعة الأستاذ العميد السيد وانك كوانكدا.

WANG GUANGDDA مخاطباً الطلبة: إنه قلما تسنح الفرصة بلقاء من هذا النوع، وعلى هذا المستوى، مؤكداً بأنه على يقين من أن هذا الزميل المغربي يشعر هو كذلك بالفرحة الغامرة وهو يرى نفسه بين طلبة يعرفون عنه الكثير عن طريق الإعلام رغم بعد الدار!.

كنت معتزاً بهذا اللقاء لأنه أضاف إلى طلبتي وطوالبي لائحةً طويلةً من أبناء الصين ممن يتكلمون بلغة مضر!! وبلثغة ما كان أوقعها!!

باختصار شديد أذكر أنني قدمت للطلبة الحاضرين خارطة المغرب، وتحدثت عن تاريخ طنجة، وترجمتُ لابن بطوطة ... وحاولت أن ألخص لهنّ ولهم في كلماتٍ وجيزة أن تاريخ الصين في العصر الوسيط لن يكون مكتوباً بطريقة شاملة إذا لم يعتمد على معلومات ابن بطوطة المغربي!! ومن ثم فإن على طلبتنا في الصين أن يتتبعوا رحلة ابن بطوطة التي تحتوي على معلومات عن الصين لا توجد في الكتب التي تناولت تاريخ الصين...!! واقتصرت على ذكر موضوع واحد مما استأثر بذكره الرحّالة المغربي، وهو أمر السفارة التي بعث بها قانُ الصين لسلطان الهند محمد ابن تغلق، حيث كان ابن بطوطة مقيماً بدلهي كقاضٍ يتولى الحكم في البلاد..

لقد قصدت إبراز هذا الحدث الدولي الذي كان ابن بطوطة شاهداً على العصر فيه بالرغم من إهمال المصادر الصينية والهندية له، لأنها لم تكن تعرفه، إنما كان يعرفه ابن بطوطة الذي كان برأس السفارة الهندية إلى الصين سنة ٧٤٢ الموافقة لعام ١٣٤١م.

وقد أهديت بهذه المناسبة نسخة من رحلة ابن بطوطة لمكتبة الجامعة، كما كانت مناسبة لكي أقدم للحاضرات والحاضرين تشكيلة من (حلوى) بلاد ابن بطوطة! ابتهجوا بها أيما ابتهاج وكنت مسروراً بذلك!!

وبعد هذا فتح باب المناقشة حيث ساعدتني حفيدتي أسمهان التي كانت ترافقني في هذه الرحلة، وكانت تساعدني على كتابة جرْد بأسماء بعض المتدخلات والمتدخلين..

لا أكتم قرائي أنني فوجئت ببعض الأسئلة التي شعرت من خلالها أنني أمام فوج من الطلاب يعيش في قلب الوطن العربي، ومع الواقع المغربي بصفة أدق بل وفي داخل الأسرة المغربية!!

ولمعلوماتكم أذكر أن النظام المتبع في الصين هو أن يحمل الطالب الذي يتكلم العربية، إلى جانب اسمه الصيني، اسماً عربياً على نحو ما يحمل الطالب الذي يعرف الفرنسية اسماً فرنسياً، ويحمل الطالب الذي يتوفر على الإنجليزية اسماً إنجليزياً الخ، ومن هنا سنسمع عن جُمانة ورَيانة، وحميد والمعتز!!

الصين بين الأمس واليوم

غرابة الأسئلة وطرافتها تقتضي مني أن أشرك فيها القراء حتى يعرفوا عن مدى تغلغل الاستشراق الصيني في قضايا العروبة والإسلام، وقضايا البلاد التي تربطها بالصين علاقة..

كان من الأسئلة سؤال الباحثة (حنان):

هل تعتقد أن كلّ ما كان يرويه ابن بطوطة كان صادقاً فيه... ولا سيما قضية السفارتين المتبادلتين بين الصين والهند عام ١٣٤١؟

وكان من الأسئلة سؤال الباحثة (ريانة):

ماذا عن المقارنة بين معلومات ماركو بولو ومعلومات ابن بطوطة عن الصين؟ وكان من الأسئلة التي قدمتها الباحثة (جمانة):

ماذا عن الصعوبات التي واجهتك وأنت تقوم بتحقيق مخطوطات رحلة ابن بطوطة، وهل يوجد خلافٌ لافتٌ بين تلك المخطوطات على نحو ما يوجد بالنسبة لماركو بولو؟

أما (حميد) فقد كان سؤاله يتعلق بالأمازيغ بالمغرب:

كيف يتفاهمون مع إخوانهم الآخرين؟ وسؤال هل تعرف أنت الأمازيغية؟

وكان سؤال (المعتز):

ما هي اللغة السائدة في التعامل ببلاد المغرب، هل العربية أم الفرنسية، وبماذا تنصحنا أن نتفاهم ونحن في زيارة وشيكة للمغرب؟

وكان سؤال (ناريمان):

لماذا تفضل بعض الطبقات أن تتكلم فيما بينها باللغة الأجنبية عوض لغتها القومية؟ وكان سؤال الباحثة (مفيدة) عن العادات والتقاليد المغربية فيما يتصل بالزواج، وهل هناك قوانين بالنسبة لتنظيم إنجاب الأسرة؟

وكان سؤال الباحثة (نجيبة):

نعرف أن ابن بطوطة ولد بطنجة ... فأين أدركتْه الوفاة بعد أن انقطعت أخباره في أعقاب موت السلطان أبي عنان، وهل ترك له ذريةً في البلاد التي زارها؟

أما الباحثة (صالحة) فقد سألت:

هل ما إذا المغاربة أنفسهم واعين بمركز ابن بطوطة ومكانته في بلادهم، وفي خارج بلادهم وما هو الدليل عندك على هذا الوعي؟

وكان في الأسئلة ما تناول الأقاليم الجنوبية للمغرب حيث أسلمنا السؤال لموضوع التعامل الدولي بالأمس مع المنطقة، ولمن كانت تتوجه الدول في خطاباتها؟ إلى آخر الأسئلة التي طالت.

وعرفتُ من خلال النقاش أن لبعض هؤلاء الطلبة رسائل يهتمون بها لإعداد بحوثهم للجامعة.

ولقد صفقوا جميعا عندما كان السيد العميد وانك Wang يسلم لي شهادة زمالة فخرية موقعةً من نائب رئيس المعهد سالف الذكر السيد شين دونك زياكو Chen Dongxiag تحمل تاريخ ١٢ أكتوبر ٢٠١٠، كما لاحظت فضول بعضهم وأنا أحرر كلمتي في السجل الذهبي للجامعة.

وكان مما لفت نظرَنا أن هذا الفوج من الطلبة والطالبات الذي كان يملأ قاعة المحاضرات انتشر بعد التقاط الصور التذكارية، وقصد الدراجات الهوائية التي يكثر استعمالها بين الساكنة هناك، إن الأرض منبسطة وتساعد على هذا النوع من التحرك..

بعد هذا النشاط المكثف لهذا اليوم الأربعاء عدنا إلى مدينة شانغهاي حيث كان من المقرر أن نتناول العشاء في مطعم عتيق يُقصد من لدن الذين يهتمون بالتاريخ والآثار!! إنه البناية القديمة للقنصلية البريطانية التي تحمل اسم (يونكفوس إيليت) (Yongfos –Elite). وهي عبارة عن فيلا فاخرة تجمع بين ملامح الماضي ومباهج الحاضر، أثثت جنباتها برسوم الصين العتيقة وأنت تعيش بين مباني من تصميم أوروبي، مصابيح خافتة تريح أعصابك وأنت تعيش على مقربة من ضجيج شانغهاي، وأنت تعيش مع مطبخها العتيق بتنوعاته وأشكاله، وبمذاق صيني يجمع بين أنواع الطعام على نحو ما قلته ونحن في الجامعة، كل مظاهر الراحة هنا... اطلب ما تشاء تجده أمامك في أرقى تقديم وأبهاه أحلاه... ٢٤صفحة من الورق السميك الرفيع تلخص لك المعلومات المتعلقة بهذا المبنى العتيق الذي كان في يوم من الأيام إقامة مبنىً دبلوماسياً...!

ونحن في حديث مع السيدة المحترمة التي ترافقنا ذكرت لها فيما ذكرت عن قطعتين صغيرتين توجدان في نهاية ظهر الدِّيك، يتهاداهما الأصدقاء، تحملان في شِعْرنا الملْحُون وخاصةً عند أهل وزان اسم (العزِّيمَة) المعروفة باسم: (Sot L'y-Laisse) عند الفرنسيين، فطلبت السيدة نوعاً من السمك يحمل اسم كويو (Qui yo) يحتوي على اللوزتين اللتين يتهاداهما أهل الصين كذلك من هذا السمك! لعلَّ ثقافة الطعام لا تختلف بين بني آدم!!

أمضينا في ١٩ العشاء وقتاً متسعاً نتسلى فيه برؤية السواقي التي تسبح فيها الأسماك الذهبية تتجول بين الأحواض التي تؤثث الحديقة، وكنا نستأنس بتلك العوالم التي تقصد هذه الزوايا، كانت تلك العوالم تختلف سَحْنَةً ولغةً، من الذين يرومون هذه الأماكن للراحة والاستجمام...

وكان صباح يوم الخمس الموالي ٢٠١٠/١٠/١٤ مخصصاً لزيارة ما يسمى في البرنامج (مقْبرة الآلهة)، وكذا لزيارة الحديقة الشهيرة باسم (Yuyan) وهي تحفة عالمية رائعة استعصى عليَّ وصفها. كانت الأمطار تحول دون التجوال الكامل لا سيما ونحن مشغولون بالكرسي المتحرك الذي يمكن الاستعانة به حيناً والاستغناء عنه أحياناً أخرى بسبب الجسور الحجرية التي تربط بين جهة وأخرى!!

وقد كان في برنامج الجولة تذوق «الشاي الصيني» في ذلك السوق الأنيق الذي تسمع فيه وترى أيضاً وتشرب كذلك ما يوحي إليك باقتناء عينات الأكياس لإرضاء الناس!! لا سيما ونحن نعيش يومياً في المغرب مع المشروب الوطني: الشاي، ومع «الصينية» التي تزينها الأكواب إلى جانب الأواني الفضية التي تزدان بها أسواق الصفارين في القواعد المغربية! كان تذوقنا لأنواع الشاي أيضاً يحتاج لاحتفالية خاصة تقتضي منك أن تأخذ مقعدك في المتجر حيث تقوم سيدة أمامك باستعراض أنواع الشاي مستعينة في ذلك بأباريق ساخنة وأكواب خاصة في مختلف الأحجام تشجعك من خلال ما يظهر من ألوانها على تفهم الدرس الذي يلقى عليك!

وأنت بين هذا وذاك تتناول من هذا النوع أو ذاك مستمتعاً بما يقدم إليك من شروح علمية، بما فيها الفوائد الطبية حيث ينتهي كل ذلك باقتناء ما يقع عليه الاختيار، وبما تمني النفس بتقديمه لضيوفك وأنت في بيتك بين أهلك وذويك!

وبسبب استغراقنا في الوقوف عند هذه المواقع الروائع ضيّعنا موعدنا مع مطعم Lubolong الذي كان أبرعَ ما راعني فيه، عند مدخله، طريقة حوار السيدة المشرفة على إجلاس الزبناء مع السيدة المرافقة، طريقة الكلام وطريقة التلقي التي كانت بعيدة كل البعد عن الطريقة التي نتحاور بها نحن في أحاديثنا!

وتناولنا غداءنا في مطعم مجاور تمكنت المرافقة النشيطة من الحجز فيه بواسطة هاتفها المتحرك... وهكذا وجدنا أنفسنا مرةً أخرى مع مائدة مستديرة لكن الشوكة عوضت العود الذي ظل مستعصياً علينا!!

ومن هذا المطعم كانت رحلتنا إلى (متحف الحرير) الواقع جنوب يانكطسي (Yangtse) حيث استمعنا من المشرفة إلى تاريخ دودة القزّ ورأينا بالعين صورها حية مع ثمار التوت، إلى أن تعطي ما أغنى الله به الصين مما أصبح معروفا بالحرير، على نحو ما أمتعنا به المسعودي في موسوعته مروج الذهب سالفة الذكر...

هذا الحرير الذي كثر في الصين حتى قال عنه ابن بطوطة:

والحرير عندهم كثير جداً؛ لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من مؤنة، ولذلك كثُر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير [١٢].

كان لأحاديث السيدات التواجر من سعة الخاطر والصبر الجميل، ما يحمل الزائر على التمتع بالتبضع! والتفكير في الهدايا لمن يحضه المجلس من صاحبةٍ وابنةٍ وحفيدةٍ!!

لقد طالت زيارتنا لمتحف الحرير مما جعلنا نعتذر عن مأدبة العشاء ونكتفي بما يختزنه "البار" في الغرفة من مكسّرات ومقبلات...

وقد كان يوم الجمعة موعداً للتحليق إلى العاصمة (بكين) على الخطوط الجوية الصينية من المطار الداخلي هونكجياو (Hongjiao) الذي كان هو المطار الدولي بالأمس!

تعتبر بكين المدينة الثالثة من الناحية الاقتصادية بعد شانغهاي أوهي المدينة التي لها أسماء عديدة كما كان يفيدنا زميلنا في المؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية.

ويبتدئ تاريخ بيكين من عام ١١١٥م عندما جعَل سكان الشمال (Jin) من بيكين عاصمةً لهم وأعطوها اسم Zhongdo قبل أن تحمل اسما آخر هو دادو Dado.

وحوالي سنة ١٢١٥م قام جنكيز خان بإحراق دادو، وفي سنة ١٢٦٤ قام حفيد جنكيز خان بإعادة المدينة وأعطاها اسم خان بالق Khan Baliq وهو الاسم الذي نجده في رحلة ابن بطوطة.

وفي سنة ١٣٦٨ استولى المينك Ming على خان بالق حيث أخذت المدينة اسم Beiping .

وفي القرن الخامس عشر قام يونكل Yongl الإمبراطور الثالث في هذه الدولة ببناء معلمتين عظيمتين: «القرية المحرمة» التي هي القصر الإمبراطوري الذي يغطي ٧٢٠٠٠٠ متر مربع ويحتوي على ٨٧٠٤ قطعة، وهناك قصر الصيف الذي يحتوي على حدائق ومرافق...

إن كلَّ شيء كان على ما يرام عند أهل الصين، وجدنا في مطار بيكين من يستقبلنا السيد لي يان

(Li Yan) فإلى فندق حيات Hyatt فندق ضخم، وعلى كل منعرج إنسانٌ أو إنسانة تساعدك بأي لسان تريد، لسان شكسبير أو لسان موليير أو بلسان مضر إذا أردت ...!! وفي وقتٍ سريعٍ، كانت خدمة رائعة ومتقنة...

كنت على موعد مع الأستاذ البروفيسور لي قوانغبين الذي كان قام بترجمة تحقيقي لرحلة ابن بطوطة إلى الصينية، في ألف ورقة من الحجم الكبير... حيث أمسى من الممكن أن تدخل الرحلة إلى كل بيت في الصين التي تحتضن اليوم - ملياراً وثلاثمائة مليون نسمة - كل هؤلاء أصبحوا يقرأون ما كتبه ابن بطوطة الإفريقي عن بلادهم في آسيا!!

لقد كان دليلنا يعتزم أخذنا إلى برنامج ليلي في (الأوبرا) لكن استغراقي في الحديث مع البروفيسور ومع الأستاذ عُمَر ممثل وكالة أنباء المغرب العربي[13] حال دون ذلك...

ومع ذلك لم نحرم من زيارة مكانٍ هام عشنا مع ذكره قبل سنتين: أولمبياد عام ٢٠٠٨ زيارة تلك المواقع . سطاد عش الطائر، المركز الوطني للسباحة... هذه الألعاب التي كانت أصدق رسالة وجهتها الصين للعالم كله تعبر بالمكشوف عن قدرة الصين على أن تفعل ما تريد فعله!!

وقد كان موعدنا صباح السبت مع برنامج في غايةٍ من الاكتظاظ لكن دليلنا كان يتوفر على إرادةٍ قوية لتنفيذه بالحرف!

لقد كان علينا أن نزور متحف القصر الإمبراطوري الذي كنت زرته عام ١٩٨٨من القرن الماضي... لكن هل إن الانطباع عن هذه الزيارة كان على نحو الزيارة التي تمت قبل، نحو من ربع قرن؟

لقد كانت الجماهير الحاشدة التي تتوانى على زيارة هذه المعالم تفوق العد والحصر، وكان ذلك عندي خيرَ تعبير لشعور جهات الدنيا بأن هناك صيناً جديدةً يجب أن تزار! ويجب أن تعرف! وكنت فضولياً على العادة، أسأل الزائرين عن وِرْدِهم وصَدَرِهم، فأجد الناس من كل حدب وصوب، ومن مختلف درجات السن، أكثر من هذا استسلام الزائرين لتنظيم المشرفين وتوفير وسائل الراحة لهم..

لقد تعاظم أعداد الزوار من سائر الجهات القريبة والمجاورة لبيكين، من سائر القوميات التي تبلغ كلنا. يعلم ٥٥ قومية تتوفر عليها جمهورية الصين، من هؤلاء وأولئك من يحملون معهم لوافتَ ورايات حتى لا يضيعوا! هذا إلى السائحين من اليابانيين والكوريين والمنغوليين...

تموج الممرات بهؤلاء الزوار الذين يؤدون واجب الزيارة، وينتظمون في أفواجٍ يسمعون شروح الأدلة عما يشهدونه من معالم أصبحت تحمل في الغالب ترجمه بالإنجليزية لكلِ ما يعرض...

وقد كان من برنامجنا أن نقوم بزيارة مسجد بكين الأعظم الذي يقع في شارع نيوجيه الذي كان عند زيارتنا له قبل أكثر من عِقدين في حالة تصليحٍ وترميم فلم يكنْ مدرجاً ضمن المشاهد، أما اليوم فإن المسجد مفتوح أمام الزوار...

وقد كان من حسن الحظ أن أجده اليوم مبرمجاً ضمن المزارات وأن أقوم بتحيته والتعرف على سَدَنته المشرفين عليه الذين استقبلونا استقبالاً حميماً... والمسجد على حال من نظافةٍ وترتيب جديرين بالتنويه، ولا سيما ما يشتمل عليه من مصاحف في مختلف الأحجام والأشكال: ما يعبر

الصين بين الأمس واليوم

عن أن هذا المسجد يعتبر زاوية من زوايا التراث الإسلامي في العاصمة الصينيه، علاوة على أزيد من ثلاثين ألف مسجد منتشر في أنحاء الصين ومن المهم جداً أن نذكر هنا أن (مسجد نيُوجِيه) هذا ورد ذكره في بعض التآليف المهتمة بتاريخ بيكين، ذكروه مقترناً باسم شخصيةٍ مغربيةٍ تيمنوا بها وكان لها شأن جدُّ هام في تاريخ الصين، هذه الشخصية تحمل اسم (قِوَام الدين السبتي) الذي ورد على البلاد الصينية في العصر الوسيط، والتقى بالرحالة الشهر ابن بطوطة في مدينة (قَنْجَنْفُوُ) وهو الذي رافقه عند مغادرة المدينة في اتجاه عاصمة القان[١٤]...

يعتبر (مسجد نيوجيه) مسجداً عتيقاً في بيكين بتاريخه الطويل وبنائه القديم فهو إذن من المساجد الشهيرة في العالم أيضاً، التي ينبغي أن نتفقدها... سَدَنته يحفظون اسم ابن بطوطة ويرددونه على نحو ما يرددون اسم شهر الصيام!

لقد بني المسجد قديماً حسب ما قلنا[١٥]، وقد عرف عمليات توسيع بحيث أصبح يغطي مساحة ستة آلاف ميتر مربع، تناولت عملية التوسيع قاعة الصلاة، وبناء منارة لرفع الأذان ومراقبه الهلال، كذلك بناء بيوت للوضوء، إلى جانب قسم خاص بالسيدات، ويقوم المسجد إلى جانب الصلاة بدور تثقيفي في العاصمة الصينية، تلقين المؤمنين مبادئ دينهم، وإعطاء الفتوى في بعض القضايا، وعقود الزواج، ومراسم الجنائز، ومصالحه الخصوم، والمحاضرات، وسائر النشاطات الاجتماعية التي تنظم مناسك الحج للراغبين..

وتوجد بضاحية المسجد بعض القبور لبعض الأئمة الذين كانوا يمارسون الإمامة بالناس منذ عهد يوان Yuyan ٦٧٩ - ٧٧٠هـ = ١٢٧١ - ١٣٦٨م وهو العهد الذي شهد زيارة الرحالة المغربي لبلاد الصين حيث اجتمع بقوام الدين كما أسلفنا ومن ضمن محفوظات المسجد تقول الوثيقة التي تحتفظ بها أمانة المسجد، لوحة يرجع تاريخها سنه ١١٠٥ هـ ١٦٩٤م، كذلك يحتفظ المسجد بقطع خزفية كانت تستعمل كمباخر لتجمير العود القماري المستعمل في البخور... ويقوم المسجد إلى اليوم بوظيفته حيث صادفنا وقت الزوال هناك ووجدنا طائفة من المسلمين والمسلمات حاضرين يقومون بفريضة الوضوء استعداداً للصلاة، هناك رحب بنا كبير السَّدنة الذي أهديناه بعض الحلويات المغربية...

وقد كانت المفاجأة التي بوغتنا بها من لدن أحد السدنة حديثهم عن الزيارة التي قام بها لمسجدهم الملك محمد السادس عام ٢٠٠٢... والتي أحضر فيها نسخاً من رحلة ابن بطوطة مما نشرته أكاديمية المملكة المغربية، أحضرها ليؤثث بها رفوف الخزانة الوطنية في العاصمة الصينية[١٦]...

وبعد هذه الزيارة للمسجد كان موعدنا في الغداء بمطعم (قنْجود) المعروف بتقديم طَبَقٍ معروف شهير في الصين يحمل اسم البط المجمّر (Canard laque) حقيقة كانت «احتفالية» طريفةً أخرى استمتعنا بها عندما وقف الطُّهاة ببذلهم البيضاء الناصعة يجعلون على أنوفهم غشاوات، وفي أيديهم قفازات شفافة ليضعوا البطة - بعد سلخها طبعاً- بين أعواد ملتهبة ... يراقبونها حتى لا يبقى منها جانب دون أن يصله نصيبه من النار...

لكن ما هو ألطف عندما يُحضر الفريق الثاني هذا الصحن، وهو - أي الفريق - على حال من الاستعداد للخدمة: أنوفهم - كما قلنا - مغطاة وأيديهم مغلفة، وإنما تتحرك السكاكين بخفة وفن لتوزيع أطراف البطة المجمرة التي يتعمدون تقديمها، ورغم ما في مذاقها من «زهومة» لا تقبلها بعض الأذواق، لكن القوم بطريقتهم الذكية، يقدمون معها توابل متنوعة على صحون صغيرة، ذات مذاقات لذيذة وألوان متعددة، كل هذا التقديم يضاعف من شهوتك لتناول البطة المجمَّرة التي لا نعيرها في المغرب ولا غير المغرب كل هذه «الاحتفالية» التي جعلت منها صحناً معروفاً على الصعيد العالمي...!

وقد استحضرت وأنا أتذوق «زهومة» البطة ما يقوم به بعض الأوروبيين وهم يتعمدون ترك صيدهم حتى يكسب طعماً متغيراً عن طعم اللحم الطري الذي تفضله أذواقنا نحن، على اللحم المتغير الرائحة ... ولكلٍّ ذوقه الذي قد يختلف عن الآخر، وبين أيدينا مثل «الأجبان» التي تختلف نكهتها ويتعدد عشاقها...

مهما يكن فإني أعترف ان «البطة المجمرة» خلقت فينا رغبةً لتجربة إعدادها في البيت بالرغم مما تحمله من زُهُومة!!... وقد لفت نظري أن بعض الزبائن يطلبون أكياساً ليجعلوا فيها بقية البطة مما لم يقدروا على تناوله في المطعم... يصحبون الأكياس معهم انتظاراً لتجدد الرغبة في العودة إلى البطة المجمرة!!

وبعد زيارة لمبنى الأمير كونك Gong قمنا بجولة سياحية ممتعة في أزقة بيكين الضيقة القديمة على متن عربةٍ إنما تسع لشخصين لا ثالث لهما! تجرها دراجة هوائية (Cyc lo pouss) يسوقها صاحبها، كان الله في عونه! لقد ذكَّرني هذا المشهد في حديث ابن بطوطة عن ظاهرة ركوب الناس على رقاب العبيد[١٧]!

وبعد تناول الشاي حضرنا حفلة اختتام المهرجان الدولي الثامن للفنون الفولكلورية في **المسرح الوطني** للصين الذي كنت أعتقد أنه في حجم المسارح التي تعودنا على رؤيتها، لكنني فوجئت بالمساحات الشاسعة التي يقع فيها هذا المسرح الهائل والتي كان «الكرسي المتحرك» وسيلتي الوحيدة للوصول إلى مكان الفرجة...!

كانت عروضاً شيقة جداً من مختلف جهات الدنيا... وعلى مقدمتها الصين ودول الجوار، والفرقة القومية المصرية الرائعة التي كانت تقابل بتصفيقاتٍ من الجماهير الحاضرة...

وابتدأ نشاطنا في اليوم الأخير الذي كان يصادف يوم الأحد ٢٠١٠/١٠/١٧ أولاً وبتوجيه من السيدة الدليلة، بالاستعداد لحزم حقائبنا واصطحابها معنا منذ الصباح ونحن نتجه لسُور الصين العظيم الذي لا تجوز زيارة الصين دون رؤيته أو تسلّقه أو بعضه!! لقد كنت زرته لكنّي صاحبتُ الحفيدة حتى لا أحرمها من رؤية هذه الظاهرة الكبرى التي التبستْ على فريقٍ من الناس في القديم - لبعض الوقت - التبست عليهم بسد يأجوج ومأجوج الذي بعث الخليفة الواثق بالله بسفيره سلاّم الترجمان للصين لمعرفة موقعه على ما يذكره ابن خُرْدَاذْبَه، والذي قال ابن بطوطة عنه بصراحةٍ وصدق: إنه لم يره في الصين ولم يَرَ مَن رآه! ما يعني أن السدّ ليس هو (سور الصين العظيم)[١٨].

الصين بين الأمس واليوم

هذا وقد ذكر لي رائد الفضاء، زميلنا في أكاديمية المملكة المغربية نيل آرْم سترُونك أن سور الصين العظيم هو الشيء الوحيد الذي ظهر لهم من صنع الإنسان من القمر».

وبعد تناول الغداء قمنا بزيارة (قصر الصيف) الجميل الرفيع حيث شاهدنا أفواجاً من الطلبة يطربون ويرقصون... ويتناول بعض المتنزهين هنا الذرة المسلوقة اللذيذة التي تباع من قبل أصحاب عربات متنقلة، والتي تحتلّ لدى الصينيين مكانةً غذائية هامة...

فهل انتهينا من عملنا هذا اليوم؟

لقد كان زميلنا البروفيسور لي قوانْغبين هيأ لنا، بتعاونٍ مع السيد السفير المغربي العلج لقاءً **تلفزيونياً** بمنزله حضرته إلى جانب السفير السيدة مستشارة السفارة التي كانت تتقن اللغة الصينية، كما حضره السيد عُمَر مندوب وكالة المغرب العربي للأنباء سالف الذكر، حيث كان الملتقى مناسبة لتقديم فكرة للشعب الصيني عما يربط بين الصين والمغرب من صلاتٍ تضرب في جذور التاريخ بالأمس، وتعكس بظلالها على حاضرنا اليوم الذي نتطلّع فيه إلى أن تظل تلك الصلات في نموٍ وازدهارٍ لصالح البلدين الصديقين.

وبعد، فقد قصدت من تسجيل هذه الخواطر عن زيارتي الأخيرة للصين أن أؤدي شهادةً صادقة عن هذه البلاد التي شدتنا إليها وشائج قوية، مغتنماً هذه الفرصة لأهنئ الصين بخطواتها الجادة، مؤملاً أن تتذكّر - باستمرار، اسمَ ابن بطوطة الذي نظل نحن المغاربة معتزين باسمه لأنه عرّفنا منذ العصور الوسطى على أكبر دولةٍ في آسيا تحمل اسم الصين ظلت تشق طريقها نحو مستقبلٍ مشرقٍ زاهرٍ مليءٍ بالمفاخر.

إن ما يجمع بين المغرب والصين لا نجد مثيلاً له في علاقات الدول الثنائية أو المتعددة الأطراف، وهذا رصيد يجعل من المغرب ومن الصين حليفين دائمين يسترشدان بالماضي للعمل على ازدهار المستقبل.

الحواشي

1- Macoudi: les praires d'or, trad. Socite asiatique, T.I.P. 286- Paris 1861.

٢- الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي رقم ٧٧٠٥ دار الكتب - بيروت - طبعة أولى عام ١٩١٠-١٩٩٠.

٣- ترجمه عن الفارسية لمقدمة رشيد الدين لجامع التواريخ وتاريخ هولاكو مصر، الطبعة التي نشرها المستشرق الفرنسي كاترمير CATREMERE ... دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠-المجلد الثاني الجزء الأول ١١١ تعليق ١.

٤- تحقيق رحلة ابن بطوطة، د. عبد الهادي التازي، المجلد الرابع، ص ٢٨٤ التعليق ٧٥، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، رقم الإيداع القانوني (٩٧/٣٢).

٥- د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج١٠ تعليق ٣٩، رقم الإيداع القانوني ١٩٨٦/٢٥، مطابع فضالة - المحمدية - المغرب.

٦- يراجع المجلد الرابع من تحقيق رحلة ابن بطوطة ص١٢٠-١٢١.

٧- د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج١٠ ص ٢٨-٢٩ مصدر سابق..

٨- وكالة المغرب العربي للأنباء MAP دجنبر ١٩٦٣- وكذا الوكالة الصينية للأنباء في ذلك التاريخ.

٩- د. التازي: الصدى الدولي لعلال الفاسي، شريط بمكتبة مؤسسة علال الفاسي - شارع محمد السادس - الرباط.

١٠- أرشيف أكاديمية المملكة المغربية، حيث يوجد نص اتفاقية التعاون.

١١- نشره البنك المغربي للتجارة الخارجية ربيع ٢٠١٠.

١٢- د. التازي: تحقيق رحلة ابن بطوطة نشر أكاديمية المملكة المغربية ج ٤ ص ٢٥٩رقم الإيداع القانوني (١٩٩٧/٢٢١).

١٣- جريدة العلم عدد الثلاثاء ٢ نونبر ٢٠١٠.

١٤- د. التازي، تحقيق رحلة ابن بطوطة، طبع أكاديمية المملكة المغربية ، مصدر سابق، ج ٤ ص ٢٧٩- ٢٥٠ تعليق رقم ٧٠.

١٥- د. محمد بن عبد الرحمن البشر: سفير السعودية بالصين :حضارة الصين، ص ٩٨- ٢٠٥، طبعة دار الهلال الأزرق هونغ كونغ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

١٦- وكالة المغرب العربي للأنباء ٤-١٠ يبراير ٢٠٠٢م.

١٧- حلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٦ مصدر سابق.

١٨- د. التازي، تحقيق رحلة ابن بطوطة، ج ٤ ص ٢٧٤ تعليق ٦٤ الذي يذكر أن سور الصين بني منذ ٢٢١-٢١١ قبل الميلاد من قبل مؤسس الإمبراطورية تسي شي هوانك تي.
Tim mackintosh smith: The travels of ibn Battutah, London 2002 p 265 - 322.



الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقّري التلمساني

(دراسة في مبدأي الموافقة والتوفيق في نفح الطيب)

الدكتور / عبد العزيز شويط
جامعة جيجل - كلية الآداب - قسم اللغة والأدب العربي
الجزائر

مقدمة

ما زلنا نسمع عن النقد هل هو فن أم علم وما زلنا نجد الناس مختلفين بشأن هذه المسألة المعرفية والعلمية ما دامت تطرح انشغالا معرفيا مشكلا في شكل أسئلة يستفاد منها في تزويد العقل البشري بمفهوم أو حد أو تعريف مجال ونشاط بشري ثقافي على درجة كبيرة من الأهمية لتعلقه بالجمال والفن والأدب الذي يراعي الفائدة مقصدا من مقاصده، بما يندرج ضمن الفائدة المتحدث عنها من متعة.

ولذلك رأينا من عد النقد فنا، ليس بمعنى الصنف، وإنما بالمعنى الذي تحوزه الفنون الجميلة بالاعتماد على عنصر أساسي في العملية النقدية وهو الذوق، وهناك من عده علما لارتكازه على المنهج والشرح والتعليل والتحليل أو الدرس عموما. كما رأينا من كانت نظرته توفيقية بين هذا وذاك حين جعل من النقد فنا للاعتبارات السابقة وهو أيضا علم لذات الاعتبارات التي اعتمد عليها من قال بأنه علم ومن ثمة جمع بين الفنية والعلمية.

هذا من حيث المفهوم والتنظير للنقد ولكننا أحيانا - وعندما نغير وجهة النظر الجشتالتية إلى النقد من حيث هو نشاط ثقافي مكتوب، إننا إذا قلنا ذلك ونحن واعون بالفرق بين النص العلمي والنص الأدبي العلمي - نجد بعض النصوص النقدية، وانطلاقا من اللغة الراقية أدبيا التي كتب بها النص النقدي الدراسي، أو لاعتمادها- وهي تشرح وتعلل وتقوّم وتقيّم، على عناصر أدبية كالأسلوب والخيال والعاطفة أحيانا وإن كان ذلك الاعتماد على هذه المعطيات جميعها قليلا ، ساعتئذٍ يمكن أن نقول عن النص النقدي بأنه فن؛ لأنه اكتسب ميكانيزمات الفن ولم يكتف بلغة وأسلوب النثر العلمي التقريري.

هذا وناهيك عن أن نفترض غلبة النموذج الشعري في إنتاج النقد ولا أقصد بعض الخطرات النقدية التي ولدت ووجدت شعرا عند بعض الشعراء حول المذهب الأدبي أو التجديد الأدبي أو غير ذلك

من الرؤى النقدية، وقد وردت في سياق القصائد الشعرية أو القصص أو الروايات على اعتبار أن الأدب تعبير جميل عن التجربة الإنسانية في حده المشهور والمدرسي أيضا، والنقد تجربة إنسانية فما الذي يمنع من اتصافه بذلك ؟ هذا عن النص الشعري الناقد ويمكن اعتبار نقد بعض الأدباء الجامعيين فنا وأدبا كطه حسين والعقاد وأدونيس وغيرهم كثير.

لقد حدث ذات الأمر في عصور سالفة، وبالضبط عند العلماء والنقاد القدماء، من قال بأن الاختصاص لا يؤثر في صاحبه حتى يطبعه بطابعه؟، ثم أليس من حق الأديب العالم حين يتعامل مع الناس أن لا يظهر أثر علمه وأدبه فيهم؟ ذلك تحصيل حاصل. ومن هنا سوف لن نرى بين أسلوب العالم في تعامله مع طلبته وبين أسلوبه في تعامله مع الناس اختلافا كثيرا، كما سوف لن نجد كثير تبدل في أسلوب الأديب العالم حين يخوض في مسائل العالم بما في ذلك التأريخ لتحكمه في زمام اللغة الراقية والأسلوب الجميل.

مبررات الموافقة والتوفيق في نفح الطيب

نعم – ومثلما سوف نرى – أن الأسلوب العلمي لا بد أن لا يكون هو نفسه الأسلوب الفني الأدبي، ولكن الأديب يجد صعوبة في تبديل مسار ونوعية كتابته وخوض غمار التبسيط حين يتناول موضوعا علميا، وإن رام ذلك فستبقى بعض آثار أسلوب الأدب الراقي شاء أم أبى.

هذا حين ينتقل بين مجالين معرفيين البون بينهما شاسع جدا، أما حين يكونا قريبين من بعضهما، وليكن ذلك مثلا الأدب والفلسفة أو الأدب والتاريخ، أو الأدب وعلم الكلام وعلوم الدين، وهو ما من شأنه أن يقلّ حدة كلما ابتعدنا عن التقارب بين المجالين المعرفيين وليكونا مثلا الأدب والطب أو الأدب والفلك... الخ. ومع ذلك فهذان المجالان المعرفيان – في حال مداخلتنا هذه – ليسا الشعر والتاريخ وإنما هما السيرة والتاريخ، ومن ثمة فإنهما ليكادان يكونان شيئا واحدا إذا كان المؤرخ أديبا كالمقري رحمه الله.

وأما المدعاة الثانية للتوفيق إلى جانب ما سبق ذكره من الطبع الراقي في التعبير فهو الجمع بين المجالين: الأدب أو السيرة أو التاريخ في كتاب واحد فاقترانهما الحضوري إلى جانب اقترانهما المفهومي عزز للمقري الميل إلى ضرورة التوفيق بين لغة النثر الفني الواجب توفره في السيرة والترجمة لانتمائهما إلى الفن والأدب وبين التأريخ الذي هو أقرب ما يكون إلى العلم رغم كونه ليس من العلوم البعيدة عن الأدب.

قد يجتهد المؤلف قصدا وصناعة وتكلفا أحيانا لكي تكون لغته راقية وفنية وهو يؤرخ لقامة من قامات السيف والقلم لسان الدين بن الخطيب، ولبلد الماء والخضرة والوجه الحسن فردوس العرب المفقود الأندلس ليوافق بلغة تعبيره هاذين الأنموذجين لسان الدين والأندلس، وهو قصد له ما يبرره، إلا أن المقري هنا في نفح الطيب وفي سيرته هو ذاته لم يعمد إلى أي تكلف ولا إلى أي تمحل أو صناعة، فالرجل من خلال إيجاده القبول في بلاده والحضوة في مصر والمنزلة الرفيعة في بلاد الشام لعلمه وتأدبه وتبحره في مجال الخطابة والعلم وخاصة علوم الدين حتى وجدنا من يقول عنه نقلا عن المحبي في خلاصة الأثر: ((... ونزل عن الكرسي، فازدحم الناس على تقبيل يده، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق

الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقري التلمساني

له من الحظوة وإقبال الناس)). ولست أدري أن جميع من تعرض إلى المقري بالدراسة والترجمة حين يصل إلى تآليفه يبدأ بالنفح على الرغم من أن هذا الكتاب ليس هو أول كتاب ألفه المقري، إن لم يكن آخر كتبه، فقد ألفه سنة ١٠٢٩ ميلادية وتوفي سنة ١٠٤١ ميلادية، وإنما مرد التسبيق إلى الأهمية والشهرة والذيوع وهو كتاب سيرة أدبية.

ألف المقري هذا الكتاب استجابة لرغبة شامية دمشقية ورغبة نفسية مغربية أيضا، فقد تكون في خاطره أفكار من أهمها العلاقة بين المشرق والمغرب والصراع الخفي بينهما منذ مقولة « هذه بضاعتنا ردت لنا » وفي قلبه الشوق إلى بلاده والمفاخرة إبراز فضل المغرب والأندلس برجالهما وأرضهما، ثم إن الحالة التي يعيشها المقري ليست هي حالة نفي لسان الدين إلى أغمات ولكنها تشابهها من حيث كونها غربة عن الوطن الأول وهو المغرب المرتبط بالأندلس، ثم إن الأندلس تشهد خروج راية الإسلام منها من دون رجعة فهذا من شأنه أن يكون دافعا للمقري لكي يكتب هذا الكتاب. بالإضافة إلى أسباب أخرى ذكرها الدكتور إحسان عباس في مقدمة تحقيقه للكتاب منها إعجابه بلسان الدين والتنفيس عن كرب نفسه في الغربة وغيرها[١].غير أن المحقق لا يصنف الكتاب أهو تاريخ أم سيرة، بل يضعه ضمن الموسوعات فيقول عنه بأنه موسوعة، وسوف لن يتحدث عنه في كتابه فن السيرة بتاتا على اعتبار أنه لا يريد أن يبتره ويفصله عن السياق الذي كتب فيه مجموعا، كتاب تاريخ وكتاب سيرة لسان الدين وهما معا ليسا شيئا واحدا.

وبعد، فمن حقنا أن نتساءل: هل كان دافع المقري إلى تأليف النفح العقل والمعرفة أم الأشواق والنوازع القلبية أو العاطفة ؟ والحق أنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد،وكان في صدور الكتاب عن القلب أقرب وأميل رغم أنه ألفه ليعرف به من لا يعرفه،ولكنه أيضا ألفه تنفيسا عن نفسه ومفاخرة بأهله وبلده وإثباتا لحقه ونفيا لدواعي إنكار قدره وكل ذلك من شأن الأدب.

إذن تجمع آراء النقاد والدارسين على أن المقري شاعر وأديب من الطراز المحترم لكي لا أقول الراقي، فالرجل بالنظر أولا إلى طول باعه في ممارسة الأدب والنقد اكتسب لغة راقية وأسلوبا جميلا فهو إلى جانب كونه من العلماء الكبار كما يشهد عليه الباحثون المتأخرون[٢] ولاسيما من تخصص في الدراسات الأندلسية والمغربية في ميداني الشعر والنثر،كل ذلك برغم ما قيل عن سمات العصر الذي عاش فيه المقري في ميدان الأدب بأنه عصر الصناعة والتكلف وتبعيته لطريقة القاضي الفاضل سواء عند لسان الدين بن الخطيب أو عند من كتب له ترجمة وهو المقري،ومع ذلك فهم أدباء فنانون افتقروا إلى التجديد وانتهجوا التقليد ولم يخرجهم ذلك من حيز الأدب ومنهم المقري في كتابه النفح،لأن هذا الكتاب هو أقرب الكتب إلى الأدب،بل هو الأدب عينه إذا نظرنا إلى بقية تآليفه بما في ذلك منظوماته العلمية الموزونة وما هي بالأدب ولا بالشعر. وبما في ذلك سيرته التي كتبها للقاضي عياض « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » ولا حتى « روض الآس العاطر الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » ولا عيب للمقري في كل ذلك فالعصر هو العصر العثماني بكل ما يميز هذا العصر من تقهقر في جميع العلوم العربية وآدابها.

يتحدث الدكتور شوقي ضيف أيضا عن سمات

النثر في هذا العصر والمقري ضمنه فيقول مثبتا الأدبية عليهم ونافيا التجديد عنهم: ((... إنما تجد أدبا مكررا معادا، قد كررت أساليبه))[٣] وليس معنى هذا – كما أسلفنا – أنهم ليسوا أدباء بدليل أنه قال: «تجد أدباء فلم ينف عن نتاجهم ذلك صفة الأدبية.

لقد كتب المقري في النفح سيرة وترجمة لسان الدين ولم يكتب تاريخه، والفرق بين المجال لا يخفى على دارس، وكان بإمكانه أن يكتب تاريخا له كما كتب ابن خلدون التاريخ، فالرجل (المقري) كتب عدة كتب، لم يسقط فيها لغويا وفنيا، ولكن النفح أرقاها أدبيا، والسبب هو الاحتكاك بالموضوع الأدبي أثناء مزاولة فعل الكتابة عن شاعر أديب والثاني الرقي الحاصل في لغة المقري حين استقر به المقام في أرض الشام الوطيدة العلاقة بالأندلس في مرحلة زمنية من عمره تختلف تأخرا عن بقية المراحل العمرية التي كتب فيها بقية كتبه، وكل ذلك ليحقق الموافقة التي نجدها في قدر لسان الدين بن الخطيب الذي كان: ((نفيس العدوتين ورئيس الدولتين بالاطلاع على العلوم العقلية والإمتاع بالفهوم النقلية))[٤]، وليس بنا من حاجة هنا أن نستفيض في ذكر قيمة وقدر لسان الدين بن الخطيب، وإنما يكفي أن ننبه إلى أن هذا الاسم قد ارتبط بالنفح كما ارتبط بالمقري كما ارتبط الملك صلاح الدين بالقاضي الفاضل، وحتى وجدنا من يقول: ((وخصص له المقري مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما عرضا واسعا لأساتذته وحياته السياسية والأدبية. وإذا كان لسان الدين لم ينجح في حياته السياسية فقد نجح نجاحا عظيما في حياته الأدبية وهي حياة كانت منوعة))[٥] والكتاب لا بأس بأن نذكر بعنوانه الكامل وهو «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» بكل ما يعنيه الجمع بين الأندلس ولسان الدين في كتاب واحد وهو جمع وملازمة منطقيين غير أن المزية في كونهما يتسابقان إلى البروز بجلاليهما في هذا الكتاب بحيث لا يكاد يغلب أحدهما الآخر والمفارقة قد تختلف في حال ذكر بلد في قدر مصر مثلا إلى جانب كافور الإخشيدي الأستاذ مع احترامي الشديد لهذا الرجل.

الفرق بيّن بين هذا وذاك على اختلاف مرتبتهما السياسية واختلاف زمنيهما ومكانيهما وظروف اعتلائهما مركزيهما، فكما يشهد الدكتور محمد رضوان الداية: إن لسان الدين كان ((أعجوبة زمانه... ومن أشهر موشحاته موشحته التي يعارض فيها ابن سهل))[٦] وهو ما لم يقل عن كثير من الناس ممن تولى السلطان وحتى الوزارة غيره، كما تثبت لنا هذه الشهادة علو همة الرجل في السياسة والأدب، القلم والسيف. وليس بنا من حاجة هاهنا أيضا أن نتحدث بالدليل عن جمال الأندلس وفضلها على كثير من البلدان بخيرها.

قد نجد خطرات نقدية عند الكثير ممن يؤرخون للدول والممالك والملوك إن كان فيهم أديبا من العامة أو من الخاصة، وهي قليلة جدا (الخطرات النقدية) إذا ما قيست بكتاب نقدي ككتاب العمدة لابن رشيق مثلا، ولكن المعطى النقدي يكبر ويكبر إذا كان العمل أو التأليف كتاب سيرة لشخص الشعراء حوله كثر مما يعطي التأليف أدبية العمل وهو كتابة السيرة وأدبية من يكتب عنه سيرة من خلال من حوله من الأدباء والشعراء ولو في شرح غريب قصيدة أو تسجيل خطبة له أو لغيره، أما إذا كان التأليف كتاب ترجمة وسيرة لرجل أديب في

الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقري التلمساني

بلد كثر فيها الأدب وفي عصر ازدهار للأدب ولو بالصنعة التي تحدث عنها الدارسون فالأمر مختلف جدا يقتضي الموافقة ويقتضي التوفيق، لضرورة الجمع بين الرجل وبلاده ولأن السيرة أصلا تختلف عن الترجمة من خلال تعلقها بالمجتمع والبلد والعصر وذكر خصائص كل ذلك ومميزاته.

نعم نجد في النفح المعطى التاريخي ولاسيما في الشق الأول من الكتاب وهو غالب، ولكن المقري اعتنى بشاعرية وأدبية لسان الدين أكثر من أي شيء آخر مما يرجع لدينا كونه سيرة، بل ويعد النفح أصلا لكثير من المعلومات التي وردت عند ابن سعيد المراكشي ولاسيما حين يعرض هذا الأخير إلى ما عرض إليه المقري من الترجمة للأدباء والشعراء[٧] وفي هذا التخصيص ما يغني من إثبات الترجيح السالف الذكر، ثم إن محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي في تحقيقهما للمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي يكثران من المقارنة بين عبارات المقري حول بعض الأحداث في المغرب والأندلس وبين ما عبر به المراكشي ويميلان كثيرا إلى تفضيل عبارات المقري وكل ذلك في هوامش الكتاب مما يثبت الفوارق بين نص تاريخي عند المراكشي ونص أقرب إلى الأدب والفن عند المقري[٨] وهو ما رمنا إثباته من أدبية المقري ليكتب عن أديب وفارس قلم.

علم التاريخ (المفهوم والمنهج)

الحق أن الإخباريين المسلمين ومنهم من تصفحت مقدمة كتابه كمقدمة مروج الذهب للمسعودي والبداية والنهاية لابن كثير والكامل للطبري والمحن لأبي العرب لم تكن صورة التاريخ أو مفهوم التاريخ واضحة لدى أي كاتب من هؤلاء، سوى ما رأينا من عطفهم الأخبار على التأريخ والتنويه على أن الكتاب كتاب تاريخ للاعتبار وللتسجيل وللعلم بالماضي، حتى جاء العلامة ابن خلدون فحدد المفهوم والعلم بدقة وتبحر في الأمر حتى نال الحظوة التي رأيناه نالها في العالمين العربي والغربي بسبب مقدمة تاريخه التي هي أشهر من نار على علم، والمشكلة أن الأوائل المحدثين الذين حاولوا كتابة التاريخ العربي والإسلامي لم يقدموا لمؤلفاتهم بتعريف التاريخ وذكر مبحث تنظيري لعلم التأريخ ولو نقلا عن هيرودوت بالنسبة للمستشرقين الغربيين وارثي الثقافة الإغريقية وأعني حتى تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان وتاريخ الشرق الأدنى القديم لأنطوان مرتكات مثلا، ولا حتى العرب وارثي الثقافة الخلدونية، على أن الثقافة والحق يقال موروث بشري إنساني سواء عند هيرودوت أم عند ابن خلدون. حاشا الدكتور توفيق برو في مقدمة كتابه تاريخ العرب القديم فقد تحدث عن تعريف التاريخ أو مفهومه، حين عبر عنه بأنه علم من العلوم الاجتماعية ذو قواعد خاصة يبتعد عن الأسطورة وينبني على الشك، وهذا نقلا عن جوزف هوراس في كتابه قيمة التاريخ[٩] وهو ما تفاداه قبله أرنولد توينبي في مقدمة كتابه « تاريخ البشرية» حين تحدث عن مجريات التأريخ الحديث كعلم يشق طريقه بين العلوم القديمة الحديثة[١٠] و مجمل القول إن التاريخ ليس هو علم التاريخ، مثلما أن الأدب ليس هو علم الأدب، كما أن الفقه ليس هو أصول الفقه ولا اللغة هي علم اللغة، فإذا كان علم التاريخ هو التنظير لعملية التأريخ مفهومها وأهميتها ودوافعها وأسبابها وما إلى ذلك،

فإن التأريخ أو كتابة التاريخ هو تسجيل الأحداث الماضية، ويقول أكثر دقة وتعمقا رصد ((عملية التطور الفعلية لشيء ما، مثل تطور المجموعة الشمسية ونشوء الإنسان وتاريخ المجتمع البشري وتطور التكنيك واللغة والفكر والعلوم فهذه كلها تمثل التاريخي، أي عمليات موضوعية، تمت أو تتم الآن))[١١]، بل ونرجع إلى من له الحق في التكلم في التاريخ وعلم التاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول: ((اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين...))[١٢] وما إلى ذلك من كلام ابن خلدون في الفصل الذي تلا خطبة الكتاب وهو مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها، والجدير بالذكر أن ابن خلدون لم يعد الحديث عن التاريخ حين حديثه عن العلوم بعد فراغه من الصناعات، و ذلك لأنه قد قدم لكتابه التاريخي في مقدمته بمقدمة تتعلق بالتاريخ وعلم التأريخ فأغنى ذلك عن إعادة ما قاله أثناء حديثه عن مختلف العلوم.

وأما التاريخية كمبدأ فهو ((مدخل في دراسة الواقع وتفسيره، يتطلب النظر في الأشياء والظواهر في ضوء الظروف التاريخية الملموسة لنشوئها وتطورها. ويقوم هذا المبدأ على أن كافة أشياء العالم الموضوعي وظواهره مترابطة ومتغيرة أبدا... ويتيح مبدأ التاريخية لا التفسير الصحيح لماضي الأشياء (الظواهر) وحاضرها، فحسب، بل ورصد نزعة تطورها مستقبلا... ولا يقتصر هذا المبدأ على دراسة الأشياء والظواهر، وإنما ينسحب على نتائج المعرفة. فهو يعني أن أية موضوعة عن الطبيعة أو المجتمع يجب ألا تؤخذ على نحو مجرد، وإنما في ارتباطها بتطور مجمل المعارف في مجرى التغيير التاريخي لنطاق التجربة البشرية))[١٣] كما أن المبدأ التاريخي هو ((مصطلح ياسبرز، يعني به التضامن والوحدة بين الأنا التاريخي وبين الآنية، ويسمى الشعور بهذا الوحدة الشعور التاريخي، وعنده أن التاريخ خلاف التأريخ، والشعور التاريخي أو التاريخية بخلاف الشعور التأريخي أو التأريخية Historismus فالتأريخ هو العلم بحوادث الماضي خلال التسلسل الزمني للعالم، والتاريخ هو شعور الذات بما حققته من مظاهر نشاطاتها المختلفة. والشعور التاريخي هو النور الذي يوضح تاريخية الآنية ويتبدى في كل حالة أريد فيها أن أدرك العلو، أي أن أدرك أنني أريد من خلال المواقف التي أوجد فيها، الخروج من هذه المواقف والعلو عليها، ابتغاء تحقيق إمكانيات جديدة))[١٤] ولذلك نجد الحقيقة التاريخية هي المقصد من التاريخ وما تعلق به من علم التاريخ، ولا دخل للخيال ولا للمجال الروائي (الرواية الأدبية) في مجال التاريخ الصرف[١٥] ومن ثمة فالتاريخ أقرب ما يكون إلى علم الآثار منه إلى الأدب الذي منه السيرة والترجمة الأدبيتين.

الترجمة والسيرة الأدبية (اللغة والخيال، العاطفية والشخصانية وظروف العصر والمكان والزمان).

نحاول أن نتلمس مفهوم جنس أدبي من أجناس النثر العربي من خلال نظرة أحد أقطاب النقد العربي المعاصر الدكتور إحسان عباس الذي كان له شرف تحقيق نفح الطيب للمقري ويا لها من صدفة غريبة.

يبدأ الدكتور إحسان عباس أول فصل من كتابه فن السيرة بأول فقرة يقول فيها بأنها: ((القدرة

على الإحساس بالتاريخ، كسائر المزايا الإنسانية، موطن للتفاوت بين الأفراد، ومجال تتباين فيه الجماعات والأمـام...))[١٦] والحق أننا سنتغافل على نصيحة الأحنف بن قيس ونجعل ثلثنا فطنة وثلثينا تغافلا ونتساءل جدلا أمام هذه الفقرة: ما دخل هذا الكلام بكتاب ككتاب فن السيرة؟ لنجيب بأن العلاقة بينهما جد وطيدة إن لم تكن السيرة تاريخاً وتاريخاً ممتازاً بلغته وأسلوبه وبعض الخيال فيه، لأن الأدب لا يفارقه الخيال ولو على شكل صور البلاغة والبيان المختلفة كالتشبيه والكناية والاستعارة والمجاز.

ثم إن الدكتور إحسان عباس يواصل الحديث في هذا الكتاب عن التاريخ عبر صفحتين ليقرر في الصفحة الثالثة بأن ((الحس التاريخي هو الأب المنجب للسير يوم كانت السير جزءا من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانبا هاما من تصور الناس للتاريخ، وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يكيف الأحداث ويرسم الخطط، ويقوم بالتفكير والتنفيذ، وتتضاءل إلى جانبه - أعني جانب الفرد العظيم - كل حقيقة أرضية أخرى.

ففي أحضان التاريخ -إذن- نشأت السيرة وترعرعت واتخذت سمتا واضحا، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفهومات، فكانت تسجيلا للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك...))[١٧] مما يعني رصد الصفات التي تجعل من التاريخ سيرة ولا يمكن أن يكون النص سيرة إذا خلا منها وليكن تاريخا إن شاء. والفرد في السيرة هو الأساس أو المركز والفلك الذي تدور حوله الأحداث، ألا ترى أن هذا الشرط غير محقق في التاريخ سواء التأريخ العربي الحديث، أو التاريخ العربي القديم، حتى أن الإخباريين المسلمين تراهم يحددون العناوين بالسنوات والتواريخ، فمثلا أحداث عام كذا وتعقبها أحداث عام كذا مهما لم يتغير عن عصر الدولة الواحدة، بل الأكثر من ذلك الخليفة أو الملك، أو الوالي والأمير الواحد.

إن هاهنا فروقا بين التاريخ والسيرة إذن، بل الدارس نفسه يناقش مسألة ((أحقا أن السيرة جزء من التاريخ؟))[١٨] ليخلص حسب ما رأينا إلى أن السيرة وطيدة العلاقة بالتاريخ ولكنها شيء والتاريخ شيء آخر للاعتبارات السابقة ولاسيما حين يتعلق الأمر بشيئين مهمين هما النظرة الحديثة للتاريخ والنظريات الحديثة بخصوص الأجناس الأدبية ومنها فن السيرة الغربي والعربي. ((على أنا إذا استبعدنا النظرة الحديثة في فهم التاريخ، وجدنا أن السيرة كانت من ناحية عملية تاريخا في نشأتها وغايتها، وإننا حين نريد أن نقيسها بمقياس جديد نستطيع القول: كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة - في هذا الوضع - تحقق غاية تاريخية.، وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها تكون بالتاريخ واهية ضعيفة))[١٩] وعلى الكل فهي سيرة في الحالتين لاقتصارها على الفرد وجعله المحور والمركز والكوكب الذي يدور كل شيء حوله، بدليل أن المقري أراد أن يكتب لأهل الشام عن لسان الدين بن الخطيب فلما أحس بأنه سيروي لهم كثيرا من الوقائع متعلقة بأزمنة وأماكن وحوادث لا معرفة للشاميين الدمشقيين بها، فاضطر إلى سرد الوقائع التاريخية والحديث

عن الجوانب الكوزموغرافية للطبيعة الأندلسية وحتى المغربية وكل أرض وطئتها رجل لسان الدين ابن الخطيب في أيام عزه وفي أيام نفيه.

تكون السيرة إذا متعلقة بشخص واحد كمركز وتكون لغتها أدبية تتوفر فيها عناصر البيان والخيال، كما لا تغفل المكان والزمان والسياق الذي فيه نما وترعرع هذا الشخص المترجم له - على اعتبار أن السيرة ترجمة مطولة على أخف الآراء - ثم ما افترضه الدارسون والنقاد المحدثون من وحدة البناء وما إلى ذلك من شروط كون السيرة سيرة، على الأقل اليوم ويمكن تلمس بعضها في السير القديمة قليلا أم كثيرا. بالإضافة إلى العاطفة والصدق، حيث لا بد أن يظهر شعور الكاتب للسيرة في سيرته ليكون الأدب أدبا، ولا يجب أيضا الانجراف نحو الخيال المنافي للصدق واختلاق الأحداث، الصغيرة فضلا عن الكبيرة، خاصة إذا افتقدت إلى المنطقية.

نفح الطيب بين هذا وذاك

للنفح تحقيقان علميان بين يدي:تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وتحقيق الدكتور إحسان عباس، وإن كان تحقيق هذا الأخير يجعل النفح تعريفا بلسان الدين تصنيفا فإن محمد محيي الدين عبد الحميد يصنفه على أنه تعريف بالمقري أيضا، والتعريف من باب الترجمة والسيرة،على الأقل بالنسبة للنية الأولى التي لأجلها تم التفكير في تأليف الكتاب كداع، والتي تمت المحافظة على نصفها وأضيفت إليها أشياء أخر. والحجة في ذلك ما ذكره المؤلف المقري نفسه من خلال التسمية الأولى للكتاب والتي تنازل عنها وغيرها وهي «عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب» ولك أن تتصور تعريفا بشخص ما في مجلدات ضخمة ماذا يمكن أن يكون أو يسمى أو يصنف؟(٢).

والحق أننا لا يجب أن نتغافل عن إشارة إحسان عباس بخصوص تطور المعارف والعلوم ولاسيما علم التاريخ، إذن يتعلق الأمر بنظرات حديثة للمعارف والفنون والعلوم والآداب، مما يعني أن النظرة تتبدل وتتغير بتغير الزمان، ومنه يمكن لنا الاجتراء على جرجي زيدان حين جعل النفح تاريخا. وهنا يجدر بنا النظر لنكشف الغبار عن جنس النفح ونوعه أعلم هو أم فن؟ أتاريخ هو أم أدب ومنه هل هو سيرة؟ أن نتساءل: هل كتب الإخباريون المسلمون المعاصرون للمقري تحديدا تواريخهم بنفس الطريقة التي كتب بها المقري النفح لغة وأسلوبا ومنهجا وقصدا في الكتابة ليصح أن نقول عنه أنه تاريخ كبقية التواريخ؟ بما في ذلك الطبقات وتعريف السلف برجال الخلف؟ وهل النفح أقرب إلى سيرة عمر بن عبد العزيز وما كتبه القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين أم هو أقرب إلى كتب التاريخ؟ كل ذلك تجيبنا عنه حقيقة النص.

لا يجب أن نتغافل في مثل هذه الحال عن أمر كررناه عدة مرات وهو القصد والنية من تأليف الكتاب وهو الذي صرح به المقري ذاته وهي التعريف بابن الخطيب، وما أشبه التعريف بالسيرة، ثم خرج بعد ذلك إلى الاستطراد الذي عابه عليه شيخ المحققين محمد محيي الدين عبد الحميد ولا أرى الدكتور إحسان عباس إلا مطلعا على هذا التحقيق الذي سبق تحقيقه ومهتد بنوره للتشابه بينهما في الأحكام وفي منهج التحقيق فالمنهج العلمي واحد وإنما الاختلاف في مقدمة التحقيق نفسها.

الدكتور إحسان عباس - محقق كتاب النفح - لم يتحدث عن النفح في كتابه فن السيرة، ولست أدري هل كان ذلك عفو الخاطر من باب التمثيل والاستشهاد على هذا الفن الضارب بجذوره في التراث الأدبي العربي؟ أم كان إغفال ذكره عنده من باب الموقف، غير معتبر النفح سيرة، خاصة وأنه جعله وفق ما جعله صاحبه تعريفا، وقد أكدنا على أن المقري ذاته سماه تعريفا بلسان الدين ابن الخطيب وما اقتضاه ذكر الرجل العظيم من إلحاق الأندلس به، ثم أصبح الملحق سابقا من باب تحديد المفاهيم وإعطاء المفاتيح.

ثم لا يجب أن نغفل حقيقة طالما أكد عليها الدكتور إحسان عباس في كتابه فن السيرة وهي الحديث عن ما سماه السيرة التاريخية وربما كان يعتبر النفح سيرة رغم أنه لم يقل ذلك فيقول عنها: ((ونستطيع أن نقرر من غير تعميم بأن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين وهي تجمع أحيانا بين الغاية الخلقية وغاية المتعة التي تحققها السير الأدبية، ولكنها قد تكون منبعثة عن مجرد الرغبة في التأريخ، أي تكون غاية في نفسها، لأن المؤرخين المسلمين كانوا يرون السيرة جزءا من التاريخ بل يرون أن التاريخ ليس إلا سير الحاكمين))[٢١] وهو نفسه ما فعله المقري لولا ما شغل به نفسه وأثار به النقاد والدارسين والمحققين حتى جعل بعضهم النفح تاريخا وسكت البعض عنه فلم يصنفه بل استعاض عن تصنيفه بذكر ما ذكره هو نفسه وهي كلمة تعريف، وأعني بذلك الاستطراد والحديث عن الأندلس بشكل مطول، وبشكل مستقل أيضا وهذا أمر مهم جدا، لولا أن الرجل صرح بالنية وعلل لماذا يتحدث عن الأندلس بهذا الشكل وهو في صدد التعريف بشخصية لسان الدين.

لو تعلق الأمر بالسيرة الحديثة كفن ذي قواعد كما هي عليه فنون اليوم الأدبية من قصة ورواية ومسرحية لسلمنا لمن جعله تاريخا وربما لوجدنا عذرا لمن سكت عن جعله سيرة كبقية السير التي شابهت النفح وتجنبت الاستطراد والبحث الكوزموغرافي عن الأندلس وغير الأندلس ولكن الأمر يتعلق بالسيرة قديما، فن غير متطور، غير مكتمل النمو والخصائص الفنية والقواعد المنهجية لكتابته كما هي اليوم، ألا ترى أن كثير من الدارسين قد أحجم عن جعل ألف ليلة وليلة قصة وعن جعل خيال الظل العربي مسرحا وهكذا؟ فلقد ((ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة والمشاهدات، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بالتطور الزمني، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام، ودون محتوى واف كامل))[٢٢] مما يعني أن ما ينسحب على هذه الأعمال ينسحب أيضا على النفح للمقري، فلا يجب أن نحاسب الرجل على ما لم نحاسب به غيره ممن عاصره وكتب مثلما كتب هو، اللهم ما فتح الباب واسعا للتشديد عليه دون غيره وهو الاستطراد والخروج إلى ذكر الأندلس.

نحن لا نسلم إذن مع جرجي زيدان بأن يجعل من المقري مؤرخا ولاسيما حينما -وهذا ليس دليلا- يجعله مع ابن خلدون في الحديث عن محتويات بعض مكتبات الأندلس وبلوغها أربعمائة ألف مجلد[٢٣] فعلى الرغم من أن الدكتور شوقي ضيف يجعل من عصر المقري عصر جمود في النثر الفني العربي ويجعل السبب في ذلك إلى الجانب العلمي الممتزج بالنثر الفني يقول عن

المنشئين الفقهاء أصلا: ((وطبعوا النثر بطابعهم العلمي الجامد، وكانوا يسجعون في كتابتهم، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية التي عرفوها في دراستهم... وأخذوا يعممون السجع في الكتابة التاريخية، وخاصة تلك التي تتصل بترجمة الأدباء على نحو ما نجد في الذخيرة لابن بسام وقلائد العقيان ومطمح الأنفس لابن خاقان، وجنح ابن الخطيب إلى السجع في بعض جوانب كتبه، وكذلك صنع المقري في نفح الطيب وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران حول المعاني والصور التي يجترها الأدباء اجترارا. وقد سرت حينئذ ظاهرة هامة هي التعبير بالأساليب المحفوظة التي لا تفصح عن فكرة محدودة))[٢٤] وهذا القول للدكتور الكريم شوقي ضيف يمكن التجاوز عن بعض جوانبه ولا سيما ما تعلق منها بتعامله على نثر هذه الحقبة حتى لكأنهم هم من ابتدع التصنع إن ثبت عليهم ارتكابه وإن كان جرما أصلا مع العلم أنه طبع عصرا بأكمله كان فيه المغاربة والأندلوسيون تابعين لإضرابهم في المشرق العربي، ولست أدعي أن عقدة المشرق من المغرب تظهر هاهنا ومرد ذلك إلى التبعيض الذي وصف به الدكتور تصنع المقري فيما أوردت له من قول سابق، والمهم هنا هو الاعتراف الضمني بالحدود الفاصلة بين التأريخ وفن الترجمة والسيرة ولو بالتصنع كمصطلح نقدي أدبي وهو بالضرورة لا علاقة له بعلم التاريخ، إلى جانب أن هذا الأمر لم يحدثنا به الدكتور موجودا عند ابن خلدون ولا عند غيره من مؤرخي وإخباريي الأمة الإسلامية في كامل تاريخها وخاصة في عصر المقري، ثم لا ننسى بأن النفح لم يصنف عند كثير من الدارسين على أنه كتاب كوزموغرافيا ولا تاريخ ولا حتى رحلة، لأن هذه الأخيرة تتوفر لديها بعض الخصائص الأدبية التي تقربها إلى فن السيرة والترجمة، ولست أدري لماذا لم يصنف محمد ماهر حمادة الكتاب تحت عنوان «سير الحكام والملوك والخلفاء والوزراء» وصنفه تحت عنوان «التاريخ الإسلامي المحلي»؟ إلا أن يكون ذلك مرده إلى الشق الأول من الكتاب المتعلق بالأندلس[٢٥].

لقد ثبت لدينا أن العلم الذي اشتغل عليه المقري أكثر هو علم الحديث النبوي الشريف من خلال حفظه صحيح البخاري وكتب الحديث الستة[٢٦] وهو المجال العلمي الذي يمكن أن يدخل به أسلوب العلم إلى الترجمة لتقترب من التاريخ فضلا عن التاريخ ذاته لاعتماده على الرواية، وهذا إلى جانب فن الترجمة المرتبط بالتاريخ، سواء للرجال الأندلسيين وحتى المغاربة بمن فيهم جده في الأبواب الثمانية الأولى من الكتاب والمتعلقة بالأندلس أو بالحديث المفرد للسان الدين بن الخطيب والذي جعلناه به سيرة، ولعل التصنع كان يُميل الكفة إلى التوازن ليحافظ المقري على أسلوبي السيرة والترجمة الأدبيين إضافة إلى مشابهته – في شقه الثاني طبعا – إلى كثير من الكتب التي ألفت قبله في نفس موضوعه وسميت سيرا سواء الخرافية منها كالمهلهل وسيف ذي يزن أو الحقيقية كسيرة النبي ﷺ والطبقات ورجال السلف وعمر بن عبد العزيز وابن طولون وغيرها من السير المعروفة في التاريخ الأدبي العربي.

سوف لن نحاسب – أذن ومثلما أسلفنا – المقري على ما لم يتأت في زمانه من شوط فنية السيرة وهي البناء الفني الكامل والهيكل الواضح، على اعتبار أنها شذرات مناقب، ولكننا نختبر المقري–

الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقري التلمساني

لنرى هل عمله سيرة فنية أم تاريخية - فيما ما تحدث عنه إحسان عباس إضافة إلى ما سبق من أنه ((يقتضي كاتب السيرة أن يدير الأحداث حول الشخص المترجم، ولا يسمح لحياة الأشخاص الآخرين بالتحكم في منحى السيرة، ولا يعرض من حياتهم إلا المقدار الذي يوضح حياة بطل السيرة نفسه. وقد يتجه الكاتب في طريقته نحو التحليل، وقد يتجه نحو التركيب، ولكنه سواء سار في هذا الطريق أو تلك، عليه ألا يسخر الأحكام والأحداث وملابسات الحياة لعاطفته، فإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبيعي، بل لا بد له من أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة، لأن الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ويجعلها قصة منمقة ممتعة))[٢٧] وهو ما فعله المقري في نفح الطيب حين تحرى الدقة والصدق وذلك راجع لأمرين: الأول إحجامه عن التأليف حول شخصية لسان الدين وهو في الشام حتى يستعد، والاستعداد يكون بالعزم والنية والمراجعة والاستذكار وحتى بالبحث عن المواد الإخبارية وهو الأمر الثاني، حيث اعتمد المقري على الكثير من الكتب التي تحدثت عن الأندلس وعن الوزير لسان الدين بن الخطيب، ولا ننسى التدقيق الذي تحراه المقري في نقل الأخبار عن المكان وعن الزمان وعن الرجل،فهو من المشتغلين على النص النبوي الشريف بكل ما يعنيه من تراث علمي منهجي كبير وعظيم الخطر كالرواية والإسناد ونقد المتن ونقد الرجال والأسانيد وما إلى ذلك.

نعم الخيال مسألة مهمة وضرورية في الأدب والسيرة أدب، غير أن الخيال في مسألة السيرة لا بد أن يكون استخدامه ذكيا إلى الحد الذي يصل العلاقات ببعضها ويربط الوقائع المبنية على وعي شديد بحياة المترجم له إلى درجة القول بالمطابقة بين المتخيل والحقيقي ولا يكون الخيال إلى حين تعوز الكاتب الحاجة فيضطر إليه اضطرارا، هذا بالنسبة للسيرة الفنية التي لم تكن السيرة القديمة مطابقة لها وإنما كان يعوزها البناء الفني المتكامل.

في مسألة الأسلوب الذي كتب به النفح، وقبل أن ننتقل إلى مقارنته بغيره لنثبت التشابه تارة والاختلاف تارة أخرى لشيئين مختلفين هما السيرة والتاريخ عند من تحدثت وجهته وزال الالتباس في هويته من النصوص المعاصرة للمقري طبقا للقواعد أم طبقا لمقتضيات كل من الفن والعلم، التاريخ أو الأدب، قبل ذلك يمكن الاستشهاد بقول مصطفى الشكعة عن أسلوب المقري في نفح الطيب: ((والكتاب في جملته مكتوب بأسلوب مشرق جذاب وإن كان يضم الكثير من الصنعة والعديد من الأسجاع))[٢٨] فالرجل نشأ في العصر العثماني، عصر سيطرة الدولة العثمانية بكل ما قيل عنها وعن عصرها الأدبي بأنه عصر ضعف وانحطاط وتكلف وصنعة وأسجاع ولاسيما امتداد سلطان هذه الدولة إلى المغرب وإلى تلمسان وسقوط دولة بني زيري على يدها.

فلم لم نجد هذا التكلف وهذه الأسجاع عند المؤلفين العلماء؟ أعتقد أن الجواب مثلما سنرى من خلال واقع النص يرجع إلى القصد الذي ألف إليه الكتاب، فإن ألف لغرض علمي كان الأسلوب علميا كأسلوب المسعودي وابن خلدون من دون أن ننتقص من دقة الأسلوب وصحة اللغة ورونق التعبير عند هذين وعند غيرهما بشيء، ولكن إذا

كان القصد التأليف الأدبي أو سيرة، ساعتها يكون التفنن والأسجاع.

قد يقول قائل ولم لم يكن ذلك في سيرة النبي ص ومع ذلك أسميناها سيرة؟ والجواب أن هذا ليس كذاك وأن السيرة ساعتئذ كانت تاريخا ولم ينفصلا بعد عن بعضهما.

ثنائية التمايز والتشابه في واقع النص، لغة وأسلوبا وفنا.

بحث على درجة كبيرة من الأهمية أشار إليه الدكتور عمرو موسى باشا في كتابه «الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني» يتعلق بالمقري ونفح الطيب وهو رسالة دكتوراه أنجزت في جامعة الجزائر من قبل الباحث محمد بن عبد الكريم لم نعثر عليه - على أهميته - لو تيسر لنا العثور عليها لرأينا وجهة نظر صاحب هذا البحث في مسألة تلمس طبيعة الكتاب ومحاولة تحديد جنسه.

الحق أنه لايمكن الاعتماد على الترتيب والتسلسل الزمني في سرد الأحداث ووصف الظواهر للحكم على النص أتاريخ هو أم سيرة، ذلك أن هذا التسلسل وهذا الترتيب خاصية مشتركة بين السيرة والتاريخ، وهي المسؤولة عن إثبات وشائج القربى والعلاقة بينهما، ولكن للإجابة عن سؤال طرحناه سالفا بالاعتماد على المقارنة بين النفح ونصوص كتبت في عصر تأليفه من الجانبين التاريخ والسيرة نقول: بأنه قد بان لنا بأن النفح يشبه إلى حد بعيد في منهج تأليفه وفي موضوعه وبابه وفي لغته السير التي كتبت في زمانه.لقد اختلف النفح عن التواريخ العربية القديمة،ليس في طريقة التأليف فحسب، بل حتى في اللغة والأسلوب.

عز الدين إسماعيل، الدارس القدير للأدب العربي قديمه وحديثه نراه ميالا إلى اعتبار النفح تاريخا، على الرغم من أنه حين أراد أن يذكر المقري بخير أو ذكر إطراء ذكره بالأدب وذكره بأشياء أخر، ولكن ذكره إياه بالأدب أكثر وخاصة حين قال عنه، نقلا عن كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» ما نصه: ((حافظ المغرب، حافظ البيان، ولم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات))[٢٩] ولا يخفى على لبيب هذا الإطراء المتضمن في العبارات الأخيرة وهي متعلقة بالأدب إلى حد الانبهار والإعجاز. وكل ذلك من خلال كتاب كنفح الطيب الذي استحق المقري لأجله ومن خلاله هذه العبارات وهذا الإطراء، وكل ذلك بعد أن صرح الدكتور الباحث (عز الدين إسماعيل بأن النفح كتاب تاريخ[٣٠].

ورغم إيراده النص قطعي الدلالة بأن التاريخ تابع والسيرة متبوعة، وأن لسان الدين هو الأساس وأن تاريخ الأندلس مجرد تمهيد وإن طال فيقول نقلا عن المقري في مقدمة وخطبة النفح: ((فينجر بنا الكلام والحديث ذي شجون... إلى ذكر البلاد الأندلسية...))[٣١] بل وينقل هو نفسه (عز الدين إسماعيل) قول المقري ردا على إطراء الشهيي الذي أهدى إليه الكتاب، في شقه الثاني، وأعني التعريف بابن الخطيب مجردا عن ذكر الأندلس وفصولها الطويلة في النفح مما يعني أن هذه الفصول متممة وتابعة وتالية للحديث عن لسان الدين من حيث زمن التأليف: ((وحصل التصميم إلى التكميل والتأليف والتتميم... فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة...))[٣٢]

الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقري التلمساني

متى؟ بعد وصول إطراء الشهيبي على إثر الفراغ من تأليف الجزء الأول من الكتاب والمتعلق بلسان الدين والذي نال إعجاب ورضا هذا الرجل. يقول عز الدين إسماعيل في الاعتراف بأسبقية الجزء الثاني من حيث الواقع الحالي للكتاب عن الجزء الأول بحسب ذات الواقع: ((فلما حقق المقري ذلك كان يتحتم عليه، أن يغير عنوان الكتاب وكان قد سماه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب، فلما أضاف إليه الجزء الخاص بالأندلس، وتاريخها وعلمائها سماه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب))[٣٣] مما يعني أن المقري، باعتراف إحسان عباس الذي يجعل منه تاريخا بصريح العبارة، قد استكمل بحثه بالقسم الأول من حيث زمن التأليف والخاص بابن الخطيب والذي يعد في الحقيقة مبحثا أساسي وهو الممهد له بالقسم الثاني تأليفا والخاص بالأندلس بكل ما تعنيه كلمتا الممهد والأساسي أو الممهد له وإن جاء التمهيد بعد الممهد له من حيث زمن التأليف وتدارك المقري ذلك الخلل المنهجي بوضع الأندلس أولا والتعريف بابن الخطيب ثانيا ليستقيم منهج الكتاب وفق منطق معقول ومرتضى من قبل العقل، والمشكلة أن عز الدين إسماعيل لا يعتبر القسم المتعلق بالأندلس فضلة أو تمهيدا وشرحا لمفاهيم بل يعده أساسي، حتى قوي عنده الاعتقاد بأن النفح كتاب تاريخ وليس كتاب أدب أو سيرة، فمن أجل ذلك قال عنه ما قاله، وحتى نراه يقول كذلك: ((ومن ثمّ يمكننا أن نقول أن إضافة القسم الأول من الكتاب لا تعد من قبيل الاستطراد كما يزعم كثير من الدارسين (مشيرا إلى عمر الدقاق في كتابه مصادر التراث العربي ص:١٢٧) بل هو جزء أساسي شرع الكاتب مؤخرا في تأليفه حتى يكون بحثه في لسان الدين بن الخطيب بوصفه ثمرة من ثمار البيئة الأندلسية متكاملا))[٣٤] وهنا نتساءل بجدية: فلم بدأ بلسان الدين إذن؟ ولماذا لم يكتب عن الأندلس حتى دعت الحاجة إلى ذلك لما أحس بأن من ألف لهم الكتاب جاهلون بكثير من المواقع والبيئات والحوادث التي تتعلق بلسان الدين وببيئته الأندلس؟. ثم هل من المعقول أن تبدأ التواريخ بالشخص وتنتهي عنده مهما كانت الاستطرادات؟ وهل الكتب المشابهة للنفح تسمى سيراً أم تواريخاً؟ ولا بأس أن نذكر بشهادة عز الدين إسماعيل عن المقري أنه أديب وأديب معجز أيضا؟ كل هذه الأسئلة ترجح الإجابة عنها أن من أشار إليه وأنكر عليه قوله وهو الأحق في نظري وأعني عمر الدقاق الذي عدّ الحديث عن الأندلس ليس هو الأساس بل هو مجرد استطراد اقتضته ربما الضرورة والشرح والإيضاح وأن الأساس هو القسم المتعلق بلسان الدين بن الخطيب.

لعل ما أغرى الدكتور إحسان عباس للقول بأن النفح كتاب تاريخ هو تلك المشابهة التي تبدو صارخة بين أسلوب النفح وأسلوب الرواية للأحداث في كتب التاريخ عند الإخباريين العرب وهو ما لاحظناه حقا ولكن الناظر إلى السير القديمة وعلى رأسها سيرة النبي لابن كثير وسيرة النبي لابن هشام[٣٥] يرى الأسلوب ذاته وهو أسلوب الرواية التاريخية، نظرا لما قدمنا الحديث عنه بأن السيرة قد نشأت في أحضان التاريخ. كل ذلك بالنسبة للنفح على الأقل في جزئه المتعلق بلسان الدين بن الخطيب.

ولا بأس أن ننبه إلى أن المقري بكتابه نفح الطيب قد نال حظوة الاعتراف به كأديب وليس

كمؤرخ من خلال ما روي من مأثور القول عند المغاربة قولهم: «من لم يقرأ نفح الطيب فليس بأديب، وهنا ننبه بأن كلمة الأدب كانت تنسحب على كثير من المعارف والعلوم في القديم ولكن في ظل وجود مصطلحات: العالم والفقيه والإمام وغيرها اختار المتكلم المغربي للتعبير عن قيمة نفح الطيب بالأدب لأنه تلمس فيه الأدب، ليس من منطلق تعلقه بلسان الدين بن الخطيب وإنما لأن الكتاب كتاب سيرة والسيرة أدب زادها أدبية تعلقها برجل أديب ناثر وشاعر موشح هو لسان الدين بن الخطيب. ولا ننسى الإضافة المهمة التي أضافها من أخذنا منه هذا القول وهو محمد محفوظ حين ذكر أن النفح في منهج التأليف شابه به المقري كتابه الثاني في السيرة وهو متعلق بالقاضي عياض «أزهار الرياض في أخبار عياض» وتنبيهه إلى أن للمقري كتب عديدة لها عميق الصلة ليس بالتاريخ فحسب بل بالسيرة النبوية أيضا، وهي إشارة مهمة جدا في إثبات العلاقة بين النفح والسيرة ولم لا بينه وبين التاريخ ما دامت السيرة قد نشأت في أحضان التاريخ، فنحن لا ننكر شيئا من ذلك[٣٦].

ووفق منهج المقارنة أيضا يصدر الأستاذ أحمد علي الملا حكمه بخصوص نفح الطيب حين لا يغريه كثيرا الجانب التأريخي للأندلس في نفح الطيب فيعتبر النفح ترجمة للرجال، وخاصة حين يقول بخصوص هذا الكتاب «النفح»: ((ويعد المقري مترجما للأحوال أكثر منه مؤرخا، فقد أفرد جزأين من أثره، إفرادا تاما، للأعيان والعلماء من المسلمين الذين ذهبوا من الأندلس إلى المشرق، ومن المشرق إلى الأندلس))[٣٧] ولا ننسى ما جعله من حيز وفضاء ورقي للسان الدين بن الخطيب الذي ألف الكتاب أصلا لأجله كما تقتضيه السيرة عادة وتتطلبه.

هذا وأخيرا وجدنا جرأة الأستاذ أحمد أمين[٣٨] رحمه الله تؤازرنا حينما اعتمد مصطلح «الترجمة» وهو يتحدث عن لسان الدين بن الخطيب ومؤلف كتاب النفح المقري، وقد أورد الأستاذ أحمد أمين كلمة الترجمة على اعتبار أنها مثبتة في عنوان الكتاب «النفح» فجعله هكذا بين مزدوجين «نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب في ترجمة لسان الدين بن الخطيب» وبغض النظر عن مسألة هل هذه التسمية للكتاب صحيحة أم غير صحيحة فإن المهم هنا بالنسبة لنا أن الأستاذ قد فصل في المسألة وأنه يعتبر الكتاب ترجمة لابن الخطيب ولم يكتف بما قاله المقري وتبعه فيه إحسان عباس وحتى محمد محيي الدين عبد الحميد بأن الكتاب تعريف. ثم لا ننسى بأن أحمد أمين قد تحدث عن المقري من خلال حديثه عن ابن الخطيب الأديب الشاعر، وفي فصل معنون بـه الحركة الأدبية -الشعر والنثر- ضمن الجزء الثالث من ظهر الإسلام وهو طبعا متعلق بالأندلس، فلم يجعل من المقري المركز ولسان الدين الطرف والمقري مغربي ولسان الدين أندلسي والفصل متعلق أصلا بالأندلس؟.

دع عنك ما يصرخ به النص من ملاحظات تتعلق بالنقد الأدبي وعلم اللغة وهي أقرب إلى الأدب والسيرة مع معقولية ورودها في كتاب من كتب التاريخ بالنظر إلى الموسوعية التي تميز بها علماؤنا القدامى، ولكن الأهم من ذلك كله هو تلك اللازمة التي ما فتئ المقري يكررها من حين لآخر ولاسيما في الجزء المتعلق بلسان الدين بن الخطيب وهو القسم الثاني من كتاب النفح هذه اللازمة هي التي يهرب بها من الاستطراد وتعتبر

الحدود الفاصلة بين النص التاريخي والسيرة الأدبية عند المقري التلمساني

لديه حسن تخلص من الاستطراد الذي عابه عليه الكثير حديثا وهي قوله.. ((رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى))[39] وذلك كلما أحس أنه قد ابتعد بعض الشيء عن الهدف الأساسي الذي وضع لأجله الكتاب وهو التعريف بابن الخطيب، وكأنه يسأل نفسه ألم يكفك الاستطراد في جزء كامل يقدر تقريبا بنصف الكتاب شغلك عن لسان الدين وهو الهدف من الكتاب ولولا الحاجة إلى المعلومات الواردة فيه عن الأندلس خدمة للسان الدين والتعريف به لما أوردتها؟ وأحسبه هكذا كان يعزي نفسه.

القسم الثاني من الكتاب هو الذي رجح لدينا أن الكتاب سيرة وأشياء أخرى بدل الصيغة التي تقول أنه تاريخ وأشياء أخرى ولكن بعض التراجم هي هذه الأشياء الأخرى. ثم انظر إلى قوله في الباب الثاني من الكتاب: ((الباب الثاني في نشأته وترقيه ووزارته، ومساعدته، ومساعدة الدهر له، ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته وارتباكه في شباكه وما لقي من إحن الحاسد ذي المذهب الفاسد، ومحن الكائد المستأسد وآفاته، وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله في تقلباته عندما قابله الزمان بأحواله، في بدنه وإعادته إلى وفاته.

أقول كان مولد لسان الدين بن الخطيب كما في الإحاطة في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة))[40] وهذا عين السيرة. سواء من خلال النقاط التي حددها المقري للحديث عنها في مقدمة القسم الثاني هذا أو في حديثه عن مولد لسان الدين بن الخطيب نقلا عن الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ذاته.

الكتاب أصلا مملوء بالتراجم للرجال وصولا إلى ترجمة لسان الدين بن الخطيب النموذج والأساس، كانت أهم ترجمة فيه هي ترجمة جد المقري وهو أبو عبد الله المقري التلمساني قاضي قضاة فاس، هذه الترجمة جعل المحقق محمد محيي الدين عبد الحميد لها عنوانا على درجة كبيرة من دقة الوصف والقصد والوعي فيه وحين قال عنها أنها «ترجمة مستفيضة» وهي تتربع على مدار ما يقارب العشرين صفحة حسب الطبعة التي اعتمدناها بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. وهي تقع في القسم الثاني من الكتاب وفي الجزء السابع منه صفحة ١٢٩.

البيان وإن مال إلى السجع على عادة أدباء عصر الضعف والانحطاط في الأدب، العصر العثماني.

هذا ولقد مررنا بفريقين: الأول يعد النفح تاريخا من خلال جعل الحديث عن الأندلس هو الأساس، والثاني يجعل منه سيرة من خلال جعل الحديث عن لسان الدين بن الخطيب هو الأساس وباقي الفصول استطراد مطول، وملت أنا إلى هذا الفريق معيبا على الفريق الأول تناسيه لأمور يعمل لها ألف حساب من بينها أن السيرة نشأت في أحضان التاريخ وأن واقع النص وواقع صاحبه وواقع النصوص المشابهة للنفح والقريبة منه زمانا ومكانا وموضوعا، كل هذه الأمور تؤكد أن الكتاب سيرة، ولا بأس أن نستعيض عن هذا المصطلح بمصطلح قريب منه وهو الترجمة. وهذا دون أن نعمل حسابا لكثير من العناصر المشتركة بين التاريخ والسير ومنها التسلسل والترتيب في سرد الأحداث، لأنها مشتركة بينهما.

لكأن المقري في ترجمته للرجال المعاصرين

والمنشئين للسان الدين نسلا وعلما وسياسة ووزارة وحتى عداء وصحبة ومسالمة ومحالفة... الخ أراد أن يضع اللبنات المتراصة لبنة لبنة لينشأ الهرم أو ليصل إلى رأس الهرم وهو لسان الدين ابن الخطيب.

هل كان ذلك التركيب منه إيحاء بأن الرجل يصنعه الرجال، وأن العبقرية نتاج عبقريات ولا يمكن الاستهانة بهم ، بل الاعتراف بقدرهم من الاعتراف بقدره، ومن أدرك قدر الرجال أدرك الرجال قدره، كما أن النهر يكونه عدة جداول، والبحر تغذيه الأنهار؟ ربما يكون ذلك مقصده.

ولكن أهم إيحاء في الكتاب السيرة أو الترجمة أو حتى التاريخ حسب ما يدعيه البعض هو أن العبقرية نتاج المكان ولتكن الأندلس وحتى المغرب، والزمان وليكن زمان لسان الدين بن الخطيب، والرجال وهو جميع من ترجم لهم المقري أصحابا أكانوا أم أعداء ولكنه لم يذكر الحياديين الذين لا صلة لهم بصاحبه لسان الدين بن الخطيب.

إن صاحبنا (المقري) قد وفى لصاحبه (لسان الدين) ولو كانت هذه الصحبة اعتبارية بابها الإعجاب والاقتداء والاعتراف بأقدار الرجال ممن يستحقون الذكر والتخليد كحق لهم علينا وكحاجة منا إلى ذلك فأوفى ووفى.

الهوامش :

١- أحمد بن محمد المقري التلمساني:نفح الطيب،تحقيق إحسان عباس،دار صادر، بيروت لبنان، ط،١٩٦٨،ج ١ ص: ١٥، ١٦.

٢- مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب،قسم الأدب، دار العلم للملايين،بيروت لبنان،ط ٤، ١٩٨٢ ص: ٧١٥.

٣- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط ٢، د ت، ص: ٣٢٢.

٤- المرجع نفسه، ص: ٣٢٣.

٥- المرجع نفسه، ص: ٣٢٤.

٦- محمد رضوان الداية: الأدب العربي في الأندلس والمغرب، مطبعة جامعة دمشق، سورية، د ط، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ص:٢١٢.

٧- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب،دار المعارف مصر،ط ٢، د ت، ج ٢، (نجد ذلك في مقدمة التحقيق).

٨- راجع في ذلك هوامش: المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، تحقيق إن محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، مصر، ط ١، ١٩٤٩.

٩- توفيق برو: تاريخ العرب القديم،دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ودار الفكر دمشق سورية، ط ٢، ١٩٩٦، ص: ٥.

١٠- آرنولد توينبي :تاريخ البشرية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط ٢، ١٩٨٢، ج ١، ص: ٩ - ١٤.

١١- المعجم الفلسفي المختصر، إعداد دار التقدم موسكو، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم موسكو، روسيا، الاتحاد السوفيتي سابقا، د ط، ١٩٨٦، ص: ١٠٢.

١٢- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠٢، ص: ٢١ وما بعدها.

١٣- المعجم الفلسفي المختصر، ص: ١٠٥.

١٤- عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة،مكتبة مدبولي، القاهرة،مصر، ط ٢، ٢٠٠٠، ص: ١٧٨،١٧٩.

١٥- المكتب العالمي للبحوث:علم التاريخ،منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر،بيروت لبنان، دط، ١٩٨٤، ص:١٢،١٤.

١٦- إحسان عباس: فن السيرة، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط٤، ١٩٧٨، ص: ٧.

١٧- إحسان عباس: المرجع نفسه، ص: ٩.

١٨- إحسان عباس: المرجع نفسه، ص: ٩.

١٩- إحسان عباس: المرجع نفسه، ص: ١٠، ١١.

٢٠- أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، ج ١، ص ١٥ ،ومقدمة تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١، ص: ١١.

٢١- إحسان عباس: فن السيرة، ص: ٢٨.

٢٢- إحسان عباس: المرجع نفسه، ص ٢٧.

٢٣- جورجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية،مراجعة شوقي ضيف،دار الهلال، مصر، د ط، د ت، ج ٢، ص: ٢٣٢.

٢٤- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي،ص: ٢٣٢.

٢٥- انظر في ذلك مناهج التأليف عند العلماء العرب قسم الأدب لمصطفى الشكعة ص: ٧١٥ وما بعدها وراجع في ذلك أيضا محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط ٦، ١٩٨٧، ص: ٢٢٢.

٢٦- مصطفى الشكعة: المرجع نفسه، ص: ٧١٦.

٢٧- إحسان عباس: فن السيرة، ص: ٧٣، ٧٤.

٢٨- مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص: ٧٢٤.

٢٩- عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي،دار النهضة العربية، بيروت لبنان، د ط، د ت، ص: ٢٦٨.

٣٠- عز الدين إسماعيل: المرجع نفسه، ص : ٢٦٩.

٣١- عز الدين إسماعيل: المرجع نفسه، : ٢٦٩.

٣٢- عز الدين إسماعيل: المرجع نفسه، : ٢٧٠.

٣٣- عز الدين إسماعيل: المرجع نفسه، : ٢٧١.

٣٤- عز الدين إسماعيل: المرجع نفسه، : ٢٧٢.

٣٥- راجع في ذلك سيرة النبي لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وسيرة النبي لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد وحتى الخصائص الكبرى للسيوطي، ولا سيما في مسألة الاستطرادات والخروج إلى أشياء لها علاقة بالنبي من حيث الاشتراك في المكان والزمان ولكنها تتعلق بغيره ﷺ.

٣٦- محمد محفوظ: جولة بين الكتب، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، ١٩٧٩، ص: ٢٤١.

٣٧- أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الثقافة الأوربية،دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر سورية، ط ٣، ١٩٩٦، ص: ١٨٧، ١٨٨.

٣٨- أحمد أمين:ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط ٥، ١٩٦٥، ج ٢، ص: ٢١٨.

٣٩- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د ط، د ت، ج ٧ ، ص: ٨٣.

٤٠- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب، ج ٧، ص: ٤.

عبد الله شريط
المفكر الرائد والفيلسوف المناضل

أ. محمد سيف الإسلام بوفلاقة
عنابة - الجزائر

يُعدُّ المفكر الجزائري الدكتور عبد الله شريط (١٩٢١-٢٠١٠م) واحداً من كبار المفكرين المعاصرين، ومن أبرز رواد التفكير الفلسفي في الجزائر، فهو أحد أعمدة الثقافة العربية الجزائرية، ومن رواد الفكر النهضوي العربي، تميز بفكره الشامل، ونضاله المستمر، نجد له حُضوراً بارزاً في عالم الفلسفة العربية المعاصرة، ففي أعمال الندوة التي عقدتها الجمعية الفلسفية قبل سنوات قليلة في القاهرة عن الفلسفة العربية في مائة عام ورد ذكر اسم المفكر عبد الله شريط ٢٥ مرة إلى جانب المفكرين زكي نجيب محمود، وعبد الرحمن بدوي...

رحل عبد الله شريط يوم: ١١يوليو - جويلية ٢٠١٠م، وبرحيل هذا العلاّمة الموسوعي تكون الساحة الثقافية في الجزائر والوطن العربي قد أصيبت برزء فادح، فقد أحدثت وفاته ثلمة لا تسد، وثغرة لا تردم، كما كانت حياته شعلة وضاءة لا تخبو، وجذوة متوقدة لا تنطفئ، إذ ملأ الدنيا وشغل الناس ردحاً من الدهر، فقد مات عن تسعة وثمانين عاماً قضى منها أكثر من ستين عاماً مُتنسكاً في محاريب العلم، والفكر، والمعرفة، ومن الصعوبة بما كان تصنيفه أو إدراجه في زاوية معينة، فقد كان متعدد الاهتمامات، ومتنوع الاختصاصات، فهو شاعر رومانسي رقيق، وأديب عُرف بأسلوبه المبسط، والسهل الممتنع، إذ يتميز أسلوبه في الكتابة بالدقة، فيضع الكلمات في مواضعها، بعيداً عن الإطناب المُمل، والاختصار المُخل، إضافة إلى أنه ناقد أنجز عدة دراسات نقدية، كما أنه مترجم بارع، حيث إنه يتقن اللغة الفرنسية بامتياز، إلا أنه لا يهجر إليها فكراً ولساناً، ظل طوال حياته من أبرز المُدافعين عن اللغة العربية في الجزائر، وفي سبيلها خاض معارك فكرية عاتية ضد دعاة الفرنسة والتغريب، كما قدم أفكاراً ورؤى معمقة في سبيل النهوض بها، وترقيتها في الجزائر والوطن العربي، وقد عشق الدكتور شريط العلاّمة ابن خلدون، فتبنى المنهجية الخلدونية في رصده للظواهر الاجتماعية، وعلى ضوئها درس عدداً من مواثيق الثورة الجزائرية، مثل:ميثاق الصومام، والميثاق الوطني، وميثاق طرابلس. وكما وصفه أدق وصف صديقه الأستاذ

الدكتور محمد الشريف عباس؛وزير المجاهدين الجزائريين بقوله:« عبدالله شريط رجل مُتعددّ الأبعاد، مُتنوّع الثقافات، مُتبحر في العلوم، جمع بين المشارب المعرفيّة وبين حداثة الفكر، لقد حباه المولى عزّ وجل قدرة على التحصيل المعرفي وعلى الاستقراء والتحليل، رجل اختار النضال الفكري والمعرفي منذ شبابه، فقد كان كاتباً صحافياً في جريدة الصباح التونسية، يُدافع عن القضية الجزائرية بقلمه، فمُجاهداً فذاً ومُناضلاً مُخلصاً، وأستاذاً بجامعة الجزائر بعد الاستقلال. يكفيه فخراً أن أنجز موسوعة كاملة عن الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية في عدة أجزاء، فهو فيلسوف، ومؤرخ، وصحفي، وباحث لامع، لا تراه إلا جليس العلماء، أو وسط كوكبة من الطلبة، أو صفوة الذكر في الملتقيات والندوات، وباختصار هو واحد من أبرز فرسان القلم الجزائريين الذين تجشّموا مشاق الكتابة، والتدوين، وإبراز الجوانب الحضارية لهذه الأمة»[1].

عُرف الدكتور شريط بأعماله الفكرية الرصينة، وكتاباته الفلسفية المعمقة التي حلل فيها أهم قضايا الجزائر، والأمة العربية، وقد انطلق في رحلته مع النضال بالقلم مع بداية الأربعينيات، وذلك بغرض تحرير وطنه الجزائر، الذي كان يرزح تحت ويلات الاستدمار الفرنسي، وإضافة إلى عمله الأكاديمي، وبحثه في مختلف الميادين المعرفية، فهو إعلامي متميز أسهم في إثراء التجربة الإعلامية الجزائرية، بتقديمه لعدد من البرامج الثقافية الهامة في الإذاعة الجزائرية «لقد جمع المرحوم بين عزّة النفس بلا غرور، وسرعة البديهة، وكأنه يقرأ أفكار محاوريه، و كانت له ذخيرة ثرية من تجارب الحياة يرجع إليها إما للعبرة والاستدلال، وإمّا لمعاينة مفارقة بين الأمس واليوم، فمن النادر أن تجد في خطاب الرجل أفعال الكينونة الماضوية من نوع كنتُ، وكُنا، وكانوا، إنه في البدء والمنتهى على النهج الباديسي(نسبة إلى العلاّمة الجزائري ابن باديس)، ومن المؤمنين بإسلام البرهان، ومن أنصار التنوير على منابر الإعلام، وفي فرص الخطاب العام.تميز الأستاذ شريط بسعة إطلاعه على التراث المعقول والمنقول، وما استجد من أدبيات الفكر الحديث والمعاصر، فهو الفيلسوف البارع في التنظير بلا لفظيات سطحية، أو تعقيد مفتعل، وهو عالم الاجتماع الخلدوني الهوى، فقد درس وحلل وأضاف مفاهيم جديدة لمسائل على درجة كبيرة من الأهمية، مثل:بنية المجتمع، وأخلاقيات الدولة من المواطن إلى أجهزة ومؤسسات الدولة، ومن أهم القضايا التي شغلت الأستاذ شريط ظهور، وانحدار، ثم انهيار الدولة، ومسألة العلاقة بين التطور الاجتماعي والسياسي، وأخلاقيات السياسة والساسة، وازدهار الثقافة والتثاقف على أوسع نطاق بين الجمهور، ويمكن وصف الأستاذ شريط بالمثقف الشامل أي الذي يوظف جملة من المعارف والمقاربات المنهجية للتعمق في القضايا التي تشغل النخبة الفكرية والسياسية»[2].

موجز ترجمته:

ولد عبد الله شريط سنة:١٩٢١م في بلدة مسكيانة التابعة إدارياً لولاية أم البواقي بشرق الجزائر، والتحق في صباه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم كعادة أبناء الجزائر في ذلك الزمن، ثم تعلم في إحدى المدارس الابتدائية الفرنسية ببلدة مسكيانة، وانتقل سنة:١٩٣٢م إلى مدينة تبسة، حيث التحق هناك بإحدى مدارس جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كانت معروفة باسم مدرسة تهذيب البنين والبنات، وفي هذه المدرسة تتلمذ على يد العلاّمة الجزائري الكبير الشيخ العربي التبسي؛ رفيق درب العلاّمة عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، وفي سنة:١٩٣٨م ذهب إلى تونس للدراسة، وبعد فترة وجيزة توقف بسبب الحرب، وعاد إلى مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري، ودرس بها، وفي سنة:١٩٤٥م عندما انتهت الحرب العالمية توجه إلى تونس مرة أخرى، وحصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة سنة:١٩٤٦م.

انتقل عبد الله شريط إلى الشام، بعد المرور على فرنسا سنة:١٩٤٧م بجواز سفر مزور، وقد تمت هذه العملية بمساعدة مجموعة من النواب الجزائريين في باريس، من بينهم المناضل الكبير محمد خيضر الذي كان يشغل منصب ممثل حركة انتصار الحريات الديمقراطية في المجلس الوطني الفرنسي، وبعد أن ذهب إلى لبنان التحق بالجامعة السورية، وسجل سنة أولى أدب عربي، وبعد فترة غير التخصص، وانتقل إلى قسم الفلسفة بالجامعة نفسها، وحصل على شهادة ليسانس تخصص فلسفة سياسية سنة:١٩٥١م، وفي نفس السنة عاد إلى الجزائر، ونظراً لمحاربة الاستعمار الفرنسي للغة العربية، وتجريمه لكل من يتعلمها، فقد ظل عبدالله شريط بدون عمل، مما اضطره إلى السفر إلى تونس سنة:١٩٥٢م، وهناك تولى التدريس في جامع الزيتونة بالمعهد الجديد الذي استحدث لتدريس العلوم الحديثة، وفي نفس الوقت كان يعمل بجريدة الصباح التونسية، وبعد اندلاع ثورة التحرير الجزائرية كثف جهوده للتعريف بالقضية الجزائرية، وانضم سنة: ١٩٥٥م إلى أسرة تحرير جريدة المجاهد الجزائرية؛لسان حال حزب جبهة التحرير الجزائرية، وأضحى عضواً من أعضاء البعثة السياسية لجبهة التحرير الوطني، فقدم خدمات جليلة للثورة الجزائرية على الصعيد الإعلامي، حيث ترجم عشرات المقالات التي كانت تُكتب عن الثورة الجزائرية إلى اللغة العربية، وبعد إصدار جريدة المقاومة كُلف بتحرير افتتاحياتها، وظل يُترجم المقالات المنشورة في الصحافة الدولية عن الثورة الجزائرية إلى العربية، وبعد استرجاع السيادة الوطنية، واستقلال الجزائر سنة: ١٩٦٢م، عمل أستاذاً بجامعة الجزائر، وواصل نضاله الفكري والسياسي، وحصل سنة: ١٩٧٢م على شهادة الدكتوراه بأطروحة عن: «الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون»، كما ساهم في مرحلة بناء وتشييد الدولة الجزائرية بمجهود وافر في نشر الثقافة الفلسفية والتربوية في علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع التربوي، وذلك من خلال مداومته على تقديم حصة إذاعية، وحصة تلفزيونية لقيت نجاحاً كبيراً، وأعجب بها المثقفون الجزائريون أيما إعجاب، إضافة إلى تمثيله الجزائر في عدد من الندوات والملتقيات الدولية، كما ناقش وأطر مئات الرسائل الجامعية، وتخرجت على يديه آلاف الكفاءات في مختلف المراتب، والمستويات.

كُرِّم الدكتور عبد الله شريط مرات عديدة من قبل عدد من المؤسسات العلمية، كما كُرم من قبل الرئيس الراحل هواري بومدين في أواخر السبعينيات، وحصل على جائزة الدولة التقديرية الأولى مناصفة مع الأديب الراحل الروائي الطاهر وطار، وكُرم من قبل رئيس الحكومة الجزائرية الأسبق علي بن فليس ، ووزير المجاهدين محمد الشريف عباس تقديراً على إنجازه لموسوعته

الضخمة عن: «الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية». وقد نُظمت عدة ملتقيات وندوات علمية وطنية ودولية حول مشروعه الفكري المتميز، ومن بين هذه الندوات نذكر الندوة العلمية التي نظمها مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري بقسنطينة لدراسة آثاره الفلسفية والأدبية والتاريخية سنة: ٢٠٠٤م، وقد حضرها عدد كبير من الباحثين والمفكرين، وصدرت أعمالها في مجلد كبير.

أعماله ومؤلفاته:

تميز الدكتور عبد الله شريط بسلامة منهجه، وعمق فكره، وموسوعية ثقافته، وهذا ما يتبدى للمتأمل في أعماله المتنوعة، ونظراً لاتساعها لا يُمكن لنا أن نحيط بها إحاطة شاملة، بل سنكتفي بالتطرق إلى أهمها، والجدير بالذكر أن أعماله الكاملة قد صدرت في طبعة فاخرة في سبعة مجلدات ضخمة عن وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة احتفالية الجزائر عاصمة للثقافة العربية سنة: ٢٠٠٧م، احتوت جميع أعماله الفكرية وكتاباته الفلسفية التي ناقش فيها أهم قضايا الجزائر، والأمة العربية. والواقع أن المتأمل في أعمال الدكتور شريط يُدرك بأنه قد قدم لنا مكتبة فكرية، وفلسفية، وأدبية كُبرى تعجز عن القيام بها فرق أبحاث مجندة في تخصصات مختلفة، وأعمال المفكر عبد الله شريط لم تقتصر على تأليف الكتب، بل تنوعت من خلال المشاركة في وسائل الإعلام، وتقديم حصص إذاعية، وتلفزيونية، أشهرها برنامجه الحواري مع الإعلامي مصطفى عبادة، أضف إلى ذلك كتابته في الصحافة، ومشاركته في عشرات الملتقيات، والندوات العلمية، ومن آخر النشاطات التي قام بها الدكتور شريط قبل تدهور حالته الصحية إلقاؤه لكلمة في الندوة التكريمية التي أقيمت له بالمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، تحدث فيها عن شخصيته، واهتماماته، ومما قاله في تلك الكلمة: «ما نحن في حاجة إليه منذ سنوات الاستقلال إلى اليوم، وخاصة في السنوات الأخيرة هي ليس الدولة؛ لأن الدولة من السهل أن تكونها بالقوانين وبالإجراءات الاقتصادية وبالسجون وغيرها، ولكن ثقافة الدولة التي تتطلب أن تكون موجودة عند الحاكم وعند المحكوم، لذلك قضيتُ ما يقرب من عشر سنوات في تأليف كتاب انتهيت من كتابته في خمسة عشر فصلاً عن مشكلة ثقافة الدولة، كيف كانت؟ لماذا كنا محرومين من الدولة في الماضي؟ وماذا كان مفعول هذا الحرمان على الأجيال إلى يومنا هذا؟ وماذا نفعل لكي تكون لدينا ثقافة الدولة؟ نعتمد أولاً على الزمن، تطور الزمن لابد منه، لكن لابد من مجهود فكري، وثقافي، وتعليمي، وسياسي بالخصوص، وأخلاقي، لكي تكون لدينا ثقافة الدولة هذه، ربما على عشر سنوات على عشرين سنة على ثلاثين سنة لا أعرف، المهم أن ما يشغلني الآن على ضوء هذه التجربة كلها التي قرأتها مع إخواني، التجربة التي خرجنا منها هي أن المشكلة الحقيقية هي التي وضعها سقراط عندما قال: الأخلاق هي التي تقوم عليها الدولة، وليس الدولة بمعنى الحاكمين فقط، ولكن الحاكمين والمحكومين، لذلك أتمنى لو ينصرف الكثيرون من جيلنا، وحتى من الأجيال القادمة إن شاء الله إلى معالجة تكوين ثقافة الدولة، لأن فيها حل لكل المشاكل التي نعاني منها اليوم»[٣].

إضافة إلى المحاضرة الهامة التي ألقاها بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت عنوان: «البعد الإنساني في فكر جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين» حيث أكد فيها أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي واحدة من الحركات الرائدة في العالم الإسلامي، فقد تكفلت بالجانب التربوي، والتثقيفي، والديني، والإصلاحي في الجزائر إبان سيطرة الاستعمار الفرنسي، وذلك في إطار عملية الإصلاح التي كان ولابد أن تسبق و تواكب ثورة التحرير الجزائرية المجيدة، كما أشار إلى أن رجال الإصلاح في الجزائر دخلوا المعترك السياسي مدفوعين بروح القومية العربية، فاستخدموا الثقافة الدينية للإعداد لمعركة تحرير الوطن من الاستخراب الفرنسي، واختتم شريط مداخلته بتأكيده على أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استطاعت أن تُحدث التحول الكبير من خلال الفهم الصحيح للإسلام الذي عُرف به مؤسس الجمعية العلاّمة عبد الحميد بن باديس.

على مستوى البحث العلمي، يُمكن اعتبار أهم عمل أنجزه الدكتور عبد الله شريط موسوعته الشاملة الموسومة ب: «الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية»، فقد غطى من خلالها ما كُتب عن الثورة الجزائرية ما بين سنوات: ١٩٥٥-١٩٦٢م في الصحافة العالمية، وقد صدرت في ثمانية عشر جزءاً عن منشورات وزارة المجاهدين بالجزائر، وكتب تقديمها رئيس الجمهورية الجزائرية عبد العزيز بوتفليقة، حيث تحدث مُشيداً بهذا العمل الجليل، وبصاحبه المفكر العملاق، ومما قاله الرئيس بوتفليقة في المقدمة: «لقد أصاب صاحبنا الدكتور عبد الله شريط اختيار موضوعه، وحقق هدفه في رفع اللبس، والالتباس العالق في الأذهان، خاصة في أيامنا هذه، بتقديم الدليل من باب شهد شاهد من أهلها على عظمة رجالها، لأنه من الثابت أن الصحافة الدولية في كل العصور، ومهما كانت الظروف، لا تلتفت إلى المسائل المهنية، ولا تواظب على تخصيص المساحات الكبرى لها على صفحات الجرائد، وبرقيات وكالات الأنباء، إذا كانت من حجم الأحداث العابرة، لقد فرضت الثورة الجزائرية حضوراً مُكثفاً في الصحافة الدولية، حضوراً جعلها تجاور في الصفحة الواحدة أخبار الدول الكبرى»[1].

وعن منهجه في جمع، وترتيب، وترجمة المقالات التي حوتها الموسوعة يشير الدكتور شريط إلى أن جميع المقالات التي ضمها في الموسوعة قام بنقلها عمّا كان يُكتب في الصحف الأجنبية، وبعض المجلات السياسية المتخصصة عن حرب التحرير الجزائرية، وقد تابعها بحرص وانضباط، عندما كان يعمل صُحفياً في جريدة الصباح التونسية، وقام بنشر عدد كبير منها في الصحافة التونسية، وجريدة المجاهد الجزائرية، وقد عرض المفكر شريط في مقدمته لهذه الموسوعة لمختلف الأحداث السياسية، وسلط الأضواء على التحولات التي عرفتها الدولة الفرنسية في تلك المرحلة «وسياستها في الشمال الإفريقي إثر الرؤية القوية التي بدأت تؤكد أن دخاناً ما قد يظهر في المنطقة. لأن رائحة الحريق بدأت تتسلل وبقوة لأنوف السياسيين والعسكريين، وهذا ما يُبرزه المؤلف تحت عنوان: «عام: ١٩٥٥م الجو العام إثر استقلال ليبيا-مركز فرنسا في شمال إفريقيا-ومفاوضات ليبية وفرنسية تونسية ومغربية-بدأ التحذير من أن تتحول الجزائر إلى هند صينية جديدة بالنسبة لفرنسا، وقد عمل الدكتور شريط على اختزال الثورة الجزائرية في صفحات، إذ تتميز مقالات الموسوعة بتسلسلها الدقيق الذي يعرض الأجواء السياسية، وردود الفعل، فأول عنوان ينقله لنا

الكاتب في الجزء الأول من الموسوعة هو: «فرنسا وليبيا وشمال إفريقيا (١٩٥٥/٠١/٠٤م)» وهو تعليق على ما نشره الصحفي م.إيدوار في صحيفة لوموند، سلسلة من البحوث الطويلة عن الحالة في ليبيا، والتطورات التي جدت عليها منذ استقلالها، وهكذا تأتي المقالات متسلسلة حسب الأحداث البارزة التي عرفتها سنة:١٩٥٥م، ليختتم هذه المقالات المنتخبة لهذه السنة بمقال تحت عنوان: «جمال عبد الناصر» بتاريخ:١٩٥٥/٠٨/١١م، وما يمكن قوله إن الموسوعة التي أعدها الدكتور شريط موسوعة شاملة، وقد قدم من خلالها خدمة جليلة للتاريخ الجزائري، والعربي حيث إنها تختزل الوقت بالنسبة للباحثين والدارسين، بدل الاستغراق في البحث عن الصحف والأرشيفات، يجد الباحث والدارس أن الدكتور شريط تكفل بهذه المهمة، وتحمل مشقة البحث والجمع، والترتيب، والترجمة، والتعليق عليها، وهذا ما يسهل لغيره العمل باعتبار سلسلته هذه مصدراً يرجع إليها وقت الحاجة، لأنها شهادة حية ووثيقة مسجلة»[٥].

ومن الكتب الهامة التي قام بتأليفها الدكتور شريط كتابه الموسوم ب: «الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون» الذي صدر ضمن سلسلة الدراسات الكبرى بالمؤسسة الوطنية للكتاب، وهو في الأصل أطروحته التي قدمها لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة السياسية والأخلاقية، وعن سبب تأليفه لهذا الكتاب يقول الدكتور شريط: «بعد الاستقلال دخلنا في مرحلة أخرى في المستوى الثقافي وفي المستوى الأخلاقي، وبصفة عامة، علماء الاجتماع يقولون إن كل المجتمعات التي تدخل الحرب تخلف هوة أخلاقية، بحيث يجد المجتمع نفسه غريباً عن نفسه، فهو غريب الأخلاق، وغريب الأطوار، وهذا ما دفعني في يوم من الأيام منذ السنوات الأولى للاستقلال أن أبحث في هذا الموضوع عند ابن خلدون، ووضعت فيه رسالة الدكتوراه، فالناس كانوا مهتمين بالسياسة عند ابن خلدون، والاجتماع عند ابن خلدون، والاقتصاد عند ابن خلدون، ولكن على ضوء ما لاحظته من انقلابنا الأخلاقي، فرحت أبحث عند ابن خلدون عن هذه الهوة الأخلاقية التي وقعنا فيها»[٦].

ومن خلال كتاب: «معركة المفاهيم» الذي صدر لأول مرة في أواخر السبعينيات، وأُعيد طبعه سنة: ١٩٨١م، يُقدم لنا الدكتور شريط مجموعة من الحوارات والمناقشات التي ترتكز على قضية إدراك المفاهيم بدقة، فهو يرى أن ضبط المفاهيم مسألة تعد غاية في الأهمية، ويؤكد بأنها المعركة الأهم، والتي لابد أن يُقدم المرء من أجلها رؤى معمقة، لأن الكثير من المفاهيم قد اختلطت وضاعت وسط الزحام، ولابد من تصويبها وفرزها وتمحيصها بدقة، وقد ألف هذا الكتاب بغرض إيضاح مجموعة من التصورات، إذ يرى أن ما تتميز به المجتمعات العربية عموماً هو الاتجاه إلى العمل مباشرة، دون وضع تصورات مُسبقة، وأفكار مُوجهة، وخطط مرسومة، لأننا لا نستطيع أن نبني بيتاً من الحجر، ونحن لا نحمل رؤية مُسبقة عنه في تصوراتنا الذهنية، إلا إذا سبقه بيت من الأفكار، ويشير المفكر المصري الدكتور محمود قاسم في تقديمه لهذا الكتاب أن المفكر عبد الله شريط قد اهتم بهذه المسألة تأقلماً مع المجتمع الجزائري، وأوضاعه السياسية، فمعركة المفاهيم بالجزائر قد بلغت الذروة في حدتها، ولن تجد جزائريا يحدثك قليلا من الوقت حتى ينقلك إلى صميم المعركة، ونحن نرحب دائما أن نصطلي بنيران المعركة

بدلا من أن نفر منها ذلك أن عصر الهروب من المشكلات الواقعية قد غبر، سواء أكان ذلك في المشرق أو المغرب.وتلك علامة صحية، وهي تبشر بخير، و لهذا السبب فقد حرص المفكر شريط على بذل جهد خاص يلح فيه كما يقول: على قيمة المفاهيم في حياتنا العلمية والثقافية والسياسية عموما، والمفاهيم في المجتمعات الناشئة كثيرا ما تأخذ طابع المعركة.

في كتاب: «من واقع الثقافة الجزائرية»عالج الدكتور شريط الكثير من القضايا والمشكلات التي تتصل بواقع الثقافة الجزائرية في فترة ما بعد الاستقلال، وقد ركز من خلال أبحاث هذا السفر على الجوانب النفسية والخلقية والاجتماعية من واقع هذه الثقافة، وتميز بالشفافية، والصراحة، والنقد الذاتي في طرحه للمشكلات، وكعادة الدكتور شريط فإنه لا يكتفي بطرح المشكلات وحسب، بل إنه يسعى إلى تقديم حلول ناجعة، وعملية بهدف النهوض بالثقافة الجزائرية والعربية، ويتحدث الدكتور شريط عن هذا الكتاب، ودوافع تأليفه فيقول: «دافعنا الحقيقي لذلك هو حرصنا على كسب معركة الوقت الذي يلعب دوراً كبيراً، إن سلباً أو إيجاباً، في حياة المجتمعات المعاصرة، بما فيها مشكلات الثقافة في العالم المتخلف. أما حكم القيمة فأمر أتركه للنقاد، وللأجيال الصاعدة التي لا نفكر فيها، ونحن نطرح المشكلة، ونبحث لها عن حل، إننا في هذه الفصول:

- نعالج قضايا بلاد، ولا نتبجح بعضلات قلم.
- نبحث عن حلول لمشاكل أمة، ولا نبحث عن أعذار لمسؤولينا.
- هذه الأمة لا نفرق فيها بين جزائريين، وعمانيين، ولا بين فلسطينيين، وتونسيين. لأننا ننظر إليها من خلال الوزن الدولي الراهن فنجدها حتى إذا اجتمعت خفيفة لا تكاد تذكر. أما إذا افترقت فهي هباء لا يكاد يُرى.
- لا نقول لأحد:احذر من الرد علينا، بل نود أن يكون حديثه مُكملاً لنقصنا، فمن المستحيل أن يرى واحد منا كل الحقيقة، ولا يرى منها الآخر شيئاً.
- حديثنا صريح بقدر الإمكان عن أنفسنا، فلا مبرر لكي لا نكون كذلك مع غيرنا. والحديث الصريح يوجه للرجال الواثقين من أنفسهم، لذلك لا نخاف المشاكل ولا نُخفيها.
- نعتقد أن تشخيص المرض أهم من البحث عن الدواء بالنسبة إلينا.لأن خطر أمراضنا في مرحلتنا الراهنة هو أننا نعيشها، ولكننا لا نشعر بها.
- نحاول بقدر الإمكان أن لا نتحدث عن قضية لا نعرفها.لأننا حتى في قول ما نعرفه نحاول أن لا يكون جارحا ولو كان مؤلما»(٧).

ومن أهم القضايا التي عالجها الدكتور شريط في هذا الكتاب:المعركة بين الأعراب والتعريب، والإصلاح الجامعي، وإشكالية المعرفة والشعب، والثقافة وطريقها إلى الشعب، ومشكلة اللغة والمجتمع.

جمع الدكتور شريط مقالاته التي كتبها على صفحات جريدة «الشعب» الجزائرية رداً على المفكر مصطفى الأشرف بخصوص سياسة التعريب والتعليم، والتي أحدثت ضجة كبيرة في أوساط المثقفين الجزائريين، وعمقت الشرخ بين أنصار اللغة العربية، ودعاة الفرنكفونية في كتاب أسماه: «نظرية حول سياسة التعليم والتعريب»،

وقد قدم الدكتور شريط في هذه المقالات رؤى معمقة عن قضية التعريب، والصراع الفكري المعهود في الجزائر بين أنصار اللغة العربية، وأنصار الفرنسة والتغريب، وبسبب هذه المعركة تعرض لحملات شعواء من قبل الفرنكفونيين، فقد اتهموه بالتعصب، وبأنه رجعي ضد العصرنة والتطور، ويشير الدكتور شريط إلى أن صراعه مع الفرنكفونيين بدأ منذ صباه، حيث يقول في هذا الشأن: «يظهر أن المفرنسين يحملون ضدي حقداً تاريخياً منذ أن كنت بتبسة لموقف عائلتنا الوطني من فرنسا الاستعمارية».

يعبر الدكتور شريط عن رؤيته للصراع اللغوي في الجزائر، من خلال مقدمة هذا الكتاب بقوله: «إن التعريب في بلادنا ظل سنوات طويلة موضوع نقاش بين طرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيهاً -كما يقولون- بنقاش الصم الذين لا يسمع بعضهم بعضاً، ولكن كل واحد يرد على الآخر بما يتوهم من أفكاره، أو ما يظن أنه قاله، أو ما يعتقد أنه خليق بقوله، ولكن المؤكد أنه لم يحصل لحد الآن نقاش هادئ بين معربين ومفرنسين في قضية التعريب بالخصوص، وما يكتنفها من جوانب، وما تمتد إليه من أبعاد حضارية، وسياسية، وفكرية. فبقيت قضية يقنع فيها المعرّبون معرّبين أمثالهم، والمفرنسون مفرنسين مثلهم بحجج عاطفية في الغالب لدى الطرفين، ومدفوع فيها الجميع عن وعي وعن غير وعي بما يتوهمه مصلحة عامة، غير مبالٍ بما قد تكون عليه مصلحة الطرف الآخر الذي لا يضع منها شيئاً في الحساب.ونقاش الصم هذا أخطر من عدم النقاش على الإطلاق، وكنت أفضل أن لو لم يحدث هذا النقاش إطلاقاً على أن يحدث بهذا الشكل الذي يُكلم فيه كل واحد نفسه فلا يعرف شيئاً عن أفكار صاحبه.وكان الذي حدث هو أن منع النقاش بين الطرفين، أو عدم وقوعه بصورة طبيعية، كون فجوة بينهما استغلتها أطراف أجنبية عن الطرفين، وعن القضية نفسها، وحولت النقاش المبهم بينهما إلى تبادل في سوء النية، ثم إلى تعصب على فراغ. وفي هذا الجو المفعم بسوء النية، والتعصب ضاعت النظرة إلى المصلحة الوطنية، وأصبح المُتكلم أو الكاتب يتخذ من موضوع التعريب سلاحاً يقاوم به عدوه الجديد. ولم يعد التعريب أو عدمه منظوراً إليه كوسيلة لنهوضنا بل أصبح غايةً في ذاته حلّت محل الغايات الأخرى الوطنية والسياسية في القضية»(٨).

لقد دافع الدكتور شريط من خلال مقالاته التي جمعها في هذا الكتاب دفاعاً مُستميتاً مُزدوجاً عن اللغة العربية، فقد وجد نفسه مُحاصراً من تيارين قريبين في توجهاتهما التيار الفرنكفوني، الذي يدعو إلى ضرورة فرنسة الإدارة والتعليم في الجزائر، والتيار الذي يدعو إلى إشاعة العامية، وترسيخ اللهجات المحلية، وقد ظل طوال مسيرته صامداً يؤكد على أن نهضة الدولة الجزائرية، لا يمكن أن تتحقق إلا بتعميم التعريب، فيشير إلى أن« الثقافة الشعبية لا يُمكن أن تتحقق بواسطة اللغة الأجنبية بل بواسطة لغة الشعب نفسه التي هي اللغة العربية، ومقاومة الأمية في هذا الشعب، التي هي الخطوة الأولى للثقافة الشعبية لا تتم بواسطة لغة أجنبية بل بواسطة اللغة العربية التي هي لغة الثقافة، أو يجب أن تكون هي لغة الثقافة.أما ما يُسمى اليوم بالثقافة الشعبية، والتي هي تعبير في الحقيقة عن اللهجات المحلية، فهي ليست بلغة ثقافة في مستواها، وليست لغة وطنية من حيث امتدادها الجغرافي.إن لغة الثقافة من حيث

المستوى الثقافي واللغة الوطنية من حيث الشمول الجغرافي هي اللغة العربية.وإذا وقع انفصال في هذه الحقيقة في ظروف تاريخية عابرة قطعت التواصل الثقافي والوطني قرناً من الزمن فليس ذلك حجة يصبح بها الاستثناء قاعدة، وتتحول به القاعدة إلى استثناء. ولا يُمكن أن نُغفل الارتباط بين ظهور ما سُمي بالثقافة الشعبية عندنا، وبين تمكن اللغة الفرنسية في قطاع هام من الرأي العام، وحرمانه من اللغة الوطنية طيلة قرن»(٩).

ونجد أمامنا كذلك كتابه القيم الموسوم ب: «من أجل سعادة الإنسان»، وهو ترجمة عن الفرنسية لكتاب الفيلسوف الانجليزي«برتراند راسل» الموسوم ب: «كيف أفهم العالم»، ويتضمن هذا الكتاب مجموعة من الحوارات التي دارت بين الفيلسوف«راسل»، وأحد قرائه، وقد جرت هذه الجلسات في سلاسة ووضوح، نوقشت من خلالها جملة من المشاكل الإنسانية، وتناول فيه قضايا تتصل بالفلسفة والدين، والحرب، والسلم، والشيوعية، والرأسمالية، والأخلاق، والسياسة، والسعادة التي يُرجى تحقيقها للجماعة، ودور الفرد فيها، والوطنية، والتعصب، ومستقبل الإنسانية، ويصف عبد الله شريط هذا الكتاب بأنه يحوي كل ما يهم المثقف العادي، وبعبارة أصح كل ما لا يجوز لأي مثقف أن يجهله من قضايا عصره، ومجتمعه الوطني، والإنساني العام، وما شجع الدكتور شريط على ترجمة، ونشر هذا الكتاب«وضوح أفكاره، وبساطة تعابيره، فهو عبارة عن حديث ممتع يجري بين رجلين، وليس كتاباً يستشهد فيه صاحبه بأقوال الآخرين، ويحللها، ويُقارن بينها، فصاحبه يتحدث على كثير من القضايا التي ما تزال قائمة إلى اليوم، ويظهر أن صاحبه قد تعمد تبسيطه، وتعمد إخراجه في هذا الأسلوب-السؤال والجواب-وهو يقصد تمكين أوسع طبقة ممكنة من القراء للاستفادة منه.إنه عبارة عن«شعبية»فلسفة برتراند راسل. فهو ككل التقدميين في العالم لا يؤمن بأن الفلسفة يجب أن تبقى وقفاً على طبقة من الاحتكاريين في القطاع الفكري، وإنما يجب أن تعمم ويستفيد منها كل قادر على القراءة كما يستفيد من مزايا الحضارة في بقية القطاعات المادية أو السياسية والفنية»(١٠). وبترجمته لهذا الكتاب يكون الدكتور شريط قد قدم خدمة كُبرى للقارئ العربي، فاختياره لهذا الكتاب اختيار ذكي، وموفق إلى أبعد الحدود، يكشف لنا عن عمق رؤاه، واتساع ثقافته، ودقة اختياره ، إذ أنه كتاب لا غنى عنه.وما قُلناه عن هذا الكتاب ينطبق كذلك على ترجمته لكتاب:«مذكرات الماجور طومسون»لمؤلفه الفرنسي بيار دانينو، تحت عنوان :«أخلاقيات غربية في الجزائر»، وقد اختار ترجمة هذا الكتاب لما فيه من الطرافة، والمتعة، والفن الرفيع ولعلاقته الوثيقة بالمجتمع الجزائري، فقد أُلف الكتاب على لسان مُلاحظ انكليزي يُحلل الأمراض الأخلاقية في المجتمع الفرنسي، ويتحدث الدكتور شريط عن الأسباب التي دفعته لاقتباس هذا السفر، فيقول: «الغريب في هذا الكتاب هو أنك تقرؤه فتشعر بأنه في كثير من الحالات يُحلل لك المجتمع الجزائري، وليس معنى هذا أن المجتمع الجزائري هو وحده الذي يشبه المجتمع الفرنسي، بل أعتقد أن الكثير من هذه العيوب توجد بكثرة أو بقلة في كل المجتمعات البشرية، هذا من ناحية، ثم من ناحية أخرى لأن طول معاشرتنا للمجتمع الفرنسي الذي عاش معنا أكثر من قرن قد ترك فينا عادات لا نشعر بها إلا عندما نقرؤها في مثل هذا الكتاب.

ومما يزيد هذه النقائص بروزاً، مقارنة الكاتب لها بمثيلاتها عند الانكليز، بحيث إن القارئ الجزائري مثلاً يخرج من قراءته بتحليل دقيق لما تركه فينا الفرنسيون من أخلاق وعادات، وفي نفس الوقت يكون فكرة عن أخلاق الانكليز بنوع من المقارنة الطريفة، والدعابة الذكية، والنوادر والملح، حتى أن قراءته لا تعد تعباً بل راحة من التعب، هي ألذ من الموسيقى، وأروع من مشاهدة فيلم ناجح... إن المؤلف سيحدثك عن المجتمعات التي تفضل حياة التعقيد على حياة البساطة، وتضيع وقتها في الجزئيات، وتهمل المبادئ والأمهات، ويحدثك عن الأنانية التي تأخذ شكل فلسفة«عميقة»، وعن نماذج من الأشخاص أو المجتمعات تعيش في مخاوف وهمية، أو مجازفات لا مبرر لها ولا عقل يُقرها، ويحلل بالخصوص-وبدقة تثير الدهشة- ما في حياة الناس من تناقضات عجيبة لا يتفطن الإنسان لسخفها إلا عندما يُقدمها له مصور دقيق الملاحظة عميق الإدراك،والفن الرفيع في الكتابة هو من ينقل لك الواقع الذي تعيشه بظلاله وأضوائه الدقيقة إلى صورة تلمسها أمامك، وتضع إصبعك على جزئياتها. ويحدثك عن عيوب شخص آخر فتشعر أنه يشرح لك أعماق ما في نفسك أنت من عيوب، وقد فضل أن يتحدث فيه على لسان ملاحظ إنكليزي يرقب حياة الفرنسيين ويسجلها ويحللها، ونجح فعلاً في تبني ما في الطبيعة الانكليزية من تهكم وسخرية وبرودة كبرياء حتى أن القارئ لا يتوهم أبداً أن كاتبه فرنسي، ثم إن الأسلوب الذي اتبعه يعتبر بحق مدرسة جديدة جديرة بأن تُحتذى»[11].

ويرى الدكتور شريط من خلال هذا السفر أن المعركة التي لابد أن نخوضها هي معركة الانسجام، ويستوجب علينا أن ننتصر في هذه المعركة، حيث يقول في المقدمة:«إننا نعيش اليوم معركة مهولة لا تقل خطورة عن أشد فترات تاريخنا في الماضي البعيد أو القريب، وهي معركة الانسجام.نعم إن كل شعوب الأرض تعاني نصيباً من هذه المعركة، ولكن نصيب الشعوب المتخلفة منها أعظم وأعنف، واعتقادنا أننا لن نتمكن من الانتصار في هذه المعركة، إلا إذا سلكنا إليها طريقاً علمياً واضحاً، وهو أن نقسم جهادنا فيها إلى مرحلتين:مرحلة الكشف عن المرض أولاً، ثم مرحلة البحث عن الدواء بعد ذلك.ولقد كان هدف ما كتبناه حتى الآن داخلاً في نطاق المرحلة الأولى، تطرقنا إلى الكشف عن بعض أوجه نقائصنا سواءً في المعتقدات الدينية، أو الانحرافات السياسية والاجتماعية، أو المفاهيم الثقافية المغلوطة، أو الاعوجاجات النفسية المريضة، والجديد في صفحات هذا الكتاب هي الدقة في الوصف، والتعمق في الجزئيات التي لا يتفطن لها الناس العاديون، وبأسلوب فيه من المتعة قدر ما فيه من الفائدة»[12].
كما يُشدد الدكتور شريط من خلال هذا السفر على ضرورة علاج الأمراض التي تُعاني منها المجتمعات العربية بعيداً عن أية مجاملة، فهو يرى ضرورة تبين مشاكلنا، وتلمس مواقع أرجلنا بدقة، وطرح قضايانا طرحاً صحيحاً وشجاعاً يتسم بالوضوح والدقة، وهذا ما يُمكننا من العثور على حلول ناجعة سليمة في النهاية، وهذا ما عبر عنه بقوله:«لا عُذر لنا في أن نُجامل مُجتمعنا، أو نخفي عنه عيوبه سواء منها ما كان هو المسؤول عنه مباشرة، أو ما ورثه إرثاً، ولا حيلة له فيه، أو ما انتقل إليه عن طريق لم يتسبب في فتحها على نفسه، وإذا سكتنا عن بعض الحقائق، فلأننا لا نرى الوقت مواتياً لأن

يأتي حديثنا عنها بالثمرة المطلوبة، وأنه لابد من انتظار الفصل المناسب لزرع نباتات بعينها، بل إن بعضاً آخر من إخواننا في أقطار أخرى يؤاخذوننا على استعجالنا، وعدم ترفقنا بمجتمعنا، وبأننا نريد أن نحمله على التحسن والنهوض بسرعة غير طبيعية. كل هذه الملاحظات كاشفنا بها إخوان لنا مخلصون، وكاشفناهم بدورنا بأن ما يحملنا على هذا الاستعجال هو شعورنا بأننا نعيش في فم الأسد كما يقولون، وأننا نوجد على مسافة ساعة واحدة من أوربا التي تخطو مائة خطوة عندما نخطو نحن خطوة واحدة إلى الأمام، وأننا لا نقيس مسؤوليتنا في التقدم بنسبة من هو أضعف منا، أو أكثر بُطئاً، بل نقيسها بنسبة من هو أقوى منا وأسرع، وبأنه لا اختيار لنا، و لا حيلة في هذا القياس. إن كل واحد منا يشعر بأننا في أشد الحاجة إلى معالجة هذا الميدان، والإلحاح عليه، والتحيل لاساغته بكل حيلة ووسيلة. إننا خرجنا من حرب طويلة الأمد، والحرب في كل مجتمع تخلف هوة أخلاقية خطيرة، ثم إننا ورثنا عادات أخلاقية متضاربة بعضها من أجدادنا في عصور الانحطاط الماضية، وبعضها الآخر من أقوام فرضوا علينا حياة لم ننضج بعد لأن نحياها، فكان من جراء ذلك أن أصبح مجتمعنا يعيش متضارباً متناقضاً في كل ثنايا وجوده: في تفكيره، ومشاعره، وذوقه، وفي اقتصاده، وتجارته، وفلاحته، في إدارته، وعاداته، وميوله، في بيته، ومع أولاده، ومركز عمله. والعقل يتغذى في طريقة تفكيره من الحياة المُحيطة به، وعقلنا -الجماعي والفردي- يعيش مُحاطاً بهذا التضارب والتناقض فينطبع بهما، ويتلون بلونهما المشوش، فلا تجد انسجاماً في تفكيرنا، ولا في عملنا. الفرد الواحد غير منسجم مع نفسه، وغير منسجم مع أقاربه، وغير منسجم مع الآلات التي يستعملها في عمله، والإدارة الواحدة غير منسجمة مع نفسها، والمجتمع غير منسجم مع المدينة التي يعيش فيها، والخطر في كل ذلك أننا نعيشه، ولا نشعر به، فنراه طبيعياً كما نرى اضطراب الأمواج طبيعياً في البحر. وهذا ما يجعل حياتنا الأخلاقية، والاجتماعية في وضع دقيق جداً، ومؤلم جداً لمن يحسه، ويشعر به، ويدركه ويفكر فيه، ويحاول علاجه»[١٢].

وإذا أردنا أن ننتقل إلى الأسفار الأخرى التي ألفها الدكتور شريط، فإننا نُلفي أمامنا مجموعته الشعرية «الرماد»، وكتاب: «نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون» الذي انتقى فيه مجموعة من النصوص من مقدمة العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون، وقدم قراءات متنوعة لها، وهو يهدف من خلال هذا الكتاب إلى تقديم تفسيرات، وشروحات متنوعة للفكر الخلدوني، وبالاشتراك مع الكاتب محمد الميلي ألف كتاب: «مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي»، إضافة إلى كتاب: «تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب»، وهو يحتوي على مجموعة من المحاضرات في تاريخ الثقافة والأدب العربي ألقاها على طلبة كلية محمد بن عبد الله بجامع الزيتونة بتونس في بداية الخمسينيات. وكتاب: «حوار إيديولوجي حول المسألة الصحراوية والقضية الفلسطينية»، وهو عبارة عن مجموعة من الحوارات والنقاشات الفكرية التي أجراها الأستاذ شريط مع المفكر المغربي الكبير عبد الله العروي، بالإضافة إلى كتاب: «الإيديولوجية والتنمية»، وكتاب «المشكلة الأيديولوجية في الجزائر»، و«المنابع الفلسفية للفكر الاشتراكي في الجزائر»، وكتاب «مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الأيديولوجي في

عبد الله شريط المفكر الرائد والفيلسوف المناضل

الجزائر، وقد تحدث الدكتور عبد الله شريط يوم تكريمه بالمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، عن انتهائه من تأليف كتاب هام يقع في خمسة عشر فصلاً، قضى في تأليفه عشر سنوات، عن مشكلة ثقافة الدولة.

عبد الله شريط بعيون نخبة من معاصريه وتلاميذه:

على الرغم من المحاولات التي بذلها الفرنكفونيون بغرض تهميش، وإنكار جهود الدكتور شريط، وصرف أنظار الأجيال الجديدة عن فكره، وفلسفته، إلا أنهم لم يُفلحوا في ذلك، فقد حظي باهتمام كبير من قبل المفكرين والمثقفين الجزائريين والعرب، من مختلف الأجيال، فكتبوا عنه، واهتموا برؤاه المتميزة، وقدموا شهادات هامة تبرهن على مكانته المرموقة، وتُبرز الاهتمام الكبير الذي حظي به مشروعه الفكري والفلسفي.

إن شهادة الدكتور محمد العربي ولد خليفة؛ رئيس المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، لهي شهادة ثرية حقاً، فهو أحد تلامذته الذين نهلوا من علمه، وعشقوا فكره، وأُعجبوا أيما إعجاب بنضاله، حيث يقول: «إن عبد الله شريط ينتمي إلى سلسلة ذهبية من رجالات التنوير الذين استوعبوا معطيات عصرهم، ورهانات المستقبل، يبرز في السلسلة الذهبية المغاربية عباقرة تجاوز تأثيرهم عصرهم، مثل ابن رشد الحفيد، وابن خلدون، وعبد الحميد ابن باديس، ومالك بن نبي، وقد حصل عبد الله شريط على موقع لا تحجبه المعاصرة بين أولئك القادة الفاتحين، فهو باحث في ظواهر المجتمع، وفي واقعه الكلي، وفي استمراريته التاريخية، أثرى المفاهيم الخلدونية في فلسفة التاريخ، وعلم العمران، وسياسات الدولة بين النظرية والتطبيق، لقد استلهم الأستاذ شريط من المنهج الباديسي الكثير من أفكاره في النهضة، والإصلاح، وخاصة الجانب العملي الذي يتجنب الإغراق في التنظير والتجريد، وعدم الانعزال عن الناس في حلقات ضيقة من أهل الفكر، فنجد الأستاذ في مدرجات الجامعة، وفي مختلف وسائط التبليغ يحاور أقرانه، ويتحمس لأفكاره، ويضع الوقائع في ميزان النقد، ويخرجها من العنعنة عن فلان، وعن السردية»[١١].

ويشير الدكتور ولد خليفة إلى أن المفكر شريط قد أدرك منذ شبابه المبكر أن الانتصار العظيم على العدو الفرنسي هو المفتاح والبداية التي تمهد الطريق لاستكمال مشروع التحرير، ومواجهة التخلف الموروث، والمتراكم في الأذهان والسلوكات الذي كان من مضاعفاته اعتقال العقل، وتلويث الروح، ويؤكد على أن شخصية الدكتور شريط تقترب من الموسوعية، وقد سجلت حضوراً نشيطاً في الساحة الثقافية والسياسية لأكثر من نصف قرن، ولاسيما في مجال الحوار، وتوليد الأفكار، بالانطلاق من الواقع، والعودة إليه بعد التوصيف، والتشخيص، واقتراح وصفات العلاج، ويشير إلى أنه سواء اتفقنا أم اختلفنا مع طروحات المفكر شريط فإنه يفرض على القارئ والمتلقي لخطابه الاهتمام والاحترام، نظراً لما يتميز به من شجاعة في خوض المعارك الفكرية التي شغلت النخبة الوطنية، وما زالت تثير الجدل إلى اليوم، مثل: قضايا الإيديولوجية، واللغة العربية، والأصالة والحداثة، وصيرورة المجتمع الجزائري، ووضع الأمة العربية والإسلامية، والأسباب الراهنة والتاريخية للعجز والاستلاب عن طريق التقوقع في الماضي أو الاندماج الاستهلاكي في حداثة الغرب.

وأما الأستاذ علي بن فليس؛ رئيس الحكومة

الجزائرية الأسبق، فقد أشاد بخصال، ونضال هذا المفكر العملاق، واصفاً إياه «بالطود الذي نستظل بظله، فهو واحدٌ ممن أخلصوا للوطن، ذرع في سبيله حقول الفكر، وتطوف بأرجاء المعرفة النافعة، وغمر الأجيال بصالح آرائه، وخالص أعماله، وصادق جهاده، وقويم نضاله»[15]، ويعتبر الأستاذ بن فليس أن عبد الله شريط هو واحد من أهم كتاب الفكر السياسي في الجزائر، والوطن العربي، حيث إنه أغنى المشهد الفكري، والفلسفي بتقديمه لعشرات الأبحاث الرصينة، في مختلف مظاهر المعرفة وفنونها، علاوة على فضله في إثراء الحقل الإعلامي كتابة، وإذاعة، وبثاً، مُستخلصاً أنه يكفي هذا المفكر الرائد فخراً أنه صاحب تلك المجلدات الضخمة التي كُتبت عن الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية.

ويصفه تلميذه الباحث الدكتور عبد الرزاق قسوم، بأنه فيلسوف المعاني الذي يمزج في بلاغة منطقية دقيقة وعميقة بين الفلسفة والأدب، وينحت بصياغة فقهية ثمينة، وبراعة لفظية أمينة بين المبنى والمعنى، ويتساءل الدكتور قسوم: «بأي الكلمات أصفه؟ لأفيه حقه من الموضوعية، بعيداً عن الذاتية التي ينبذها، وعن العاطفية، والمحسوبية التي نرفضها، أأصفه بالجبل في صلابة مواقفه وثبات مبادئه؟ أم أصفه بالنخلة في شموخه، وعلوه وخصوبة إنتاجه، وتسامحه مع مخالفيه؟ أم هل أقول عنه، بأنه البحر في موسوعية علمه، وسعة أفقه، وعمق مفاهيمه؟ يصعب أن تجد لأستاذنا عبد الله شريط، وصفاً جامعاً مانعاً يفي بخصائصه، وخصوصياته، فهو صيغة منتهى الأوصاف، وما ظنك بفيلسوف أخذ من الفلسفة منهاجاً فطبقه على كل اهتماماته العقلية، وأخذ من الأدب المقفى، والمسجوع سلاسة اللغة، وعذوبة الأسلوب، ومسحة الجمال، فانعكس كل ذلك على لغته الشاعرية والفلسفية. كما أخذ من الحكمة، والتسامح، والجدل بالتي هي أحسن، فسال ذلك على منهجه في الاختلاف، فكان عنده أدب الخلاف، الذي تحلى به أئمة الفقه، كما نلمس ذلك عند الإمام الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب»، ذلك هو أستاذي -عبد الله شريط- مثقف تعددت أصول مواهبه، وتلونت ينابيع عبقريته، أديب، وفيلسوف، وصحافي، وعالم اجتماع، وفقيه ديني، وإن يتلمس فتواه عند كل من الجاحظ، وابن خلدون وحتى أوغست كونت، عندما يتعلق الأمر بأفقية المجتمع، ونوازل التخلف، ولك أن تجمع -في شكل واحد- مجموع هذه الاهتمامات»[16].

وعن شهادة المفكر الدكتور أبي عمران الشيخ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، فقد استعاد من خلالها ذكرياته مع المفكر الراحل بقوله «أول معرفتي بالدكتور عبد الله شريط كانت في قسم الفلسفة الإسلامية بجامعة الجزائر، حيث درسنا معاً، وأهم ما كان يُعجبني في الزميل المحترم هو النكتة الخفيفة، إذ كنا في قسم الفلسفة لا نبدأ التدريس إلا إذا التقينا على نكتة، وأول نشاط فكري قمنا به في قسم الفلسفة بمساعدة وزارة الإعلام والثقافة، هو مهرجان ابن رشد سنة:١٩٧٨م، وكان هذا النشاط في القمة، وكان في كل هذا وجود الدكتور عبد الله شريط الذي نعتبره العميد، لقد كُنا ثمرة فريق تربط بيننا أشياء قوية: حب الوطن، والدين الصحيح، ونشر الثقافة، والنهوض بثقافتنا الوطنية، وإظهار الجزائر في المحافل الدولية، وقد شاركتُ معه أحياناً في نشاطات بمنظمة اليونسكو،

عبد الله شريط المفكر الرائد والفيلسوف المناضل

وأحياناً في حوارات بالجامعة التونسية، وغيرها من الجامعات، فكنا فريقاً متيناً مُتضامناً، فكل واحد منا له شخصيته الخاصة، والمميزة»[١٧].

وأما شيخ المؤرخين الجزائريين: العلاّمة الدكتور أبو القاسم سعد الله، فيرى في شهادته أن الدكتور عبد الله شريط تميز بشخصية رزينة هادئة، وعُرف بتواضعه الجم، وقد كان مُتوازناً في آرائه، وقد غلبت العقلنة على تفكيره كونه أستاذاً للفلسفة، فكان يتدخل في الندوات الفكرية، والمؤتمرات العلمية، ولا يتحمس لرأيه، ويشير الدكتور سعد الله إلى أنه طوال مسيرته وقف مسانداً وراداً على المخالفين أو المترددين، وأسهم في الرد على من اعتقد أنهم أساؤوا للمنظومة التربوية، وكذلك فعل في مسألة فلسطين، والقضايا العربية الأخرى حيث يلبس شريط عباءة الوطني الغيور الذي عناه محمد العيد آل خليفة حين خاطب المترددين بين الاندماج والانفصال عن فرنسا بقوله: قف حيث شعبك مهما كان موقفه... كما عارض دعاة البربرية والتزم الخط الرسمي حولها، وقد كان وطنياً مُلتزماً بوحدة الوطن وثوابته، وقد عكست مؤلفاته، وأحاديثه نمط تفكيره، ووفقاً لرؤية الدكتور أبو القاسم سعد الله فعبد الله شريط ليس فيلسوفاً بالمعنى النقدي، ولكنه عالم أخلاق واجتماع، والمتأمل في خط سيره الفكري يجده مُلاحظاً واصفاً أكثر منه مؤسساً لنظرية، وهو يعدُ رائداً لجيل من الباحثين في مجال التربية السياسية، وبناء الشخصية الإنسانية، وقد اختتم الدكتور سعد الله شهادته بإشارته إلى أن عبد الله شريط قد ملأ عصره بالكتابة في الصحافة، والتدريس بالجامعة، والحديث في الإعلام المسموع والمرئي، والمشاركة في أكثر من مجال اجتماعي وثقافي، وهكذا فقد ترك بصماته على مرحلة طويلة من تاريخ الجزائر، وسيذكر الناس شخصيته الهادئة الرصينة، ونقاشه الصريح والجريء مع أصدقائه، وحتى مع الذين لا يتفقون معه في المشرب، كما سيذكرون تواضعه الكبير، وتقبله للنقد والرأي الآخر.

شهادة أخرى للمفكر، والمناضل السياسي الكبير عبد الحميد مهري: الأمين العام السابق لحزب جبهة التحرير الوطني، ركز فيها على الجانب النضالي في شخصية عبد الله شريط، حيث يذكر أن عبد الله شريط كان واحداً من المناضلين الكبار، دخل ميدان الإعلام منذ شبابه، وكان يحرص على اللقاء بالمناضلين الجزائريين في التنظيمات السرية لحزب الشعب الجزائري في تونس، كما كان مُداوماً على الحضور في لجنة الإعلام السرية، وقد اتسم بخُلق سام، وتواضع جم، ويذكر عبد الحميد مهري أن عمل المفكر عبد الله شريط كان يتركز على تحرير المقالات عن الجزائر، وعن الأوضاع الجزائرية في تلك المرحلة، وقد تولى التكفل بمراجعة وتصحيح المقالات التي يكتبها المناضلون الجزائريون في الصحافة التونسية «وكان عمله في جريدة الصباح، وفي معرض الصحافة بصفة خاصة بمثابة باب مفتوح للقضية الجزائرية، والعربية بصفة عامة، وكان يطلع، ويُلخص كل ما يصدر في العالم عن المنطقة العربية، وعن الجزائر، ويقدمها إلى القراء في لغة عربية متينة، وممتازة في قالب فرض نفسه على اليومية التونسية، وأصبح الناس يشترون جريدة الصباح، وبالأخص معرض الصحافة، لقد كان مُناضلاً صامتاً، قدم العديد من الخدمات، واستمر عطاؤه أثناء الثورة

في جريدة المجاهد، وفي منشورات الثورة، كما كان حريصاً على تقديم صورة مُشرقة عن الجزائر»[١٨].

ويذكر الأستاذ الأمين بشيشي؛النائب الأول لرئيس المجمع العربي للموسيقى لجامعة الدول العربية، والمدير العام للإذاعة الوطنية الجزائرية، ووزير الاتصال سابقا؛ أن الدكتور عبد الله شريط كان يتمتع بدبلوماسية كبيرة، وتكاد تكون دبلوماسية غريزية، وآنية فيه، وقد عُرف بخفة ظله رغم وزنه الفكري، فهو صاحب نكتة، وكان دائماً حريصاً على توجيه زملائه، وأصدقائه، ويمدهم بما لديه من حنكة، وما لديه من صبر، سواءً قبل العهد الأول قبل تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة، أم بعدها، وهذا ما جعله يحظى بمحبة وتقدير الجميع، كما أشار الأستاذ بشيشي في شهادته أن الدكتور شريط هو الذي كان يكتب التعليقات السياسية التي كان يذيعها الإعلامي الجزائري المعروف عيسى مسعودي، وقد كان لها تأثير كبير في نفوس الجزائريين، وباقي الشعوب العربية.

وعن منهجه في التدريس، وفي تقديم البرامج الإذاعية يشير تلميذه الناقد الدكتور أحمد منور في شهادته إلى أن عبد الله شريط «هو الشخص الذي استدعى طريقة جد تربوية مهمة، وهي الطريقة السوقراطية، فقد اتبع فكرة الحوار، الأخذ، والرد، وطرح الأسئلة ثم الإجابة عنها، ولمدة سنوات طويلة، وهو يُقدم برنامجاً في الإذاعة بهذا الشكل، فالحقيقة أن هذه الطريقة المبتكرة نالت إعجاب الجميع، لكن لما دخلنا إلى الجامعة في نهاية الستينيات، وبداية السبعينيات اكتشفنا الأستاذ عبدالله شريط من جانب آخر، وهو الجانب الفكري، والجانب الفلسفي، وأقول إنه الأستاذ الذي أفهمنا الفلسفة، وأفهمنا النظريات التي كُنا نخافها، ونخشاها، ونعتبرها غامضة، وصعبة، ومُعقدة.كانت له طريقته الخاصة في إيصال هذه الأفكار، وأستطيع أن أفسر هذا بأن الأستاذ شريط لم يكن أستاذاً للفلسفة فقط، كان متعدد الجوانب، كان أديباً ويشهد على هذا الجانب كتاباته في المقالة، فهو يعتبر من أهم الرجال الذين كتبوا المقالة الصحفية عندنا في الجزائر، ويدل على ذلك ديوانه الشعري الذي سماه«الرماد»حيث اكتشفناه شاعراً مُتحكماً في قوافي الشعر، وكان باستطاعته أن يكون اسماً كبيراً لو استمر في هذا المجال، وقد كان الأستاذ شريط يُحدثنا كثيراً عن الأدباء، مثل:الجاحظ، ويحدثنا عن ابن خلدون، وعن مختلف المفكرين العرب والمسلمين، رغم أن البرنامج كان حول الفلسفة اليونانية، والأوروبية، لكنه كان يستطرد، وكانت استطراداته من أحسن ما يُقدم لنا»[١٩].

ويقول عنه الروائي الدكتور أمين الزاوي؛المدير العام السابق للمكتبة الوطنية الجزائرية: «هو من أهرامات الثقافة، والفكر في الجزائر، وهو من أدب الفلسفة، وأخلق الإذاعة، فقد أدب، وثقف، أخلق الإذاعة والجامعة، والحوارات والندوات التي كان يُنشطها، وحلقاته التي كانت تُذاع في الإذاعة الوطنية، هي وثيقة في المجتمع الجزائري، وفي الدولة الجزائرية، وفي ذهنيات المجتمع الجزائري، وأخلاق المجتمع الجزائري، وفي طريقة الحوار الجزائري، فقد ثقف السياسة، وثقف الجامعة، لأنه كان أديباً، وكان في الجامعة دائماً مُحاوراً، كانت الجامعة معالمه، وكانت الجامعة عنده من زجاج، فهي

عبد الله شريط المفكر الرائد والفيلسوف المناضل

مفتوحة على المجتمع، ومفتوحة على الثقافة، ومفتوحة على الإعلام، وهو صاحب ديوان الرماد الذي احتفلت به مجلة «الآداب»، وهي من أكبر المجلات في العالم العربي، وأعتقد أنه هو الذي جمع بين الفلسفة، والآداب، فكان شبيهاً إلى حد كبير بأبي العلاء المعري»[٢].

فذلكة:

لقد كان أستاذنا العلاّمة الدكتور عبد الله شريط أحد عمالقة الفكر في الوطن العربي، ترك بصمات خالدة في تاريخ الفكر الجزائري والعربي، إنه مفكر من طراز الفاتحين في عالم المعرفة، صاحب فكر شامل، عُرف بجرأته وشجاعته في إبداء آرائه، وبعُمقه في طرح، وتحليل المفاهيم، ولم يكن يكتفي بمناقشة الإشكالات، وعرضها، بل تُلفيه يبحث لها عن حلول ناجعة، وشافية من وجهة منطقية، جمع بين الفكر، والفلسفة، والأدب، والتاريخ، والإبداع، وجميع الميادين التي طرقها الدكتور شريط لم يكن يلج أبوابها من باب التقليد، بل كان مُجدداً، تميز بثراء عطائه «رصد الواقع الثقافي في الجزائر بعد الاستقلال، فخاض معركة التعريب برؤية مثقف، أراد أن يكون فاعلاً، وكان له ذلك، ناظر رجالاً عاصروه في الفكر والاهتمام، وأحيا معهم نقاشاً لا يزال إلى اليوم متصلاً، لأن الفكر لا يموت، بل يتجدد، عرج على الكثير من القضايا ذات الأولوية الفكرية، بدءاً بالتعريب إلى إصلاح الجامعة، والمدرسة، إلى الثقافة باعتبارها تنمية بشرية هامة، تميز أستاذنا الراحل بتلك الإيجابية الشجاعة التي هي علامة من علامات عمالقة الفكر، لقد ظل طوال مشواره يؤكد على ضرورة حماية الثقافة الوطنية العربية في الجزائر، فعروبة الجزائر راسخة على مدى التاريخ، والثقافة الوطنية هي المرجع الرئيس، والأساس، ووفقاً لرؤيته فأفكار التخريب، والاستلاب الحضاري تمسخ هوية الفرد، وتُحيله إلى علامات استفهام بشرية كبيرة»[٢١]. وعن الجانب الأخلاقي والحضاري في شخصية الدكتور شريط، فقد كان أنموذجاً فريداً في الحوار الحضاري والعقلاني، وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى طبيعته الهادئة، وقوة منطقه، وسعة معرفته، وعمق ثقافته، كما عُرف برحابة صدره، وتواضعه الجم، وتسامحه الكبير، فعلى الرغم من المعركة الفكرية الكبيرة التي خاضها مع المفكر مصطفى الأشرف، بيد أنه كان يُوصي طلبته بقراءة كتبه والاستفادة منها، ولم يتناوله بالقدح أمام طلابه، وأصدقائه، وهذا ما نلمسه في مسيرة الدكتور شريط ككل مع عامة الناس، وعندما تُجالسه فإنك تكتشف عظمة ذلك الرجل، حيث إنه يروي لك قصصاً، ونوادر متصلة، ومتنوعة، ويثير قضايا فكرية معمقة، بيد أنه يعرضها عليك بطريقة سردية جذابة ودقيقة تستلب اهتمامك، وتجعلك لا تمل من حديثه أبداً، وهذا ما نُلفيه في طريقته المتميزة في التعليم، فهو يسرد المعلومات على طلابه بطريقة مشوقة، تأخذ بألبابهم، وتشغفهم بالمادة، وهذا ما جعل طُلابه مُحبين وأوفياء له حيثما لاقوه، فكثيراً ما تلمحه واقفاً مع مجموعة من طلابه القُدامى، الذين كلما رأوه هرعوا لإيقافه، والحديث معه، وأبدوا استعدادهم لأداء أية خدمة، وكثيراً ما يستعيدون معه ذكرياتهم، ويذكرونه بمواقف طريفة، وجليلة وقعت لهم معه، ولا تُلفي في شخصيته تناقضاً بين الجدية والانضباط، والمُزاح، والفُكاهة، وهذا ما اكتشفه

جميع من خامره، فيخبر روح المرح والدعابة عنده...

ذلكم هو العلاّمة الجليل عبد الله شريط، مفكر من الجزائر، ستظل أفكاره، ورؤاه صداحة، ومملوءة بمعاني التغيير، واستشراف المستقبل الأفضل، قضى حياته فيلسوفاً مناضلاً مع الفلاسفة، ومفكراً رائداً مع رواد الفكر العربي، ومُجاهداً في ساحات الوغى ضد الاستعمار الفرنسي بالسلاح، والقلم، ظل طوال مسيرته مُتنسكاً في محاريب العلم، والمعرفة، كانت حياته حياة جد، وبحث، وكفاح، وقد ترك لنا مؤلفات هامة ستبقى الأجيال العربية تستنير بمضامينها، فهي شاهدة على مراحل زاهرة من تاريخ الفكر العربي.

الهوامش:

١- يُنظر كلمة وزير المجاهدين الجزائريين محمد شريف عباس التي ألقاها في اليوم التكريمي للدكتور عبد الله شريط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، مجلة الكتاب، عدد:٠٢، ٢٠٠٥ م، ص:٢٨.

٢- د.محمد العربي ولد خليفة:عبد الله شريط المفكر والمناضل الحر بأقلام نخبة من معاصريه وتلاميذه، جريدة صوت الأحرار، العدد:٣٧٨٠، ١٨جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

٣- يُنظر كلمة الدكتور عبد الله شريط يوم تكريمه بالمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، نقلاً عن الدكتور محمد العربي ولد خليفة:عبد الله شريط المفكر والمناضل الحر بأقلام نخبة من معاصريه وتلاميذه، جريدة الشعب، العدد:١٥٢٤٢، ١٧ جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

٤- يُنظر تقديم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لكتاب: «الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية»للدكتور عبد الله شريط، منشورات وزارة المجاهدين بالجزائر، ج:٠١، نقلاً عن مجلة الكتاب، عدد:٠٢، ٢٠٠٥م، ص:٣٧.

٥- قراءة في موسوعة: «الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية»للدكتور عبد الله شريط، مجلة الكتاب، عدد:٠٢، ٢٠٠٥م، ص:٣٧-٣٨.

٦- يُنظر كلمة الدكتور عبد الله شريط يوم تكريمه بالمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، نقلاً عن الدكتور محمد العربي ولد خليفة: عبد الله شريط المفكر والمناضل الحر بأقلام نخبة من معاصريه وتلاميذه، المصدر السابق، ص:١١.

٧- د.عبد الله شريط:من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص:٥-٦.

٨- د.عبد الله شريط:نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت، ص:٦.

٩- د.عبد الله شريط:المصدر نفسه، ص:٠٨.

١٠- د.عبد الله شريط:من أجل سعادة الإنسان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص:٨-٩.

١١- د.عبد الله شريط: أخلاقيات غربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص:٨-١٠.

١٢- د.عبد الله شريط: المصدر نفسه، ص:٧.

١٣- المصدر نفسه، ص:٥ وما بعدها.

١٤- شهادة الدكتور محمد العربي ولد خليفة، يُنظر جريدة الشعب، العدد:١٥٢٤٠، ١٤جويلية٢٠١٠م، ص:٠٧.

١٥- محمد.ب:عبد الله شريط:وسام تقدير لعمر من النضال والعطاء الفكري، جريدة المساء، القسم الثقافي، ٢٤ديسمبر٢٠٠٢م، ص:٠٢.

١٦- شهادة الدكتور عبد الرزاق قسوم، يُنظر جريدة صوت الأحرار، العدد:٣٧٨٠، ١٨ جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

١٧- شهادة الدكتور أبو عمران الشيخ: يُنظر جريدة صوت الأحرار، العدد:٣٧٧٩، ١٧ جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

١٨- شهادة المناضل والسياسي عبد الحميد مهري، يُنظر جريدة صوت الأحرار، العدد:٣٧٧٩، ١٧ جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

١٩- شهادة الدكتور أحمد منور، يُنظر جريدة الشعب، العدد:١٥٢٤٢، ١٧ جويلية٢٠١٠م، ص:١١.

٢٠- شهادة الدكتور أمين الزاوي، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٢١- د.محمد العربي ولد خليفة:المصدر السابق، والصفحة نفسها.

«طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب خلال العصر المملوكي»

الدكتورة المهندسة وفاء النعسان
مدرسة الدراسات العليا في قسم تاريخ العلوم التطبيقية وعلم الآثار
معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب

١ - مقدمة:

إن مدينة حلب من المدن العربية ذات النشاط التجاري والحرفي، تميزت به منذ القدم على المستويين المحلي والعالمي، بحكم الموقع الجغرافي والتجاري الذي يربط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، مما أكسب هذه المدينة طابعاً تجارياً وحرفياً، ودفع إلى إنشاء الكثير من المنشآت التجارية، وأصبحت عنصراً أساسياً في تكوين المدينة التراثية.

احتلت المنشآت التجارية بجميع أشكالها (قيساريات، خانات، وأسواق)، قلب المدينة القديمة، ولعبت دوراً مهماً في حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

حضنت مدينة حلب عدداً كبيراً من الخانات المملوكية كباقي المدن العربية الأخرى (دمشق، القاهرة، تونس، فاس، و بغداد ....). وكانت الخانات بجميع مراحلها مكاناً لممارسة العمل الحرفي والتجاري، وكان تخطيطها ضمن المدينة يحقق موقعاً وتصميماً آمناً لإنتاج وحفظ البضائع الثمينة إضافة إلى دورها السكني.

٢ - أهمية البحث:

إن لهذا البحث أهمية في أنه خطوة في ترسيخ المعلومات العلمية في مجال الإنشاء الهندسي لعمارة الخانات في مدينة حلب التي تعود إلى العهد المملوكي والتي سنطابق فيها المعلومات الواردة في الكتب التراثية التي تتناول خانات العصر المملوكي مع الوضع الراهن، آخذة بعين الاعتبار نوعية مواد البناء وطرائق تنفيذها. كما تنبع أهمية هذا البحث من أهمية المحافظة على عمارة خانات حلب، وخاصة أن كثيراً من هذه الخانات أصبح بحاجة إلى الترميم والإصلاح، بعد تدهور هذا التراث الثمين، والذي بدأ يبرز بحدة ويخلق مشكلة محلية ودولية.

الموضوع المطروح هو جديد في مضمونه وسيؤمن للمكتبة العربية والإسلامية دراسة نظرية موضوعية عن طرائق الإنشاءات الهندسية العربية الإسلامية التي استخدمت في بناء الخانات بحلب خلال العصر المملوكي.

٣ - الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

- الإشارة إلى أهمية الدور الحضاري الذي لعبته مدينة حلب عموماً والخانات خصوصاً، كمراكز للتبادل الاقتصادي والثقافي، وقدرة هذه المراكز على مواصلة هذا الدور في الحاضر والمستقبل.
- توثيق المنشآت التراثية (خانات حلب) التي لا تزال باقية حتى الآن والتي تعود للعصر المملوكي، وذلك بواسطة دراسات مكتبية وميدانية.
- دراسة تحليلية لخانات حلب التي تعود للعصر المملوكي، وذلك بالعودة للمصادر والمراجع التاريخية للتحقق من وجود هذه المباني ومقارنتها مع الوضع الراهن.
- دراسة التقنيات الهندسية للخانات المملوكية، ومعرفة مواد بنائها وطرائق تنفيذها، ومعرفة مقترحات ترميمها للحفاظ عليها.

إن هذا العمل يتطلب دراسة تمهيدية تاريخية مختصرة عن العصر المملوكي، وعن خصائص العمارة الإنشائية في ذلك العصر، ودراسة بدايات ظهور هذه الخانات مع دراسة البنيان الحجري لها، إضافة إلى معرفة نوعية وخصائص مواد البناء المستخدمة، ومعرفة طرائق الإنشاء المستخدمة في تنفيذها. وبعد انتهاء عملية التوثيق والدراسة التحليلية لتلك الخانات، يمكننا عندها معرفة الوسائل التدعيمية المطلوبة لترميمها بغية المحافظة عليها.

٤ - حلب مدينة تجارية:

كانت مدينة حلب حاضرة مزدهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبقيت ذات مكانة مهمة على مر القرون من خلال موقعها الاستراتيجي على ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب، الأمر الذي جعلها تقوم بدور مميز في تاريخ المنطقة منذ الممالك الأكادية والعمورية وحتى الآن، ولذلك فقد جعلها العموريون عاصمة لمملكتهم الواسعة (يمحاض) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

استمرت أهمية مدينة حلب التجارية بعد الفتح الإسلامي، فقد كانت إحدى أهم محطات طريق الحرير القادم من الصين إلى أوربا، مما أكسبها أهمية كبيرة من الناحية التجارية والصناعية، وفي العهد المملوكي أصبحت مركزاً مهماً من مراكز تجارة البحر الأبيض المتوسط العالمية، إذ كان يأتي إليها تجار البندقية لشراء الفستق والقطن والعقاقير الطبية، كما صارت سوقاً كبرى لأقمشة الحرير، ولازال في حلب خان يحمل اسم (خان البنادقة) وآخر يحمل اسم (خان الحرير)، وهذان من عشرات الخانات التجارية القديمة المنتشرة في أسواق المدينة والتي لا تزال تقوم بدورها التجاري حتى اليوم، وفي العهد العثماني أصبحت مركزاً للتجارة المتجهة إلى استانبول، ومنذ أواخر القرن السادس عشر أصبحت لحلب علاقات تجارية مهمة مع فرنسا وانكلترا وهولندا ومن هنا انتقلت إليها أنماط العمارة الأوربية.

كما تعد مدينة حلب واحدة من المدن التي لها شهرة كبيرة، وباع طويل في مجال العمل الاقتصادي ومفرداته، فالتاريخ يقدم لنا جملة معطيات بالغة الأهمية حول اقتصاديات حلب فهذه المدينة كانت تعد سوقاً عالمية، ومركزاً تجارياً دولياً بكل المقاييس الاقتصادية، لذلك أورد المؤرخون والرحالة العرب والأجانب أرقاماً

«طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب خلال العصر المملوكي»

وإحصائيات تدل بشكل واضح على كبر حجم العمل التجاري وضخامته في مدينة حلب. ومن ذلك ما أورده المستشرق الإنكليزي فرنسيس تشنسي، إنه في أحد السنين بلغ مجموع الجمال التي خرجت من حلب باتجاه الأناضول والعراق أكثر من خمسين ألف جَمل، تحمل البضائع من مختلف الأشكال والأنواع، عدا القوافل الأخرى التي كانت تتجه إلى بلاد الشام. ووصف زائر إنكليزي (هو رالف فيش عام ١٥٨٣م) حلب، فقال: «بأنها السوق الرئيسي لكل الشرق»، وقال واندولو قنصل البندقية في حلب عام(١٥٩٩ م): «حلب الهند الصغيرة بخاناتها الواسعة وتجارها الأغنياء ومبانيها الجميلة».

وهكذا فإن مدينة حلب قد تركت انطباعاً لدى كل زوارها وخاصة الأوربيين الذين دهشوا لتنوع اللغات التي سمعوها ووفرة البضائع التي وجدوها في الأسواق، وجمال الأزقة و البيوت والخانات المشرقة[1].

كما تعتبر حلب مدينة تجارية قديمة، ولها أهمية كبيرة بسبب موقعها الإستراتيجي الهام، لأنها كانت تربط بين شرق وغرب بلاد الشام، لذلك ازدهرت الخانات في حلب خاصة في العهد المملوكي، وازدادت هذه الأهمية في العهد العثماني، بسبب موقع حلب على طرق التجارة العالمية آنذاك، الأمر الذي ساعد على التبادلات التجارية بين الأقطار الخاضعة لهذه السلطنة، والبعيدة عنها حتى بلاد الصين.

ومدينة حلب تتميز بمكانة جغرافية ذات أهمية عظيمة لوقوعها على نقطة تقاطع طرق دولية من ناحية ولما هيأه لها مركزها الطبيعي من طبيعة خلابة ومكانة مرموقة من ناحية أخرى فهي مفتاح التجارة داخل آسيا، وهذا ما دعاها لإنشاء الخانات، لإيواء التجار والرواد الوافدين لغايات عديدة أهمها و أبرزها التجارة، ففيها غرف تعد لمبيتهم، وأماكن لإيواء دوابهم ورواحلهم، ومستودعات لحفظ بضائعهم.

إننا عندما نتحدث عن الاقتصاد فمن البديهي أن نحدد الإطار المكاني لممارسة الحياة الاقتصادية وهي هنا الأسواق والخانات. وسوف يتركز البحث هنا حول خانات حلب، وأهميتها ومعناها والدور الذي قامت به وما آلت إليه. خاصة خانات العصر المملوكي موضوع البحث.

٥ - الخان في التراث العلمي العربي:

ظهر هذا النوع من العمارة خلال الإمبراطورية الرومانية، وعلى طول طريق نهر الفرات المتجه إلى الشرق، ثم تطور في العصور الوسطى ليأخذ حيزاً من العمارة الإسلامية في عهد المماليك، ومن ثم العثمانيون الذين قاموا بإنشاء عدد من الخانات المهمة في الوطن العربي، ومنها حلب لما لها من أهمية تجارية.

تعود الخانات في نشأتها إلى عهود قديمة ولعل بداية ظهورها كانت انطلاقاً من إقامة الآبار، وما حولها من سياج على طريق القوافل، ثم تطورت مشكلة بناء ضخم من الحجر أو الآجر يغلق بباب كبير من الحديد يحوي أحياناً على باب صغير (باب الخوخة)، يظهر من الخارج كأنه حصن منيع له باحة داخلية كبيرة مكشوفة، فيها غالباً حوض ماء، وقد يتألف الخان من طابقين في الطابق الأرضي مخازن ومستودعات، وفوقه طابق للإقامة، واستخدم في بعض الأحيان جزء منه لإقامة القنصل.

وكثيرا ما كانت تزود بدواب الصدقة التي تعطى لكل من نفقت دابته أثناء السفر. كما أقيمت داخل المدن وعلى أطرافها أيضا فكان لها دورها الهام في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ففيها كان يلتقي التجار يتبادلون السلع، ويتقابل المسافرون فيتبادلون الأخبار والقصص، ويجتمع فيها العلماء المسافرون من بلد لآخر، فتكون أحاديثهم عن شؤون الدين والعلم.

عرفت الخانات في العصور الإسلامية الأولى، ولعل أقدم خان أنشئ في العهد الإسلامي، هو الخان الذي بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام (١٠٩ هـ / ٧٢٨م)، على مقربة من قصر الحير الغربي في البادية السورية[٢]، وقد ازدهرت الخانات في العهد المملوكي، لكن العناية الخاصة بالخانات والأسواق كانت في العهد العثماني، وذلك بسبب توسع وازدياد المبادلات التجارية بين الأقطار الخاضعة للإمبراطورية العثمانية.

تعددت آراء الباحثين والمؤرخين في أصل كلمة الخان، وذهبوا مذاهب شتى فيها، فبعضهم يجدها كلمة فارسية أو تركية[٣] و[٤] وتعني بالفارسية الحانوت، ومنهم من قال أنها تعني الحانوت أو المتجر أو منزل المسافرين، فهو قد يحتوي أسرة كبيرة أو عشيرة بفروعها، ومنها اشتقت كلمة خانة وتعني منزل الإنسان، وبلغة اليوم الحي الذي ينتسب إليه، وسجلت ولادته فيه ثم تفرعت الكلمة إلى الرئيس الكبير مثل كلمة جنكيز خان.

وترادف كلمة الخان أيضاً الوكالة، وهو اللفظ الذي أطلق على الخان في مصر، والقيسارية وهي بناء أصغر من بناء الخان وقد تخصصت باحتوائها على إحدى المهن، يقول الأسدي في موسوعته « وسمي هذا المنزل بالخان لأنه يبنيه الخان أعني الملك، كما سميت بعده القيسارية، لأنها منسوبة إلى القياصرة فهي دون الخان».

وكلمة خان أصلها أرامي حيث يطلق على الدكّان والمخدع، وتعني بالتركية دار العمل والتجارة. كما تعني الأمير أو السيد، حيث لقب به سلاطين تركستان[٥]. وأطلق على محطات القوافل التجارية، كما أطلق على الدار التي يسكنها التجار[٦]، وقد ذكر آدم متز بأن الخانات تعني المخازن الكبرى، فقد سميت في أواسط آسيا تيما وتعني المخزن الكبير[٧].

٥ - ١ - أنواع الخانات:

٥ - ١ - ١- الخانات خارج المدن:

وهي الخانات الموجودة على طرق السفر القاحلة والغاية منها هي إيواء التجار المسافرين عبر الصحراء والمنهكين من طول رحلتهم، لذا يضطرون للمبيت في هذه الخانات المنتشرة عبر الطرق الممتدة بين المدن ليحافظوا على أنفسهم وبضائعهم من اللصوص وقطاع الطرق، وهذه الخانات تكون محصنة وطبيعة تصميمها تهتم بإيواء المسافرين ودوابهم وبضائعهم والحرص على أمنهم، دون الاهتمام بجوانيت عرض البضائع، ومن هذه الخانات، خان العسل وخان شيخون وخان السبل وغيرها الكثير من الخانات المنتشرة على طول طرق السفر[٨].

بنيت الخانات خارج المدن وعلى الطرقات بينها لإيواء القوافل، ثم لم تلبث أن ظهرت وبأعداد كبيرة ضمن المدينة وأسواقها. وقد بنيت الخانات خارج المدن كما بنيت على أطراف المدينة كأماكن للاستراحة، والإقامة للقوافل

«طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب خلال العصر المملوكي»

مقالات

التي هدفها بلد آخر عندما تكون المدينة مغلقة، أو لمبيت الفعاليات التي تعيش على هامش المدينة، حيث وجدت هذه الخانات على الطرق التجارية القديمة إلا إنها انتعشت في العصر الإسلامي، وقد أقيمت لخلق مكان لإقامة المسافرين والتجار في الأماكن التي تتعرض لهجمات اللصوص، كما كانت أيضاً مركزاً لتبادل الأفكار ونشر العقائد. وكان ازدهار إنشاء الخانات في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في كل من إيران وسورية والأناضول.

يتكون مبنى الخان من حجرات لإقامة المسافرين وأحياناً مع حمام، ويتألف المبنى من الداخل من مسقط مربع الشكل وصحن كبير يحتوي على بئر، ويحيط بالصحن في الطابق الأرضي غرف (مخازن) لحفظ وتخزين البضائع، بالإضافة إلى إسطبل خصص لكل نوع من الحيوانات مكاناً خاصاً به[٩]. ويلحق في وسط الصحن مسجد أو مصلى[١٠]، وأقدم مثال على ذلك هو خان العطشان الموجود في العراق، حيث أرخه كريزويل[١١] سنة (١٦١هـ/٧٧٨م). بينما أرخه أرنست كونل[١٢] بمنتصف القرن(٧هـ/ ١٣م). كذلك وجدت خانات بدون أحواش داخلية أقيمت في المناطق الباردة، وهي عبارة عن صالة تتكون من عدة أروقة بها عقود محمولة على أعمدة أو دعائم، لها فتحات علوية، وقد عرف أهل الشام هذه المنشآت باسم الخان قبل القرن الخامس الهجري على حد قول ابن بطوطة وابن جبير[١٣]، و قد استخدمت هذه الخانات على هيئة حصون أيام السلم كمحطات للقوافل التجارية، والبريد وحمايتهم من غارات اللصوص، بينما استخدمت أيام الحرب أربطة لإقامة المجاهدين فيها[١٤].

٥-١-٣- الخانات المبنية على أطراف المدينة:

ارتبط هذا النوع من الخانات بطبيعة الفعاليات الاقتصادية التي تتم في الخان، فغالبا ما تكون هذه الفعاليات مرتبطة بالقرى والأرياف، كالخضار والفواكه والحبوب والأغنام، لذلك تحتم وجودها على أطراف المدينة لسهولة الحركة منها واليها ولمنع الضوضاء المزعجة التي يسببها الباعة للجوار وهم ينادون ويدعون المارة لشراء بضائعهم المتنوعة.

وهذه الخانات ذات تصميم يختلف عن خانات وسط المدينة، إذ تخلو من غرف المبيت لأن القادم إليها يعود إلى قريته القريبة في نهاية اليوم، ومن هذه الخانات (خان السبيل، خان اوج خان) والتي تقع خارج أسوار المدينة مباشرة .

٥-١-٣- الخانات داخل المدينة:

وهي أرقى أنواع الخانات لإنشائها في مركز الحركة التجارية للمدينة، فالنشاط الاقتصادي ينتظم في حلقات تزداد اتساعا حول المركز تبعا للأهمية، وفي المركز تزداد التخصصية للفعاليات الاقتصادية، وتنتشر في هذه الخانات التجارة الدولية كالتوابل والبن والأقمشة والصابون والعطور وغيرها، وبسبب هذه الخاصية نجد بعض الخانات التي تحمل اسم المادة المتوفرة والمختصة فيها، مثل خان الصابون، وخان القطن، وخان العطارين، وخان الحرير، وخان النحاسين، وغيرها، أو أن يحمل الخان اسم الوالي أو السلطان الذي أمر ببنائه مثل خان خاير بك، وخان كورت بك، وغيرها من الخانات الأخرى.

انتشرت الخانات داخل المدينة، حيث استعملت الخانات كفنادق للتجار والمسافرين،

فالخان يتألف من باحة مركزية، ويحيط بها طابقين أرضي وعلوي، فالطابق الأرضي يضم غرفاً ومحلات تجارية واسطبلات، أما الطابق العلوي فيضم غرفاً لتجارة وإقامة التجار والمسافرين[١٥]، وقد أطلق على الخان اسم صاحبه مثل خان قورت بك في حلب، وخان الخليلي في القاهرة. وفي كثير من الحالات يحمل الخان اسم السلعة المتخصص في بيعها، مثل خان الصابون في القاهرة والحرير في حلب، وغيرها من المدن الإسلامية، وبلغ عدد الخانات في دمشق خمسة في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي، وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي استعمال اسم خان بدلاً من الفندق والقيسارية[١٦]. وكانت بعض الخانات توصف بأنها حارة أوربية مغلقة[١٧]. ويمكن القول أن كلمة خان تعني المنشأة التجارية التي يأوي إليها التجار، ومن هذا نجد أن المقريزي يقول: أن الوكالة بمعنى الفنادق والخانات[١٨]، كما كانت هذه المنشآت مركزاً اجتماعياً ثقافياً واقتصادياً نشطاً[١٩].

وزاد عدد الخانات في مدينة حلب قديماً على مائة وخمسين خاناً منها للبيع وعشرين خاناً في أسواق المدينة، وتقسم هذه الخانات إلى خانات تعود إلى العصر المملوكي، مثال خان قورت بك وخان الصابون، وخان القصابية، وخانات تعود للعصر العثماني، كخان الجمرك والعلبية والوزير، وفي مدينة الشهباء عدد من الخانات الضخمة في سعتها والفخمة في بنائها القديم وفي تاريخها. و قد أخذ بعضها يندثر أو يتحول وظيفياً، أو يشوه استعمالاً، أو يضاف إليها أقسام جديدة لا تتناسب وبناء الخان من الوجهة المعمارية. وكثرات يجب المحافظة عليه.

ومازالت خانات حلب تحتفظ بقوة بنائها وجمال زخرفتها ورشاقة هندستها الرائعة، فهي بالأصل بنيت لتأمين الراحة للمسافرين، والسوق للبائعين الشارين، وسوف نقف عند أهمها ونعدد ما بقي اسمه في ذاكرتنا وفي حواري حلب القديمة.

وتحتوي حلب على أكثر من سبعين خاناً نذكر منها:

خان الجمرك – الصابون – الوزير – خاير بك – قورت بك – القصابية – القاضي – الحرير – البرتقال – النقر – النحاسين – العادلية – الحبال – الخيش – أبرك – الحاج موسى الساوي – فركلوس أبو شعر – الهزابين – الأكنجي – الفاخورة – الحنة – أوج خان – الحوت – استنبول – الحواضرة – الباكية – القدس – البرغل – قرطبة – قرمان – البصل – الدبس – القولي – البيرقدار – الدجاشرة – القطن – البيض – الدوه لك – الكتان – البنادقة – الدرج – كنجو – باب المقام – السمك – المجني – بني صولة – السهيل – المركوبولي – التتن – السيدة – المرة – الجاكي – السبيل – الملقية – الجلبي – صلاحية – الجورة – الصوفي – الحزين – الحاج حسين – خزنة – العبسي – الفحم – الحاج موسى الأعوج – صلاحية – فنصة – الشيباني – درّاساني – حبّايا – الزعيم – أوج خان – محوك – العلواني – الأفندي – المشاطية – مرجي – الأكنجي – الصفصافة – مكتبي[٢٠].

ولإعطاء دراسة تفصيلية عن طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب، اخترت خانات من مدينة حلب القديمة تعود إلى العصر المملوكي موضوع البحث.

٦- طرائق الإنشاء الهندسي لعمارة الخانات المملوكية في حلب:

٦ - ١ - نبذة تاريخية عن العمارة المملوكية في حلب (٦٥٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٩-١٥١٦م):

غدت حلب ولاية مملوكية بعد انتهاء خطر المغول، وأبرز حكام هذه الفترة قايتباي الذي تميز باهتمامه بالعمران، وترك آثاراً عديدة.

دامت الفترة المملوكية لسورية قرابة ثلاثة قرون بين عامي (٦٥٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٩-١٥١٦م)، وكانت دولة المماليك تحكم آنذاك مناطق واسعة من البلاد العربية تشمل مصر والشام والجزيرة واليمن والحجاز وليبيا[٢١]، وخلال هذه الفترة ازدهرت الحركة العمرانية والتجارية، حيث كانت المباني صغيرة الحجم، وقل استعمال المخطط ذو الأواوين الأربعة المتعامدة حول الباحة، كما ألغي الصحن في بعض الأبنية أو سقف في البعض الآخر، وندر وجود الأروقة، وظهرت أبنية ومساجد سميت بالمعلقة، نظراً لارتفاعها عن سطح الأرض، وذلك للاستفادة من القسم السفلي من الواجهات واستخدامها كدكاكين. كذلك اهتم المماليك بالواجهات وزخرفتها بالأبلق والمزررات، كذلك شاع استخدام الشرافات أعلى الواجهات، إضافة إلى انتشار الرنوك المملوكية على مداخل المباني. كما فتحت الأبواب ضمن إيوان مرتفع أعلى من الواجهة، وزاد عدد الفتحات في الواجهات على شكل شبابيك مستطيلة، وشبابيك مستديرة في الطابق العلوي.

حافظت المباني المملوكية في مدينة حلب على عناصر الإنشاء المملوكي فيها[٢٢]، أما من ناحية العناصر الإنشائية فقد بقيت الأسقف الجمالونية، و الأقباء المعقودة والأقبية هي العنصر الشائع في التغطية، ونجد أحياناً قبتين متساويتين في الحجم على جانبي أبواب المباني، والقبة مؤلفة من الآجر، وغطيت بالكلسة من الداخل والخارج، وهذه صفة اتصفت بها مباني مدينة دمشق، أما في مدينة حلب فقد بنيت القباب بالحجارة المنحوتة، أما طريقة الانتقال من المربع إلى الدائرة فلم تتغير وبقية الزوايا تملأ بالمقرنصات، والحنايا الركنية (التي تشبه المحاريب الصغيرة)، إضافة إلى المثلثات الكروية التي بقيت شائعة أكثر في مباني مدينة حلب، أما الأقواس أو العقود فقد شاع العقد المدبب، إضافة إلى العقد الموتور، واستمر استخدام القوس المفصص (ثلاثي الفصوص)، بغرض التنويع والزخرفة، ونجده في واجهات المباني والمآذن، كذلك استمر استخدام الأقواس العاتقة إلا أنها أصبحت قليلة الارتفاع، أما الأعمدة فقد شاع فيها استعمال التيجان المقرنصة. وندر استخدام التاج الكورنثي أو المتطور، كما شاع استخدام النصوص الكتابية على شكل شريط يستمر على طول الواجهة، إضافة إلى اللوحات المستطيلة، أو المربعة أو الدائرية التي تضم الزخارف الهندسية (المخرمات الهندسية من الجص والخشب)، كما شاع استخدام القاشاني، كذلك انتشرت الزخارف الكتابية (حيث شاع استخدام الخط الكوفي ضمن لوحة مربعة قطرية)، إضافة إلى الزخارف النباتية. كذلك استعملت المزررات الملونة على شكل مداميك أو حليات دائرية. كما ظهر الإكساء بالقاشاني والفسيفساء الرخامية. كما شاع استخدام الإطارات التي تحيط بعقود الأبواب، و العضادات البارزة في الواجهات. وبقيت المقرنصات تعلو بوابات المداخل كما في

العهد الأيوبي، إلا أن المقرنصات أصبحت أصغر. والمداميك الحجرية أصبحت أقل ارتفاعاً. كما أصبحت الواجهات الخارجية تضم نوافذ عديدة مستطيلة غالباً، ضمن تجاويف جداريه مرتفعة تنتهي في الأعلى بمقرنصات، وعلى الطرفين أعمدة صغيرة ملتحمة بالجدار مزخرفة بأشكال حلزونية أو ضفائر غالباً. كما اهتم المماليك بزخرفة الأخشاب، ونجد نماذج عنها في الجامع الأموي في حلب. كما أصبحت المآذن متعددة الأشكال ومزخرفة، وغلب الشكل المثمن في حلب، وظهر الشكل الأسطواني لأول مرة في حلب في جزء من مئذنة المهمندار، وفي جامع أوغلبك في باب الأحمر. واستمر استخدام القباب المخموسة ذات الرقبة من طابق واحد، أو طابقين، كما استخدمت العقود المتقاطعة المبنية من الحجر غير المشذب (الحجر الغشيم)، وغطيت بالكلسة الحلبية (أسقف الغمس)، وكذلك انتشرت الأسقف المستوية من الخشب المزخرف، كما شاع استخدام البلاطات المتشابكة من الرخام الملون.

٦-٢- نبذة تاريخية عن الخانات المملوكية في مدينة حلب:

إن أقدم الخانات الباقية في مدينة حلب تعود إلى العهد المملوكي، وتتكون هذه الخانات من طابقين يخصص الطابق العلوي لإقامة التجار، فهي كالفنادق ويضم عددا من الغرف ويخصص الطابق الأرضي لوضع البضائع وعرضها واجراء الصفقات التجارية، ويتقدم الغرف في كلا الطابقين أروقة محمولة على ركائز.

كان تصميم الخان منذ العهد المملوكي يساعد في ممارسة التجارة، إذ تتوسط الخان بصورة عامة باحة مستطيلة كبيرة، وتقوم المحلات حولها على مستويين، الأرضي والطابق الأول، تخترقها أروقة ذات أعمدة. ولقد استعملت غرف و قاعات الخان حسب موقعها ومساحتها، فالصغيرة منها في الطابق الأرضي، وقد جهزت بباب ونافذة أو نافذتين، استعملت كمكاتب تجارية أو مخازن أو لسكن التجار الأجانب، أما الغرف الأكبر فهي واسعة و قد حملت سقوفها على أعمدة. وقد استعملت في الطابق الأرضي اصطبلات أو مستودعات، وفي الطابق الأول قاعات استقبال، وفي وسط الباحة يوجد عادة جامع صغير و سبيل بجانبه.

من خانات العهد المملوكي في مدينة حلب نذكر منها: خان خاير بك[٢٣]، وخان القصابية (أبرك)، وخان الصابون، وخان أوج خان(**العطشان**)، وخان قورت بك (قرطبة)، وخان القاضي. يبين الشكل (١) توضع الخانات المملوكية (موضوع الدراسة) ضمن النسيج العمراني في مدينة حلب القديمة.

٦ - ٢- ١- **خان الصابون**: وسنأتي على دراسته بالتفصيل كأنموذج عن الخانات المملوكية في مدينة حلب وذلك لإيضاح الدراسة.

٦ - ٢- ٢- **خان قورت بك (قرطبة)**: يقع في محلة سويقة علي، داخل أسوار المدينة القديمة، شمال شرق قلعة حلب، ضمن المنطقة العقارية السابعة، حي الفرافرة، منطقة سويقة علي، محضر رقم (١٤٨٨)[٢٤]، وهو من جملة أوقاف المدرسة الخسروية التي بنيت في بداية فترة حكم العثمانيين[٢٥]، يحده سوق الموازين من الشرق، ومن الجهة الشرقية مقهى بليط المعروف حالياً بمقهى البرتقال، وشارع السجن القديم المنطلق

من السبع بحرات، أما من الغرب والجنوب فيحده عدد من العقارات السكنية.

خان قورت بك اسمه الحالي خان قرطبة وتسميه العامة خان قرطباي[26]، ومساحته (٣٨٠٠متراً مربعاً)، بناه في مطلع القرن السادس عشر الميلادي والي حلب قورت بك بن خسرو باشا الذي حكم المدينة عام (٩٢٨هـ / ١٥٢١م)[27] باني المدرسة الخسروية. ويعتبر خان قورت بك من أوقاف خسرو باشا[28]، وهو خان سبق أن بدئ ببنائه عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م)، أيام الأمير ازدمر، يتألف الخان من ثلاثة أقسام، يوجد في داخله إيوان بالغ الارتفاع على جانبيه غرفتان لهما شباكان مزخرفان على الطريقة المملوكية المألوفة، وكأنه إيوان قصر. إن ريازة الخان وعناصره المعمارية والزخرفية والرنوك المنقوشة على جداره والكتابة المنقوشة على حديد الشباك الشرقي، كل ذلك يجعلنا ننسب هذا الخان إلى العهد المملوكي. وهذه الرنوك المملوكية تضم البلطة رمز منفذ عملية القتل بالتوسيط، ويبدو أن الإيوان من الفترة المملوكية أيضاً، وكان جزء من الخان يستعمل فندقاً عام (١٩٠٨م)[29]. أما الرنك فدائرة من ثلاثة حقول: شكل معين في الحقل العلوي، وكأس كبير عليه بلطة وعلى جانبيه قرابا سيف في الحقل الأوسط، وكأس صغير في الحقل السفلي، وهو شبيه بالرنك المستعمل في أيام السلطان الظاهر جقمق والرنك المنقوش على جامع شرف المؤرخ سنة (٨٥٧هـ)، ولكن الغريب أن كتب التاريخ (الغزي في نهر الذهب[30] والطباخ في أعلام النبلاء[31]) تنسب بناءه إلى والي حلب العثماني قورت بك بن خسرو باشا الذي حكم سنة(٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، قد يكون السبب في ذلك أن الخان شيد في العهد المملوكي، ثم أتمه الوالي العثماني المذكور فنسب إليه[32]. وقد أزيل القسم الشمالي منه عند فتح شارع السبع بحرات - شارع السجن. توضح الصورة (١) القوس المدبب الذي يعلو مدخل خان قورت بك. كذلك توضح الصورة (٢) القوس المدبب الذي يعلو الإيوان في خان قورت بك.

٦ - ٢- ٣- **خان القاضي**: أنشأه قاضي حلب جمال الدين المعري سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، ويقع في محلة باب قنسرين بالقرب من البيمارستان الأرغوني[33] تبين الصورة (٣) الكشك الخشبي يعلو باب مدخل خان القاضي، كما تبين الصورة (٤) الأقبية المتقاطعة في مدخل خان القاضي.

٦ - ٢- ٤- **خان أبرك (القصابية)**: يقع الخان داخل أسوار مدينة حلب القديمة، غربي القلعة في المنطقة العقارية السابعة في محلة جب أسد الله سوق القصابية[34]، محضر رقم (٣٠٩٥)[35]، وقد وصفه الغزي بأنه يقع في سوق الهوا[36]، يجاوره من الشمال خان الحرير، ومن الجنوب سوق المدينة، ومن الشرق خان العبال، وهو جزء من مجموعة أسواق المدينة المسقوفة. بناه نائب أمير قلعة حلب الأمير (أبرك) في عهد السلطان الغوري سنة(٩١٦هـ/ ١٥١٠م)[37]، كما هو مثبت في الكتابة المنقوشة على مصراعي الباب المنقوشة على الحجر فوق الباب، (أنشأ هذا الخان في أيام مولانا السلطان الغوري ابتغاءً لوجه الله تعالى وذلك في شعبان سنة ستة عشر وتسعمائة هجرية)[38].

كان اسمه القديم أبرك نسبة الى الأمير أبرك[39]، وكان أبرك نائب القلعة أيام قانصوه الغوري[40]، وكان خان القصابية يضم مقراً

للقنصليات السويدية الدانماركية النرويجية النمساوية، كما كان يضم دير الأرض المقدسة وفيه أكبر كنيسة للكاثوليك. تبين الصورة (٥) الواجهة الخارجية لخان القصابية. كما تبين الصورة (٦) الكتلة المضافة للمسجد وسط باحة خان القصابية.

٦ - ٢- ٥- **خان خاير بك**: يقع هذا الخان في مدينة حلب داخل أسوار المدينة القديمة، غرب القلعة، في المنطقة العقارية السابعة، حي الفرافرة (سويقة علي)، محضر رقم (٣٠٥٨)[١١]، يجاوره من الشرق قلعة حلب، و من الغرب سوق الدهشة، وسوق الزرب من الجنوب، أما من الشمال فشارع جامع الحياة ومن الجهة الشمالية الشرقية مديرية الخدمات الفنية بحلب. ويعتبر هذا الخان من مشاهير الخانات في حلب[١٢]، بنا هذا الخان الأمير خاير بك بن مال باي بن عبد الله الجركسي الأشرفي عام/ ٩٢٨/هـ[١٣]، وهو آخر الأمراء المماليك بحلب[١٤]، وأول الولاة العثمانيين على مصر الذي خان سلطانه قانصوه الغوري عندما انحاز إلى معسكر السلطان العثماني سليم الأول في معركة مرج دابق عام / ١٥١٦/ م، وسمي خائن بك، و قد عين فيما بعد والياً للسلطنة العثمانية على مصر. لذلك يعد هذا الخان مخضرماً بين الفترتين العثمانية والمملوكية. توضح الصورة (٧) الواجهة الخارجية لمدخل خان خاير بك.

ويمتاز بناء هذا الخان سهولة الحركة والارتباط داخل الخان بالنسبة للزائر. فهو بسيط التصميم والتوزيع، محلاته متقابلة ومتماثلة، موزعة حول صحن الخان الذي يتيح سهولة الحركة والاستخدام من قبل التجار. وتبين الصورة (٨) الإيوان بعد تحويله إلى محل تجاري في خان خاير بك.

٦- ٢- ٦- **خان أوج خان (العطشان)**: وكلمة أوج خان تعني ثلاث خانات، بناه الأمير خاير بك، ويعرف اليوم بخان العطشان، ويقع في سوق النحاسين شمالي سور المدينة، يحتفظ ببوابته الغنية بالنقوش[١٥].

ولإعطاء دراسة تفصيلية عن طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب، خلال العصر المملوكي، اخترت خان الصابون كأنموذج لإيضاح الدراسة. حيث يعتبر هذا الخان من أهم الخانات المملوكية في حلب لكثرة زخارفه، وتنوع الرنوك التي انتشرت على جدرانه، حيث تعتبر الرنوك رمزاً للعمارة المملوكية[١٦]. تبين الصورة (٩) الواجهة الخارجية لمدخل خان أوج خان. كما تبين الصورة (١٠) القبو السريري الذي يفصل الباحة الأولى عن الباحة الثانية في خان أوج خان. كذلك تبين الصورة (١١) الباحة الداخلية لخان أوج خان وتبدو فيها الأسقف الجمالونية للمصبنة.

٧- خان الصابون:

٧ -١- الموقع:

يقع هذا الخان في مدينة حلب داخل أسوار المدينة القديمة غربي القلعة في المنطقة العقارية السابعة، حي الفرافرة سويقة علي، محضر رقم /٢٢٨٧/[١٧]، يبين الشكل (٢) المسقط الأفقي لخان الصابون، ويوضح الشكل (٣) موقع الخان في حلب القديمة، يجاور خان الصابون من الشرق سوق الصابون، ومن الغرب سوق اسطنبول الجديد والشركة العامة للغزل والنسيج، وسوق المناديل من الجنوب، وعليه يقع مدخل الخان، أما من الشمال فشارع الجامع الكبير، قلعة حلب.

«طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب خلال العصر المملوكي»

مقالات

٢.٧ نبذة تاريخية:

يقوم في السوق المعروف بسوق المناديل[48]، يقع داخل سوق المدينة، أنشأه السلطان المملوكي الأمير ازدمر بن مزيد، أواخر القرن التاسع الهجري/ أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، وقد تولى الأمير ازدمر ولاية حلب مرتين عام (٨٨٤و٨٨٩هـ/ ١٤٧٩ و١٤٨٤م)، أيام المماليك[49]، وكانت فيه مدرسة لأيتام اليهود، ثم صارت فيه المدرسة الفاروقية[50]، وسمي بخان الصابون لقربه من سوق الصابون. له بوابة غنية بالزخارف، بجانبها سبيل له شبك جميل من النحاس سرق منذ عدة سنوات، ويمتاز بواجهة رائعة بزخرفتها وأشكالها الهندسية والنباتية البديعة التي تدل على دقة الصنعة ورهافة الحس الفني[51]، وكتابتها والسبيل القائم إلى يسار الواجهة، وقد تم إزالة القسم الشمالي من الخان، بسبب فتح الشارع من الجامع الكبير إلى قلعة حلب، لا تزال بعض الرنوك المملوكية ظاهرة فيه، وعليه رنوك للأمير ازدمر[52]، ويجب إزالة الأخشاب والطبليات المشوهة لأجمل واجهة في خانات الأسواق المختلفة.

٣.٧ الوصف الهندسي:

أ - المدخل:

يقع في الجهة الجنوبية من الخان، ويتميز خان الصابون بواجهة مدخله الخارجية الرائعة والمزخرفة بإطارات هندسية، ورسوم نباتية بديعة، وكتابات عربية وألواح مشبكة، ورنوك تدلنا على مهارة الفن المعماري الحلبي، بالإضافة إلى تناوب الحجر الأصفر والأسود، والمدخل على شكل قوس مدبب كما هو مبين في الصورة (١٢)، تعلو المدخل نافذة تعلوه نافذة صغيرة تتوسط مجموعة رائعة من الزخارف الهندسية والنباتية غاية في الإبداع، إضافة إلى تناوب اللونين (الأصفر والأسود)، وعلى جانبي النافذة عمودين مضفرين من الحجر الكلسي وفوق النافذة مزررات باللونين الأسود والأصفر ويعلو المزررات كتابة كوفية بديعة كتب فيها (لا اله إلا الله محمد رسول الله) .. يتكون مدخل خان الصابون من قوس مدبب يرتكز عليه باب المدخل (٢٤٥ × ٤٠٠سم)، مكون من درفتين خشبيتين بسماكة (١٢,٥سم)، أما درفتي الباب فتأخذان شكل القوس المدبب، وهو من الخشب المصفح بالحديد بواسطة مسامير حديدية كبيرة. واحدى درفتي الباب تحتوي على (خوخة) لدخول الأفراد ليلاً إلى الخان. يليه دهليز المدخل، وهو مدخل منكسر يوصل إلى الفناء، والمدخل عبارة عن ساحة مستطيلة مسقوف بعقد متقاطع.

وتعتبر واجهة خان الصابون من أجمل ما تركه الطراز المملوكي في عمارة حلب. تبين الصورة (١٢) المدخل الخارجي لخان الصابون، كما تبين الصورة (١٤) زخارف الواجهة الخارجية لخان الصابون، و تحتوي على أصيصان للورد حفرا على الحائط، ويظهر على الواجهة الخارجية يمين المدخل آثار سلسبيل وجدت صورة واجهته المعدنية المزخرفة في مصورات سوفاجيه، ولكنها الآن غير موجودة فقد سرقت واجهة السلسبيل. تبين الصورة (١٥) سبيل الماء الملاصق المضاف لمدخل خان الصابون.

ب - الفناء الداخلي (الفسحة السماوية):

يلي المدخل المنكسر بزاويتين قائمتين، وهو فناء واسع، مستطيل الشكل تتوسطه كتلة المسجد

الذي غاب لتحل محله المحلات التجارية، وتم إضافة بركة ماء في الفسحة السماوية وأضيفت بعض الكتل الطفيلية على حساب هذه الفسحة كما هو مبين في الصورة (١٦)، فمنها ما هو منفذ من البيتون والبلوك الأسمنتي ومنها ما هو منفذ من الحديد. أما بالنسبة لأرضية المدخل وباحة الخان فقد تم رصفها بالحجارة الكلسية الصفراء بسماكات لا تقل عن١٢سم ومازالت هذه الأرضية موجودة على وضعها الحالي وتم ملء الفراغات بمونة من (القصرمل).

يتوسط الخان ساحة مستطيلة كبيرة يتوسطها المسجد، وكانت تحيط به الأروقة قديماً، أما حالياً تنتشر المحلات و الورش و المستودعات على الأطراف، وانفتحت على الفناء بأبواب وشبابيك بشكل عشوائي، حيث يتجاوز عددها (٢٥) محلاً، و يتكون الخان من طابقين: طابق أرضي و طابق أول، و في نهاية الطابق الأرضي و على الطرفين يوجد درج يوصل إلى الطابق الأول، و الطابق الأول مسقوف بالخشب. و يحتوي الخان على بعض الرنوك المملوكية في قسمه الشرقي. وقد تم إضافة بركة ماء صغيرة في إحدى زوايا الفناء.

ج - الرواق:

يحيط بالفناء في الطابق الأول من جميع جهاته ماعدا الجهة الشمالية التي أزيلت كما أسلفنا، وهذا الرواق مسقوف بالخشب من كافة جهاته، كما هو مبين في الصورة (١٧)، وحالة هذه الأسقف مقبولة. ولقد عانى الرواق في الطابق الأرضي من جشع أصحاب المحلات وتم ضمه إلى محلاتهم، أما في الطابق الأول فما زال محافظاً على وضعه كما كان عدا إغلاق بعض الفتحات المطلة على الباحة كفتحة الإيوان.

د - الإسطبل:

يقع الإسطبل في الجناح الشمالي، مدخله يتمحور مع مدخل الخان مما يسهل الحركة، ويتطاول على عرض الخان، وله مدخل آخر في الجهة المقابلة من نفس الواجهة. إسطبل هذا الخان غير موجود حالياً، وكان موجوداً في الجهة الشمالية من الخان على محور المدخل، وقد أزيل مع الجانب الشمالي من الخان.

هـ - الطابق الأول:

يتكون من حجرات موزعة حول الفسحة يتقدمها الرواق، كانت تستعمل للنوم، وما زال الطابق الأول محافظاً قدر الإمكان على وضعه الأصلي إلا أنه تعرض لتشويهات و تعديلات طفيفة كما أن أسقفه الخشبية مقبولة بعض الشيء، وهذه الأسقف محمولة على واجهات الغرف المبنية من الحجر الكلسي من ناحية، وعلى أقواس مطلة على باحة الخان من الناحية الأخرى، وهذه الأقواس محملة على أعمدة تصل مقاطعها إلى حوالي (٩٠×٩٠) سم. أما سقف الرواق فهو عبارة عن سقف خشبي.

ز - الإيوان:

إيوان هذا الخان جميل ومزخرف كما هو مبين في الصورة (١٨)، ويتوسط الواجهة الشمالية، وأرضية هذا الإيوان تعلو عن منسوب أرضية الخان، فهو موجود في مستوي الطابق الأول، وله درج جميل للصعود إليه، وهذا الدرج مركب على قوس حجري لتسهيل حركة المرور من تحته، وعدم إعاقة الحركة في أرضية الخان، وقد تم سد واجهة هذا الإيوان بحجر اللبن، كما هو مبين في الصورة

(١٩)، وضمت مساحته إلى بناية الأوقاف.

الإيوان غني بالزخرفة، وهو على شكل قوس مدبب ذو زخرفة نباتية ضمن إطار زخرفي، مستطيل يحتوي على ركنين من كل طرف، وحالياً فتحة قوس الإيوان مغلقة بالحجارة، ويستخدم الإيوان كمستودع.

ط - الأدراج:

تتكون الأدراج من أدراج رئيسة وأدراج ثانوية، وهي مبنية من قطع حجرية، يبلغ ارتفاع الدرجة حوالي (٣٥) سم، وعرض الشاحط الرئيسي يبلغ (١٣٥) سم، كما يبلغ عرض الشاحط الثانوي (٩٠)سم، وتستند الأدراج على أنصاف أقواس لتسهيل الحركة والمرور من أسفلها. تبين الصورتان (٢٠) و(٢١) الدرج الذي يصل الطابق الأرضي مع الطابق الأول في خان الصابون.

٧-٣- الاستخدام الأصلي للخان:

استخدم هذا الخان كغيره من الخانات استخداماً تجارياً، وكان فيما مضى منشأة متكاملة بحد ذاته يلبي كافة احتياجات قاطنيه دون الحاجة للخروج خارجه، وفي الليل كانت تغلق أبواب الخان لينغلق على ما بداخله حتى تفتح الأبواب في مطلع نهار اليوم التالي، ويتم الدخول ليلا إلى الخان عن طريق « الخوخة » وهي باب صغير موجود ضمن الباب الرئيسي للخان.

مع تعاقب الأزمان ومرور الوقت حافظ الخان على وظيفته التجارية فقط وفقد وظيفته كفندق، حيث أنه لم يعد مكاناً لإقامة الزوار من تجار أو عابري سبيل بسبب ظهور الفنادق بالشكل المعروف حالياً، ولكن حافظ على ميزته التجارية وتوسع فيها، حيث تحولت الغرف في الطابق الأرضي إلى دكاكين ومحلات تجارية، بالإضافة إلى مستودعات لتخديم تلك المحلات، أما الطابق الأول فقد تحول أكثره إلى مستودعات ومكاتب تجارية، وأما الإيوان فقد سدت واجهته وتم ضمه لبناء الأوقاف المطل على شارع خان الوزير، كما تحولت ساحة الخان إلى مرتعاً للمتطفلين عليها من خلال بعض التجاوزات.

٧-٤- الاستخدام الحالي للخان:

إن الخان لم يعد مستغل تجارياً، فقد تحول إلى كتلة من المستودعات والتي تتخللها بعض الفعاليات الأخرى التجارية، كتجارة البسط والسجاد وورش الخياطة، لكن بنسب بسيطة جداً، إن ذلك قد ساعد من تقليل عملية تشويه الخان، فالمستودع لا يتطلب إزالة جدران و إقامة أخرى أو فتح نوافذ وأبواب أو إغلاقها، وأغلب ما يشغل الخان هي المستودعات. لكن ذلك أدى إلى صرف النظر عن ذلك الخان، فتمادى التجار في إقامة كتل طفيلية على كتل الخان لاستخدامها كمستودعات أيضاً.

بالنسبة للطابق الأرضي، فقد تم إضافة أبنية كالكتل البيتونية والخشبية في باحة الخان لتصبح مستودعات لبضائع التجار. كما استغل الطابق الأرضي بشكل كامل فقد ضم الرواق الموجود سابقاً أمام المحلات إلى تلك المحلات، وتم استغلال بعض الزوايا في الخان من أجل إقامة محلات تجارية.

أما الطابق الأول فقد حافظ على نفسه معمارياً، لكن لم يصمد وظيفياً، فقد تحولت إلى مستودعات تجارية خاصة ببضائع التجار، كما تحولت الغرف في الطابق الأول إلى دكاكين

مقالات

ومحلات تجارية، كمستودعات لوضع البضائع، كما تم تحويل المسجد إلى محلات تجارية ومستودعات، كذلك الإسطبل تم تحويله إلى محلات تجارية أيضاً.

أما الإيوان فقد تم إغلاقه بجدار حجري وتحويله إلى مستودع، حتى إن الجزء الشمالي كاملا من الطابق الأول من هذا الخان لم يعد جزءا من الخان، بل صار يستخدم من خارج الخان عن طريق درج خارجي، كما تم إنشاء طابق آخر فوق القسم الشمالي، بشكل بعيد كل البعد عن شكل الخان.

٧-٥- مواد البناء والجمل الإنشائية المستخدمة في الخان:

أ- الجدران:

استخدمت الأحجار المنتظمة في تنفيذ الواجهات الداخلية والخارجية للخان، واستخدمت الأحجار الملونة بالأصفر والأبيض والأسود لتزين الواجهات، جدران الخان مبنية من الحجر الكلسي الأبيض المشذب والمنحوت بدقة وعناية، وبسماكات كبيرة نسبياً لا تقل عن /٨٠/ سم، أو من الغضار العادي أو المشوي. ويمتاز الخان بواجهة المدخل من الخارج والداخل والتي تم إنشاؤها من الحجارة الكلسية الصفراء والبازلتية السوداء وبشكل متناوب، أما الزخارف الهندسية والرنوك والكتابات فقد تم نقشها جميعاً على الحجر الكلسي. أما زريقة الجدران فقد كانت عبارة عن زريقة بيضاء مصنوعة من مادة القصر مل، وقد تم قشرها أو سقوطها في كثير من الأماكن واستبدالها بالزريقة الإسمنتية الحديثة وبالأخص داخل المحلات التجارية.

ب - الأسقف:

استخدم في تسقيف الفتحات في الخان أنواع مختلفة من الأسقف، فهناك الأقبية المتقاطعة باتجاهين والتي غالباً ما تغطي الفتحات المربعة. ونرى هذه الأسقف في أسقف الأروقة، وأسقف محلات الطابق الأرضي. وهناك الأسقف الخشبية المستوية التي تغطي أروقة الطابق الأول، كما هو مبين في الصورة (٢٢).

ج - الفتحات:

استخدمت الأقواس الصغيرة الموتورة في تشكيل فتحات النوافذ والأبواب معاً، كذلك استخدمت الأقواس المدببة في معظم فتحات الجدران، كما هو مبين في الصورة (٢٢) القوس المدبب الذي يعلو أحد فتحات خان الصابون. وفي واجهات أروقة الطابق الأول، كما استخدمت الجوائز ذات القطعة الحجرية الواحدة لتختيم النوافذ.

د - الأعمدة:

استخدمت الأعمدة الضخمة ذات المقطع المربع بأبعاد (٩٠×٩٠)سم والمبنية باستخدام قطع حجرية صغيرة مترابطة بالمونة الكلسية، ونجد هذه الأعمدة على محيط الساحة ومهمتها حمل أروقة الطابق الأرضي والأول، وتبين الصورتان (٢٤) و(٢٥) الأعمدة المربعة المقطع في الطابق الأول للخان.

هـ - زريقة الجدران:

الزريقة القديمة للجدران عبارة عن زريقة بيضاء مصنوعة من مادة القصر مل، وقد تم قشرها أو سقوطها في كثير من الأماكن واستبدالها

بالزريقة الإسمنتية الحديثة وبالأخص داخل المحلات التجارية.

ز - الأرضيات:

تم رصف باحة الخان بالحجارة الكلسية الصفراء بسماكات لا تقل عن (١٢)سم، ومازالت بعض أجزاء من بلاط الباحة على وضعه الحالي، وتم ملء الفراغات بموءنة مصنوعة من الغضار والكلس. كما هو مبين في الصورة (٢٦)، وتم ملء الفراغات بمونة مصنوعة من الغضار والكلس.

حالياً تم استبدال جزء كبير من باحة الخان بأنواع مختلفة من البلاط وذلك وفقاً لأهواء أصحاب المحلات التجارية.

٧-٦- التعديلات والمشاكل المعمارية والإنشائية في خان الصابون:

تعرض هذا الخان مع مرور الأيام إلى مجموعة من التعديلات والإضافات المختلفة، وهذه أدت إلى مشاكل مختلفة على كل الأصعدة في الخان، وسنقوم في هذه الدراسة بتصنيف وتبويب هذه المشاكل مع اقتراحات لحلها، ولمحاولة ترميم هذا الخان وإخراجه بالشكل اللائق الذي يتناسب مع ماضيه العريق، وهذه المشاكل هي:

أ - المشاكل الإنشائية:

هذه المشاكل ناتجة عن عدم الصيانة الدورية للخان مما أدى لتكسر الأخشاب الحاملة للأسقف وإهمالها أو استبدالها بصبات البيتون المسلح، وكذلك إهمال البنية التحتية للخان وتسرب المياه أدت إلى ظهور الشقوق التي يعالجها كل على طريقته الخاصة، ثم قيام بعض شاغلي الخان بصب طابق ثاني مخالف فوق الطابق الأروقة مما يؤدي إلى حمولات زائدة على الجدران والأساسات.

ب - المشاكل المعمارية (جشع التجار):

هذه المشاكل تتمثل في إقدام شاغلي الخان على الاستيلاء على كامل أروقة الخان وضمها إلى محلاتهم، وكذلك وضع مظلات معدنية من التوتياء أمام محلاتهم ليتمكنوا من وضع بضائعهم تحتها، وكذلك إنشاء ستارات حجرية بارتفاع يزيد على المتر في ساحة الخان تمهيدا للاستيلاء عليها وتملكها بضمها لمحلاتهم، يبين الشكل (٤) المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان الصابون قبل التشويه، كما يبين الشكل (٥) المسقط الأفقي للطابق الأول لخان الصابون قبل التشويه.

ج - مشاكل التلوث البصري (مثال المسجد):

قام أصحاب النوايا الطيبة (...) من شاغلي الخان، بتشويه المسجد القديم تشويهاً شديداً عندما قاموا بتلبيس جدرانه من الداخل بالمرمر، ثم أضافوا كتلة زجاجية بسقف جملوني سيئ ومشوه، ولا يتناسب مع طبيعة الخان معمارياً.

د - مشاكل الأدراج:

هذه المشكلة المتمثلة بإقامة أدراج جديدة للوصول إلى بعض غرف الطابق الأول بعد أن تم إغلاق كافة الأروقة، ولم يعد هناك طريق لهذه الغرف إلا بهذه الإضافات.

هـ - الديكورات المعاصرة الغريبة:

والمتمثلة بتركيب أبواب ونوافذ من الألمنيوم وأرضيات من السيراميك مع أسقف وجدران من الشرائح البلاستيكية.

و - تركيب المكيفات والدشات:

قام كل شاغل في الخان بتركيب مكيف ودش خاص به، مما أدى إلى مشهد مشوه للخان.

ز - دخول السيارات:

تحولت باحة الخان إلى مرآب للسيارات وخاصة سيارات النقل الصغيرة التي تخرب زوايا الجدران في الدخول والخروج.

٨ - النتائج والمناقشة:

كان الهدف من هذا البحث توثيق خانات حلب التي تعود للعصر المملوكي، وذلك بواسطة دراسات مكتبية وميدانية. ودراسة تحليلية لهذه الخانات التي تعود للعصر المملوكي، وذلك بالعودة للمصادر والمراجع التاريخية، للتحقق من وجود هذه الخانات، ومقارنتها مع الوضع الراهن. ودراسة التقنيات الهندسية للخانات المملوكية، ومعرفة مواد بنائها وطرائق تنفيذها. لمعرفة مقترحات ترميمها للحفاظ عليها. وقد أمكن تحقيق الهدف بوساطة أمثلة لخانات مملوكية في مدينة حلب، ذكرت في كتب تراثية. وبالرصد المكتبي، وبالمسح الميداني أيضاً أمكن التوصل إلى دراسة وصفية تحليلية ضمن إطار هندسي.

ويمكن تلخيص نتائج البحث حسب المواضيع التي جرت مناقشتها في الآتي:

- إن مدينة حلب من المدن العربية ذات النشاط التجاري والحرفي تميزت به منذ القدم على المستويين المحلي والعالمي، بحكم الموقع الجغرافي والتجاري الذي يربط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، مما أكسب هذه المدينة طابعاً تجارياً وحرفياً، ودفع إلى إنشاء الكثير من المنشآت التجارية، وأصبحت عنصراً أساسياً في تكوين المدينة التراثية.
- احتلت المنشآت التجارية بجميع أشكالها قلب المدينة القديمة، ولعبت دوراً مهماً في حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- استخدم التسقيف بواسطة الأقبية الحجرية، وبذلك حقق التسقيف الحماية من العوامل الجوية كالمطر والشمس، وقد كان ارتفاع سقف الشارع أكبر بكثير من ارتفاع المحلات التجارية.
- الشكل العام للخانات عبارة عن صحن داخلي مستطيل، تتوزع حوله الأروقة والغرف على طابقين وأحياناً طابق واحد، ويمكن أن تحوي على قبو وبئر وبركة ماء.
- استخدم الحجر كمادة أساسية في البناء (أرضيات، جدران، أسقف).
- استخدمت الجدران الحمالة في البناء.
- استخدمت الأسقف المعقودة والمستوية، كما استخدمت الأخشاب بكثرة في التسقيف.
- استخدمت العقود والأقواس نصف الدائرية بشكل عام.
- مراعاة الظروف المناخية في عمارة الخانات باستخدام العناصر والأبعاد المناسبة (أروقة، جدران سميكة، الكلس، والقصرمل) لطبيعة مناخ مدينة حلب.
- أشبعت مداخل الواجهات بالزخارف والنقوش كما هو الحال في خان الصابون، وخاير بك.
- أغلب مساجد الخانات سقفت بقبة حجرية، أو قبو والمادة الأساسية لإنشائها هي المداميك

الحجرية المنتظمة.

- استخدم المعمار بعض العناصر الفولاذية لربط الأحجار، وخاصة في الجدران الحجرية الضخمة، والأعمدة ذات الحمولات الكبيرة، مما يدل على دراية إنشائية وفهم دقيق لأصول تحميل القوى ومخططات توزع الإجهادات والحمولات.
- نظراً لأن الأعمدة من العناصر التي تتحمل قوى الضغط الأفقي ولا تخضع لقوى شد أو عزوم فتل أو قوى دفع أفقية، وبالتالي فإن الأعمدة الداخلية لا تتحمل أي قوى شد أو دفع ناتجة عن تحلل حمولة العقود إلى قوة ناظميه وقوة أفقية لأن القوتين الأفقيتين المطبقتين على العمود تفنيان بعضهما البعض في حين أن الأعمدة الطرفية تتعرض إلى قوى دفع أفقية لذلك فإن الأعمدة الطرفية تكون بسماكات أكبر أو تكون عبارة عن أكتاف ضخمة أو جدران.
- لوحظ استعمال عناصر فولاذية رابطة بين القطع الحجرية في بعض الجدران الحجرية. إن عدم صيانة القطع الفولاذية وتعرضها لمياه الأمطار ولرطوبة الجو أدى إلى إهترائها وتآكلها مع الزمن.
- استعملت العناصر الخشبية في بناء الجدران الحجرية كعناصر لامتصاص الهزات الأرضية ولمنع انهيار الجدار في حال هبوط أحد الجدران بشكل كامل.
- تم استخدام روابط حجرية في بناء الجدران الحجرية ذات السمكات الكبيرة وذلك لربط الوجه الداخلي والخارجي للجدار.
- استخدمت الأعمدة الضخمة ذات المقطع المربع بأبعاد (٩٠×٩٠ سم)، والمبنية باستخدام قطع حجرية صغيرة مترابطة بالمؤنة الكلسية، ونجد هذه الأعمدة على محيط الساحة ومهمتها حمل أروقة الطابق الأرضي والأول.

٩ - التوصيات المقترحة:

التوصل بالتوثيق والتحليل للمكونات الهندسية مع التوصيف لما طرأ على المنشآت الهندسية المملوكية من تغيرات، سواء بسبب العوامل الجوية، أو الإهمال أو سوء الاستخدام، واقتراح طرائق لحمايتها والحفاظ عليها.

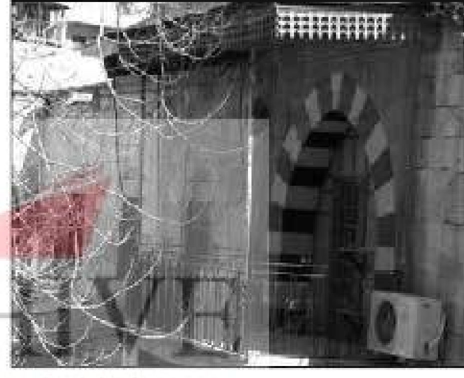
- إعادة النظر في التوزيع الوظيفي للخانات، واستبعاد المهن الدخيلة التي تضر بالوظائف التراثية، أو تسيء للخان خاصة التي تشكل مصدر إزعاج للجوار. وإعادة توظيف بعض الخانات مثل خان قورت بك.
- إغلاق الفتحات العريضة في الجدران الحمالة التي قام بها أصحاب المحلات من أجل دمج محلين إلى محل واحد، هذه الفتحات التي تؤثر على سلامة المبنى.
- إزالة الطفيليات والملوثات البصرية، وإعادة الخانات إلى حالتها الأصلية.
- إزالة مواد الكساء الحديثة من مونه إسمنتية، مرمر وجبصين وحجر ملون، وأبواب ألمنيوم، والاستعاضة عنها بمواد من نفس طبيعة مواد الخانات الأصلية.
- إزالة الزريقة الأسمنتية التي تؤثر على طبيعة الحجارة، واستبدالها بالزريقة الكلسية.
- إزالة الأسقف المعدنية في كل الخانات، ودراسة

وضع السقف الجديد بشكل يتلاءم مع المبنى الأثري باستخدام مواد متجانسة مع مواد بناء الخان الأصلية كالخشب مثلاً.

- توحيد الكساء الداخلي للمحلات في الخان، لأنها تشكل وحدة معمارية عن طريق كساء الجدران من الداخل بالزريقة الكلسية البيضاء، وتوحيد البلاط بالحجر الأصفر.
- تنظيف الواجهات الخارجية من العناصر المتطفلة عليها من كتل معمارية أو نباتات أو طفيليات، وإظهار الجمال الزخرفي للواجهات والرنوك الموجودة فيها.
- تشجيع الدولة لأهل حرفة النسيج التقليدية، وذلك بترويج منتجاتهم عبر وسائل الإعلان، وإقامة المعارض.
- تطوير نظام النظافة من قبل وجود دائرة مستقلة بالمدينة القديمة.
- صيانة جدران وسطح الخانات، بإزالة النباتات والأوساخ، ووضع نظام تصريف للسطح ولأسطح مباني المدينة ككل.
- توسيع دراسات الهندسة الإنشائية كإحدى القرائن المميزة للمباني التراثية، فلا بد من معالجة المشاكل والأخطار الإنشائية التي تعرضت لها هذه الخانات، ويكون ذلك بالقيام بالأعمال الترميمية المناسبة، والتقيد بالمواثيق والمبادئ الدولية أو أخذ ما يناسب منها.
- بينت نتائج البحث أنّ براعة البنّائين العرب في الهندسة الإنشائية لا تقل عن براعتهم في الهندسة المعمارية.
- المحافظة على الجمل الإنشائية في المباني التراثية وإظهار أصالتها، وكذلك المحافظة على نوعية مواد البناء، وعدم السماح باستبدالها بالبيتون المسلح، واستخدام الطرائق الحديثة في صيانتها وترميمها، لكن باستعمال مواد بناء شبيهة بالمواد المستعملة القديمة، خاصة في العناصر الإنشائية الظاهرة للعيان، بحيث تتحول إلى مبنى أفضل من الجديد في بعض النواحي، وهذه المباني التي ترمم ستحافظ على خصوصية طرازها الإنشائي والفني.
- متابعة دراسة الخواص الإنشائية للمباني التراثية بأبحاث متقدمة في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب.

10ـ الأشكال والصور:

الشكل (1) توضع الخانات(موضوع الدراسة) ضمن النسيج العمراني لحلب القديمة	الصورة (1) القوس المدبب يعلو مدخل خان قورت بك (من عمل الباحثة)
الصورة (2) القوس المدبب يعلو الإيوان في خان قورت بك (من عمل الباحثة)	الصورة (3) الكشك الخشبي يعلو باب خان القاضي (من عمل الباحثة)
الصورة (4) الأقبية المتقاطعة في مدخل خان القاضي (من عمل الباحثة)	الصورة (5) الواجهة الخارجية لمدخل خان القصابية (من عمل الباحثة)

	
الصورة (6) الكتلة المضافة للمسجد وسط باحة خان القصابية (من عمل الباحثة)	الصورة (7) الواجهة الخارجية للمدخل خان خاير بك (من عمل الباحثة)
	
الصورة (8) الإيوان بعد تحويله إلى محل تجاري في خان خاير بيك (من عمل الباحثة)	الصورة (9) الواجهة الخارجية للمدخل خان أوچ خان (من عمل الباحثة)
	
الصورة (10) القبو السريري الذي يفصل الباحة الأولى عن الثانية في خان أوج خان (من عمل الباحثة)	الصورة (11) الباحة الداخلية للخان وتبدو جملونات المصبنة (من عمل الباحثة)

	
الشكل رقم (2) المسقط الأفقي لخان الصابون (مديرية الآثار والمتاحف)	الصورة (12) القوس المدبب يشكل أحد فتحات الجدران في خان الصابون(من عمل الباحثة)
	

الشكل (3) مخطط يوضح موقع الخان في حلب القديمة (من بلدية حلب القديمة بتصرف من الباحثة

	
الصورة (13) المدخل الخارجي لخان الصابون (من عمل الباحثة)	الصورة (14) زخارف الواجهة الخارجية لخان الصابون (من عمل الباحثة)
	
الصورة (15) سبيل الماء الملاصق لمدخل خان الصابون (من عمل الباحثة)	الصورة (16) الكتل الطابقية في ساحة الخان (من عمل الباحثة)



الصورة (17) الأسقف الخشبية في رواق الخان (من عمل الباحثة)



الصورة (18) إيوان الخان كما كان سابقا (أرشيف أحد تجار الخان)



الصورة (19) إيوان الخان كما أصبح لاحقا (من عمل الباحثة)



الصورة (20) الدرج الذي يصل الطابق الأرضي مع الطابق الأول في خان الصابون (من عمل الباحثة)



الصورة (21) الدرج الذي يصل الطابق الأرضي مع الطابق الأول في



الصورة (22) الأسقف الخشبية في رواق الخان (من عمل الباحثة)

خان الصابون (من عمل الباحثة)

الصورة (23) الأقواس المدببة تشكل فتحات الجدران في الخان (من عمل الباحثة)

الصورة (24) الأعمدة المربعة المقطع في الطابق الأول للخان (من عمل الباحثة)

الصورة (25) الأعمدة الحجرية المربعة المقطع تحمل الأقواس المدببة للطابق الأول في خان الصابون(من عمل الباحثة)

الصورة (26) أرضية الخان الحجرية (من عمل الباحثة)

الشكل (5) المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان الصابون قبل التشويه

سوفاجيه ـ(المديرية العامة للآثار والمتاحف)

الشكل (6) المسقط الأفقي للطابق الأول لخان الصابون قبل التشويه

سوفاجيه ـ(المديرية العامة للآثار والمتاحف)

الحواشي :

١. الطباخ محمد راغب، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، ج٣، ص ٩٠.
٢. الحمصي، فايز، روائع العمارة العربية الإسلامية في سورية، ص ١١٢.
٣. مصطفى، صالح لمعي، التراث المعماري في مصر، ص٥٦.
٤. الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٩٤ .
٥. مصطفى، صالح لمعي، التراث المعماري في مصر، ص٥٦ و ٥٧.
٦. موسى محمد رفعت الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، ص ٣٠ .
٧. متز، آدم، الحضارة الإسلامية،، ج٢، ص ٢٨٨.
٨. مصطفى، صالح لمعي، التراث المعماري في مصر، ص٥٦.
٩. موسى، محمد رفعت، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، ص ٢٧ .
١٠. كريزويل، ك.أ، الآثار الإسلامية الأولى، ص ٢٦٦ وص٢٧٢.
١١. كونل، آرنست، الفن الإسلامي، ص٧٢.
١٢. ابن جبير، رحلة، ص ٢٥٤.
١٣. أصلان آبا، أوقطاي، فنون الترك وعمائره، ص ١٨ .
١٤. ريمون أندريه، العواصم العربية، ص ٥٥.
١٥. مصطفى، صالح لمعي، التراث المعماري في مصر، ص٥٧، ص ٥٨ .
١٦. هلال، فؤاد، نسيم فقش، دليل حلب (دراسات تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية) ص ١٤٩ - ١٥٠
١٧. المقريزي، الخطط،... ج٢، ص ٩٢ .
١٨. مصطفى، شاكر، المدن في الإسلام، ص ٥٠١ .
١٩ شعث، شوقي، المعالم الأثرية والتاريخية بمدينة حلب، ص٥٥.
١٩. ريحاوي عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية وآثارها في سورية، ص ١٥٧.
٢٠. ريحاوي عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية وآثارها في سورية، ص ٢٥٢.
٢١. خان خاير بك، يعد هذا الخان مخضرماً بين الفترتين العثماني والمملوكية، حيث يجمع بين العصرين المملوكي والعثماني، لأنه بدئ العمل به في العصر المملوكي، وانتهى بناءه في العصر العثماني، لذا فهو يتميز بواجهته المملوكية، ومن الداخل يتميز بالعناصر المعمارية العثمانية.
٢٢. المديرية العامة للآثار والمتاحف.
٢٣. الطباخ، أعلام النبلاء، ج٣، ص١٤٩.
٢٤. طلس، أسعد، الآثار الإسلامية في حلب، ص ١٢٨.
٢٥. الحمصي، فايز، حلب القديمة، ص ١٢٥.
٢٦. حريتاني محمود، حلب والسلطنة العثمانية، ص ١٧.
٢٧. حجار عبد الله، معالم حلب الأثرية، ص ٤٢.
٢٨. الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص ١٢٠و١٩٦.
٢٩. الطباخ، أعلام النبلاء، ج٢، ص١٨٠.
٣٠. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، ص ١٩٠.
٣١. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، ص ١٩٠.
٣٢. حجار عبد الله، معالم حلب الأثرية، ص ١٦٢.
٣٣. المديرية العامة للآثار والمتاحف.
٣٤. الأسدي خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، ص٢٤٤.
٣٥. عثمان نجوى، الهندسة الإنشائية في مساجد حلب، ص١٩٩.
36. Herzfeld, Studies In Architecture, Arts Islamic, Damascus, p 271 ؛
٣٧. وحجار عبد الله، معالم حلب الأثرية، ص ١٦٣.
٣٨. الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢، ص ٢٢٠.
٣٩. الأسدي خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، ص١٥٤.
٤٠. المديرية العامة للآثار والمتاحف.
٤١. الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢، ص ١٩٦.
٤٢. طلس أسعد، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ص١٢٢.
٤٣. الأسدي خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، ص٢٤٦.
٤٤. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، ص ١٩٠.
٤٥. الغزي، كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢، ص ١٩٦.
٤٦. المديرية العامة للآثار والمتاحف.
٤٧. شعث، شوقي، حلب تاريخها ومعالمها التاريخية، ص ٤٤.

«طرائق الإنشاء الهندسي في خانات حلب خلال العصر المملوكي»

مقالات

٤٨. طلس، محمد أسعد، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ص ١٢٥– الطباخ، محمد راغب، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٢، ص ٩٠.

٤٩. الأسدي، خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، ص ٢٢٤.

٥٠. الحمصي، فايز، حلب القديمة، ص ١٢٤.

٥١. حجار عبد الله، معالم حلب الأثرية، ص ٤٢.

٥٢. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية وآثارها في سورية، ص ١٩٠.

المصادر والمراجع :

١- الأسدي خير الدين، ١٩٩٠ – أحياء حلب وأسواقها، ط٢، تحقيق عبد الفتاح قلعجي، دار قتيبة، دمشق، ٤٦٣ صفحة.

٢- أصلان آبا، أوقطاي، ١٩٨٧ – فنون الترك وعمائره، ترجمة أحمد محمد عيسى، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون.، صفحة ١٨ .

٣- ابن جبير أبي الحسين محمد بن أحمد، ١٩٠٧ – رحلته أو اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والناسك، دار صادر، بيروت، ج٤، صفحة ٢٦٠.

٤- حجار عبد الله، ١٩٩٠ – معالم حلب الأثرية، منشورات جامعة حلب، وجمعية العاديات بحلب، صفحة ٤٢.

٥- حريتاني محمود، ٢٠٠٦ – حلب والسلطنة العثمانية، منشورات دار شعاع للنشر والعلوم بحلب، ط١، ٨٨ صفحة.

٦- الحمصي فايز، ١٩٧٨ – روائع العمارة العربية الإسلامية في سورية، منشورات وزارة الأوقاف بدمشق، ط٢، ١٤٨ صفحة.

٧- الحمصي فايز، ١٩٨٣ - حلب القديمة، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق، صفحة ١٢٥.

٨- الحموي أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، ١٩٦٥ – معجم البلدان، مكتبة المسند.، ج٢، صفحة ٢٩٤.

٩- ريمون أندريه، ١٩٨٤ – المواصم العربية عماراتها وعمرانها في الفترة العثمانية، ترجمة قاسم طوير، مطبعة سورية، دمشق، صفحة ٥٥.

١٠- الريحاوي عبد القادر، ١٩٧٩ – العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠٦ صفحة.

١١- شعث شوقي، ١٩٩١ – حلب تاريخها ومعالمها التاريخية، منشورات جامعة حلب، الطبعة الثانية، ٢٢٦ صفحة.

١٢- الطباخ محمد راغب، ١٩٨٨– أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، دار القلم العربي بحلب.، ٧ أجزاء، ٢٦٧٨ صفحة.

١٣- طلس أسعد، ١٩٥٦ – الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مديرية الآثار العامة بسورية، ٣٩٠ صفحة.

١٤- عثمان نجوى، ١٩٩٢ – الهندسة الإنشائية في مساجد حلب، مطبوعات جامعة حلب، معهد التراث.، ٦٨٠ صفحة.

١٥- الغزي كامل، ١٣٤٢هـ – نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية بحلب، سورية، ٣ أجزاء، ٢٠١٧ صفحة.

١٦- كريزويل ك.أ، ١٩٨٤ - الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، صفحة ٢٧٣

١٧- كونل آرنست، ١٩٦٦ – الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، صفحة ٧٢.

١٨- المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، ١٢٧٠هـ – المواعظ بذكر الخطط والآثار، ج١ و ج٢، طبعة الأميرية ببولاق، صفحة ٩٢.

١٩- مصطفى شاكر، ١٩٩٧ – المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط٢، ج٢، دار طلاس، دمشق، صفحة ٥٠١.

٢٠- مصطفى صالح لمعي، ١٩٨٤ – التراث المعماري في مصر، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، صفحة ٦٠.

٢١- محمد رفعت موسى، ١٩٩٣ – الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، الدار المصرية، ط١، صفحة ٣٠ .

٢٢- متز آدم، ١٩٦٧ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريده، ج٢، صفحة ٢٨٨ .

٢٣- هلال فؤاد، فقش نديم – دليل حلب (دراسات تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية) ، صفحة ١٥٠.

24- Herzfeld, Studies In Architecture, Arts Islamic, Damascus, XI- XIV.

الرق المخطوط والمواد المستخدمة في ترميمه
دراسة مترجمة عن اللغة الروسية

ترجمة: سمير نجم الدين سطاس
دبي - الإمارات العربية المتحدة

تعتمد طرق ترميم المخطوطات بدرجةٍ كبيرة على نوعية الرق المخطوط المراد ترميمه والذي يحدد بدوره طريقة صنع الرق المخطوط ومكان وزمان صناعته، وكذلك شروط التخزين.

تعد الرقوق اليونانية والرومانية القديمة ذات جودة عالية (لأنها رقيقة وخفيفة لدرجة كبيرة)، إلا إنه في الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثامن تراجع فن صناعة الرق في أراضي الإمبراطورية الرومانية، في حين لم تكن صناعته قد بدأت بعد في شمال أوروبا ووسطها. ولذلك فإن المخطوطات العائدة إلى القرن من السادس إلى العاشر مكتوبة على رق قاس أصفر اللون شبيه بالورق السميك اللامع.

عندما ظهر الأدب العلماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر انتقلت صناعة الرق من أيدي الأديرة إلى أيدي الحرفيين في المناطق الحضرية، وظهرت مختلف أنواع الرقوق، ومن بينها الرقيقة والناعمة. وبات معلوماً أن الرق كان يصنَّع من جلود الخراف والأغنام والعجول والغزلان. وأكثر الرقوق رقة هي تلك التي يتم تصنيعها من جلود الحملان والعجول التي تولد ميتة.

بغية إعداد الرق للكتابة تخضع الجلود لعمليات مختلفة حيث تتم في البداية إزالة الشعر والطبقة العليا عن الجلد (الأدمة)، ثم تزال الطبقة الدهنية من تحت الجلد بوضعه في ماء الجير، وبعد ذلك يتم جلخ الجلد وكي سطحه. يتم في بعض المناطق تصنيع جانب واحد فقط من الجلد - من الجانب غير المرئي. وبغرض الاقتصاد والتوفير يجري في أوروبا الشمالية تصنيع كلا الجانبين، وغالباً ما يتم دلك سطح الرق بالطباشير المشبعة بالدهون.

إن المادة التي نطلق عليها اسم «رق» هي مادة متباينة جداً في تركيبها الكيميائي والفيزيائي غير المحدد، الأمر الذي يستوجب استخدام مواد وطرق منهجية غير محددة في ترميم وحفظ المخطوطات على الرق.

بنية الرق:

تبين الدراسات المجهرية أن المركب الرئيس للرق المصنع من أدمة الحيوانات هو بروتين الكولاجين، الذي يحتوي على نحو ٩٠ ٪ من وزن المواد الجافة في الأدمة. وتشكل جزيئات الكولاجين المتشكلة على شكل الفايبر ألیافاً تتخللها فراغات. يتكون سطح الرق سواء من جهة الشعر أو من جهة

الأدمة من ألياف الكولاجين والفايبر التي تأخذ اتجاهات مختلفة.

الأضرار التي تصيب الرق:

على الرغم من أن الرق يعد من المواد المتينة جداً والتي تبقى لأمد بعيد إلا أنه يمكن أن يصاب بتشوهات وتشققات ميكانيكية. يعود السبب الرئيس للأضرار التي تلحق بالرق في أغلب الأحيان إلى النشاط الحيوي للجراثيم والميكروبات، الأمر الذي يؤدي إلى فقدان كلي للجزء اللابلوري وتمزق الألياف الكولاجينية.

تعد قلوية الرق وامتصاصه العالي لرطوبة الهواء من الخصائص المميزة له. يعود السبب في الثبات العالي للرق إلى خاصيته الأولى - قلويته، إذ أن المادة في ظروف القلوية العالية تكون أقل تعرضا لتأثير الوسط الحمضي، الذي يحتوي على أكاسيد حمضية من الكبريت والنيتروجين، وتقاوم بشكل أفضل تأثير الجراثيم والميكروبات المدمر.

تعد الخاصية الثانية - الامتصاص العالي لرطوبة الهواء - السبب الرئيس في تلف المخطوطات والوثائق، إذ أن رطوبة الهواء، سواء كانت عالية أو منخفضة تعد الضرر المهلك للرق.

عندما تكون الرطوبة منخفضة (أقل من ٤٠٪) نتيجة لفقدان الماء، فإن المادة تتعرض لتغير كبير في حجمها (تتقلص)، ونتيجة لذلك تحدث تشوهات في أوراق المخطوط، الأمر الذي غالباً ما يؤدي إلى انتثار الحبر والطبقة الملونة. وتكون النتائج أكثر ضرراً عند فقدان ما لا يمكن تعويضه المرتبط بالهيدرات.

كما يتأثر الرق المخطوط أيضاً عندما تكون نسبة الرطوبة عالية (أكثر من ٧٠٪)؛ ونظراً لتباين خواص الرق فإن الرطوبة تتوزع بشكل غير متساو في الحجم، الأمر الذي يؤدي إلى تشوه أوراق المخطوط، وإصابتها بالتجاعيد، وأحيانا بالتصاق بعضها ببعض. وفي كثير من الأحيان، عندما يتعرض الرق المخطوط لتأثير رطوبة الهواء فإنه لا يطوى كما ينبغي، إذ أن أوراقه تتعرض إلى الانتفاخ من أطرافها أكثر من الجزء الداخلي لها، كما أن ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء يجعل الميكروبات والجراثيم، التي تلحق أضراراً لا يمكن إصلاحها في المخطوطات تزيد من نشاطها المؤثر.

يمكن تقسيم أنواع الإصابات التي كثيراً ما تلحق بالرق إلى إصابات ميكانيكية وبيولوجية وكيميائية والتي يلاحظ من نتائجها:

- انكماش وتجعد الورق دون فقدانه للمرونة.
- انكماش وتجعد الورق مع التصاق بعضه ببعض وفقدان مرونته.
- الشفافية.
- سيلان طبقة ألوان المنمنمات وسيلان الأحبار.

فقدان بعض المقاطع والإصابات البيولوجية والتمزق وبقع أشبه بالزركشات على الرق بفعل الأحبار المحتوية على الأحماض وعقد الحديد، وكذلك الأصباغ الخضراء والصفراء التي تحتوي على النحاس.

تقنية طبخ غراء الرق:

يعد غراء الرق المادة اللاصقة الأساسية لترميم رق المخطوطات. ويُذكر أن هذا النوع من الغراء يعود إلى القرن العاشر الميلادي. وهناك من يرى أن استخدامه يعود إلى ما قبل القرن السادس حيث كان يستخدم كرمال التوصيل في المنمنمات أو الرسوم المصغرة.

أجريت أبحاث منهجية للوقوف على خواص غراء

الرق تبعاً لتقنية إعداده. وقد جرى في هذه الأبحاث طبخ غراء الرق المصنوع حديثاً من جلد العجل.

عملية النقع:

دلت الأبحاث على أنه عند نقع الرق في الماء فإن سماكته فقط هي التي تزداد (ينتفخ) في حين تبقى مقاييسه الطولية على حالها؛ وأن سرعة امتصاص المياه تختلف حسب مدة النقع: فخلال الساعة الأولى من نقع الرق يتم امتصاص الكمية الأساسية من الماء (٩٠-١٠٠٪ من الوزن الأساسي للعينة)، وتقل سرعة الانتفاخ في الفترة الزمنية التالية ويصل إلى قيمة ثابتة بعد ٤-٦ ساعات.

درجة الحرارة ومدة طبخ الغراء:

ورد في أطروحة علمية أن المدة المثالية لطبخ غراء الرق تقدر بالوقت الذي يبقى بمروره ثلث حجم الماء الأولي، ويرى الدكتور «فيشتيره أن مدة طبخ الغراء يجب أن تستمر لـ ٢٤ ساعة وبدرجة حرارة ٧٠°C.

كما دلت أبحاث أجرتها «أ. ر. مارغاتيفا» (Margoteva A. R.) أنه يمكن الحصول على أفضل خصائص اللصق من خلال طبخ الرق لمدة ست ساعات وبدرجة حرارة ٧٠ °C. وتتم عملية الطبخ في وعاء زجاجي أو من السيراميك أو الخزف في حوض ماء.

يتوقف الحصول على الغراء على درجة الحرارة ومدة طبخه: فمثلاً، يمكن نتيجة لطبخ غراء الرق على درجة حرارة ٤٠ درجة مئوية لمدة ٥ ساعات الحصول على الغراء وتكون نسبة تركيزه ٠,٣٪، وفي درجة حرارة ٥٠ درجة مئوية لنفس المدة (٥ ساعات) تكون نسبة تركيزه ٠,٥٪، وفي درجة الحرارة ٦٠ درجة مئوية لنفس المدة (٥ ساعات) تكون نسبة تركيزه ٠,٩٥٪.

وتجدر الإشارة إلى أن درجة حرارة تحول الكولاجين إلى حالة الذوبان (حالة الانحلال) تختلف بحسب نوع الجلد: فمثلاً تبلغ بالنسبة لجلد العجل ٦٢ درجة مئوية، ولجلد البقر ٦٥ درجة مئوية ولجلد الغنم ٥٨ - ٦٢ درجة مئوية، ولجلد الماعز ٦٤-٦٦ درجة مئوية، ولجلد الأرنب ٥٩ - ٦٠ درجة مئوية؛ وأن إنتاج الغراء يتناسب مع مدة الطبخ، فكلما زادت مدة طبخ كل ٦-٧غ من المادة الجافة في ١٠٠ مليلتر من الماء، كلما حصلنا على غراء عالي التركيز.

قام «د. فيختره بإعداد مركب غراء الرق مع إضافة خل العنب والكحول الإيثيلي. وللقيام بذلك ينصح بإتباع الطريقة التالية: تغمر قطع من الرق أبعادها ١٠ X ٢ مم في وعاء ماء وتسخن لمدة إجمالية تساوي ٢٤ ساعة مقسمة على ثلاثة أيام بالتساوي (أي ٨ ساعات كل يوم على مدى ثلاثة أيام) - لكل ٣٠ غراماً من الرق ٥٠٠ مل ماء، وبعد ذلك يضاف إلى جزأين من المحلول الساخن ١ غرام من خل العنب (٥٪) وجزء كحول إيثيلي (٩٦٪). وبذلك يتم الحصول على غراء يمتاز بأنه منخفض اللزوجة بدرجة حرارة الغرفة، وأكثر جودة من الغراء الذي تتم عملية طبخه بالطريقة المعتادة.

بغية حفظ الغراء لفترة طويلة تضاف مادة الكيتامين أ. ب ٣- ٥ ٪ إلى غراء الرق النمطي، شأنه في ذلك شأن جميع أنواع المواد اللاصقة الجيلاتينية.

كما أنه عند استخدام غراء سمك الزجر المعقم بمادة الكيتامين فإن ذلك من شأنه أن يضعف من قوة الغراء على الالتصاق. يمكن حفظ المحلول المائي من غراء الرق غير المخلوط بمادة الكيتامين في ثلاجة لمدة أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، وعند ذلك لا ينبغي إغلاق وعاء الغراء

بغطاء محكم؛ حتى أنه تكفي تغطيته بطبقة من الشاش أو ورق الترشيح.

ويمكن تخزين الطبقات الرقيقة (الأغشية) في ظروف الرطوبة المنخفضة لفترة زمنية طويلة. وبغية التقليل من لزوجة الغراء وتحسين قدرته على اللصق يفضل أن يضاف إليه محلول الإيثيل.

القواعد الأساسية لإعداد غراء الرق:

من أجل تحضير الغراء يفضل استخدام الرق الرقيق المرن (سماكة ٧٠-٩٠ ميكرون). وبغية الحصول على غراء بتركيز عملي (٢ - ٤ ٪) يجب أن لا يقل وزن الرق الجاف عن ٧ غرام لكل ١٠٠ مل ماء.

بغية الحصول على أفضل الخواص الاستثمارية لوصلة غراء لاصقة يجب طبخ قطعة رق رقيقة في حوض ماء بدرجة حرارة تتراوح ما بين ٧٥ و٨٠ درجة مئوية لمدة خمس ساعات. أما قطع الرق متوسطة السماكة وكذلك السميكة والقاسية فيجب طبخها في نفس درجة الحرارة (أي ٧٥ - ٨٠ درجة مئوية) لمدة ٤ ساعات يومياً على مدى يومين.

من سلبيات غراء الرق اللزوجة العالية مع التركيز المنخفض، والميل إلى الشكل الهلامي، والحاجة إلى التسخين، واحتواء الغراء المطبوخ على نسبة عالية من المياه.

المواد اللازمة لترميم لوحة المنمنمات على الرق:

يعد غراء الرق من أكثر المواد استخداماً في التطبيقات العملية المحلية والأجنبية لتثبيت طبقة من الألوان الزاهية على لوحة المنمنمات - الرسومات المصغرة والمخطوطات المزخرفة.

يقترح د. فيختر من المكتبة الوطنية في فينا (النمسا) أنه لتثبيت طبقة من الألوان الزاهية لمنمنمات القيام بنضح الغراء المعدل بالخل والكحول على لوحة المنمنمات باستخدام النضاحة وتغطيته بطبقة من القماش الحريري ووضعه على المكبس.

بغية تثبيت طبقة التمبرا (نوع من المواد تستخدم عادة لرسم المنمنمات وتدوم لفترات طويلة) أو التقشيرات على اللوحة، والتي كان يجري تثبيتها في السابق باستخدام المعجون الشمعي الدمري، أوجد ف. فيلاتوف في عام ١٩٦٢ طريقة معدلة لتثبيت طبقة الألوان الزاهية للمنمنمات على الرق باستخدام مركبات راتنجية (صمغية) شمعية بعد تغيير الورنيش (اللكر) الدمري بالفستقي.

وقد أعطت هذه الطريقة نتائج جيدة لكنها تتطلب مهارة مهنية عالية من المرمم؛ إذ أنّ هناك خطورة أنْ يخترق المعجون إلى ظهر المنمنمة؛ ومن ناحية ثانية يمكن أن تؤدي عملية كي اللوحة إلى إحداث لمعان على سطحها. إلى جانب غراء الرق ومكونات الراتنج الشمعي تستخدم المستحلبات المحية والزلالية ومحاليل الصمغ وغيرها من المواد الطبيعية كمواد لاصقة ولاحمة لطبقة الألوان الزاهية.

غير أنه بات من الواضح حتى بداية السبعينات أن أيّاً من الطرق المعروفة لم تحل مشكلة ترميم الرسومات على الرق؛ ليس هذا فحسب بل وغالباً ما يؤدي ذلك إلى آثار سلبية كتغيير في تمازج الألوان في الصورة وأصالة أو خصائص التقنية الفنية للعمل الفني. عدا عن أن استخدام الطرق آنفة الذكر معقدة وغير ناجحة.

يرى البعض من المرممين من ذوي الكفاءة المهنية العالية من أمثال ب. بيكوفا أن العمل بمحاليل صمغ الكولاجين، حتى ذات التركيز المنخفض، غير مجد بسبب لزوجته وقابليته العالية

على التشكل الهلامي، وضرورة تسخينه باستمرار. ولكن السلبية الأكبر تتجلى في النتائج التي تظهر على اللوحة المخطوطة عند حفظها لفترات طويلة أو استخدامها أو عرضها في ظروف تكون فيها الرطوبة متغيرة.

من خصائص صمغ الكولاجين القدرة العالية على اللصق وامتصاص الرق للماء أو بخار الماء، (تبلغ القوة اللاصقة للطبقة الرقيقة عند التمدد حسب د. ماركاتيفا ٨٠-٩٠ ميغاباسكال)، والثبات العالي في ظروف درجة الحرارة والرطوبة السيئة.

في بداية السبعينيات بدأ العمل في معهد الترميم في البحث عن مواد تركيبية قادرة على حل مسألة الترميم المضمون والطويل الأمد للرسوم الموجودة على الرق دون المساس بالحس الجمالي لها وفي نفس الوقت تتجاوز السلبيات آنفة الذكر.

من أوائل المواد المكتشفة المناسبة للترميم البوليمر الحاوي على الفلور (والبوليمر أو المتماثر هو جزيء طويل يتكون من وحدات بناء ووحدات متكررة مربوطة معا عن طريق روابط كيميائية. وتسمى عملية تحويل هذه الوحدات إلى بوليمر بلمرة) أو ما يسمى Ftorlon وهي البوليمرات التساهمية من الفلوريد الفينيليدين مع gesaftorpropilenom (إف ٢٦)، أو triftorhloretilenom (إف ٣٢) أو tetrafluoroethylene (إف ٤٢).

بغية تثبيت طبقة من الألوان على منمنمة، والأحبار القابلة للذوبان وأوائل الأحرف الملونة عليها، وكذلك بغية ترميم الرق المتضرر بفعل الأحياء المجهرية (الجراثيم) ينصح باستخدام محاليل Ftorlon من نوع ف ١-٢ ٪ - ٢٦ (لتثبيت طبقة ألوان على لوحة والأحبار القابلة للذوبان والأحرف الأولى الملونة)؛ و ٣- ٥ ٪ (لترميم الرق المتضرر بفعل المواد الحيوية) في مزيج من المذيبات - الأسيتون، وإيثيل خلات بيوتيل أو أميلي خلات في نسبة ١:١:١؛

يمكن معالجة حساسية نص أو الأحرف الأولى الملونة للماء بمحلول ١-٢ ٪ من Ftorlon ومن ثم إزالة الأوساخ أو التلوث من أوراق الرق باستخدام مستحضرات مائية.

بالإضافة إلى ذلك تم باستخدام الفتورلون (Ftorlon - وهي مجموعة متبلورة جزئياً من البوليمرات والبوليمرات المشتركة الحاوية على ذرات الفلور وكذلك الكلور والهيدروجين) ابتكار طريقة لتقوية الرق المتضرر بفعل الأحياء المجهرية والأحبار أو الأصباغ. وبغية التخلص من هذا النوع من الإصابات تستخدم طريقة ملء اللب المتكون من فتات الرق مع استخدام الطاولات الفراغية. في هذه الحالة يستخدم غراء الرق، ومحاليل أثير السليلوز وغيرها. وهذه الطريقة تعطي نتائج جيدة ولكنها لا تطبق في الحالة التي يكون فيها الرق قد أصيب بتعتيم بفعل الماء أو بقيت عليه هالات بفعل الماء أيضاً.

لتقوية رق يتم خلط برادة الرق مع ٥٪ من محلول الفلور ماركة إف ٢٦ ل، ومن ثم يتم طلاء القسم المتضرر من الرق بهذا الخليط وتوضع طبقة رقيقة من مادة التفلون ويوضع فوقها ثقل. أما الثغرات في طيات صحائف الرق فيمكن لصقها بواسطة الفتورلون بدون إضافات. ويساعد استخدام الغراء اللامائي على إزالة التشوهات.

غير إنه لا يمكن باستخدام الفتورلون تثبيت طبقة الألوان على لوحة لحقت بها بعض الأضرار كإصابة القشرة القاسية، لأن المحاليل في المذيبات العضوية لا تستطيع تليين طبقة الألوان

الرق المخطوط والمواد المستخدمة في ترميمه دراسة مترجمة عن اللغة الروسية

القاسية - طبقة التمبرا Poster paint على اللوحة أو التذهيب أو ما يسمى بالتعتيق، كما لا يمكن ضمان جودة اللصق نتيجة خواص اللصق السيئة لهذا النوع من المركبات.

لحل هذه المشكلة ينصح باستخدام مادة (بوليمرات أسيتات الفينيل مع الاثيلين) Polymers (of vinyl acetate with ethylene). وبما أن هذا البوليمر يذوب في مزيج من الماء والكحول (٣٠:٧٠)، فيمكن بـ٣٪ من المحلول إزالة طبقة الألوان الجافة مع الإبقاء على نفس لون اللوحة ونسيجها.

تبين أعمال ايفانوفا، ويوسوبوفا أن مادة (بوليمرات أسيتات الفينيل مع الاثيلين Polymers (of vinyl acetate with ethylene) مثلها مثل الفتورلون لا تؤثر على قدرة الرق على امتصاص رطوبة الهواء أو على طرح الماء ولا تمنع من إعادة ترميم الرق أو إزالة التشوهات عنه بطريقة الترطيب الأولي.

أجريت في السابق تجربة استخدام مادة «تشتت كوبوليمر خلات الفينيل ايثيلين» (Dispersion (of ethylene vinyl acetate copolymer و(VA -2EGA) كمواد لاصقة لترميم المنمنمات (الرسومات المصغرة). وقد أثبتت قدرتها على اللصق المضمون لطبقة التمبرا على الرق، ولكن ارتفاع نسبة الماء في المحتوى المخفف حتى ١-٥٪ من التباين كثيراً ما أدى إلى تشوهات في الرق. ومع ذلك جرى في السبعينات ترميم مخطوطات من القرون الوسطى باستخدام هذه المواد وهي لا تزال حتى الآن بحالة ممتازة.

جرى تحسين الخصائص التكنولوجية للصمغ الاصطناعي من جميع النواحي، لا سيما من حيث خفض سرعة تبخر الكحول عند التعامل مع محاليل تحتوي على ماء وكحول. ونتيجة لتبخر الكحول تتشكل على ريشة أو فرشاة الرسم فوراً طبقة بوليمر رقيقة، مما يخلق بعض الصعوبات في العمل. يمكن تخفيف سرعة تبخر الكحول الإثيلي من خلال تعويضه الجزئي بالاثيل أو الميثيل سليولوزي (١:١).

المواد المستخدمة لترميم الأغلفة الجلدية:

أظهرت بعض الأبحاث أن الغراء (МПС-1) و(PFE-2/10) يتشكل من مركبات لصق (صمغية) قوية ومرنة نسبياً، ومقاومة للماء. وفي عملية التعتيق تصفر هذه البوليمرات وتصبح غير قابلة للتحلل.

وقد توصل إلى هذه النتيجة عدد من الكيميائيين من أمثال «ك.ي. اندرييفاه ول. ف. جاركوفاه». عند لصق الجلد على الخشب أو الورق المقوى عادة ما يستخدم غراء البولي فينيل أسيتات (بوفادين). وهذا النوع من الغراء يمتاز بقدرته العالية على الالتصاق على أي ركيزة، كما أنه سهل الاستعمال. إلا أن قيمة الرقم الهيدروجيني، والمقاومة الضعيفة للمياه والقساوة المتزايدة لدرزة هذا الغراء يجعل من استخدامه أمراً غير مرغوب فيه لهذا الغرض.

بالإضافة إلى هذه المواد اللاصقة أجريت أبحاث تم خلالها اختبار المحاليل المائية للبولي فينيل الكحولي و الميثيل سليولوزي (بتركيز ١٠٪) وغراء النشاء والأدمة.

وقد أظهرت الدراسات أن أكبر قوة لصق يؤمنها غراء البولي فينيل أسيتات (بوفادين) والأدمة. فعند استخدام غراء النشاء تكون قوة الالتصاق أقل بـ١٠-١٥ مرة مما هي عليه عند استخدام غراء البولي فينيل أسيتات بوفادين والأدمة، وبـ٣٠ مرة عند استخدام ميثيل السيلولوز.

على الرغم من أهمية قوة التماسك للغراء، إلا أن ذلك لا يعد الخاصية الوحيدة التي من خلالها يتم الحكم على مدى جودة هذه المادة اللاصقة؛ إذ هناك أيضاً نوع أو طبيعة المادة المركبة وقدرتها على البقاء. فإذا كانت درزة (وصلة) اللاصق (الغراء) لا تتعرض إلى جهد ميكانيكي عالي فيمكنك عندها استخدام غراء النشاء.

يفضل استخدام غراء البولي فينيل أسيتات (بوفادين) عند تصنيع الأغلفة (الجلود) الجديدة. ويرى اختصاصيون أن من الأفضل استخدام هذا الغراء مع غراء النشاء.

تشكيل درزات (وصلات) الغراء عند استخدام المواد اللاصقة الاصطناعية

أجريت أبحاث بهدف تحديد بعض خصائص تشكيل طبقات رقيقة من الغراء على سطح رقوق مختلفة التكوين. تمت دراسة التوزيع المكاني لمواد البوليمر اللاصقة (بوليمرات أسيتات الفينيل مع الاثيلين (Polymers of vinyl acetate with ethylene) على رقوق من مختلف الأعمار والمنشأ.

أثبتت الأبحاث أنه عند معالجة سطح رق يكسوه الشعر من القرن التاسع عشر بـ ٣٪ من محلول بوليمرات أسيتات الفينيل مع الاثيلين (Polymers of vinyl acetate with ethylene) لمرة واحدة فإنه تتشكل على سطحه طبقة رقيقة من مادة لا تنفذ إلى داخل الرق، وان زيادة عدد مرات المعالجة بالتشبع (النقع) تؤدي إلى زيادة سماكة درزة الغراء.

عند معالجة الرق من جهة الأدمة ينفذ البوليمر إلى داخله. وكلما زاد عدد مرات المعالجة بالتشبع كلما زاد عمق النفاذ وذلك إلى أن تبدأ طبقات اللصق الرقيقة بالتشكل.

كلما زاد تركيز محلول بوليمرات أسيتات الفينيل مع الاثيلين كلما زادت سرعة تشكل الطبقة الرقيقة. وفي حالة هذا الرق بصفة خاصة، عندما يكون التركيز الأولي للمحلول (٥٪) وعدد مرات الإشباع (٥) تتشكل على الجهة الشعرية للرق طبقة رقيقة بسماكة ١٣٥ ميكرون وعلى جهة الأدمة ٥٧ ميكرون.

أظهرت الدراسات أيضا أن توزيع مواد الترميم يعتمد على نوع الرق، وعلى درجة حفظه: فعلى سبيل المثال، لوحظ في الرقوق اليونانية، ورقوق من دول أوروبا الغربية تعود للقرن الرابع عشر، ورقوق روسية قديمة تعود للقرن الثالث عشر تغلغل عميق للبوليمر فيها.

إزالة الأوساخ عن الرق:

عند ترميم مخطوطات الرق تتكرر عادة عملية إزالة الأوساخ السطحية من على هذا المخطوط. وهذه العملية تعد من أكثر الأعمال التي تتطلب جهداً من المرمم؛ إذ عادة ما تحمل كل ورقة من أوراق المخطوط أوساخاً تجعل نص المخطوط أو أجزاء منه صعبة القراءة.

يتوقف اختيار طريقة إزالة الأوساخ عن الرق على نوع هذا الرق؛ فمثلاً الأوساخ التي تتواجد على الرق اليوناني الأملس تتوضع على سطح الألياف ولهذا فإنه من غير المتبع إزالة الأوساخ من على مثل هذا الرق بالطرق الميكانيكية باستخدام المشرط؛ إذ من الممكن هنا أن يتم التأثير على نسيج سطح الرق؛ ومن ناحية أخرى يمكن بسهولة إزالة الأوساخ أو التلوث عن مثل هذا الرق باستخدام المحاليل أو المذيبات العضوية والمحاليل العضوية المائية.

تعد عملية تنظيف الرق الأوربي الغربي والروسي القديم المتسخ أكثر صعوبة نظراً لأن الدهون والسخام وغبار الأتربة والشمع تخترق بين ألياف الكولاجين مشكلة وصلات قاسية؛ الأمر

الذي يتطلب، قبل كل شيء، إضعاف هذه الوصلات بالمعالجة الميكانيكية باستخدام الممحاة أو الفرشاة القاسية على الرغم من عدم الفعالية القصوى لهذه الطريقة.

لا يجوز استخدام المياه لتنظيف مثل هذه المخطوطات أو إزالة الأوساخ عنها؛ إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى سيلان الحبر والرسوم الزيتية والحروف الملونة الأولى عن الرق الذي تم فركه بالطباشير.

بغية إزالة الغبار والسخام والأوساخ أو التلوث عن الرق جرى إعداد مذيبات مختلفة وهي مركبات عضوية مائية تحتوي على مواد فعالة لتنظيف الأسطح. وبغية إزالة البقع الدهنية والشموع والزيوت عن الرق تستخدم محاليل ومذيبات مثل أثير النفط والبنزين، والروح البيضاء - «سبيرتو وايت»، التي لا تختلط مع المياه وهي غير مضرة بصحة المرمم.

تستخدم في بعض أنواع المذيبات الكحول - الإيثانول (يستخدم في أغراض عديدة؛ حيث يعمل مذيبًا لتفاعلات كيميائية ولورنيش اللك والطلاءات والأصباغ. كما أنه عنصر مهم في تحضير المواد الكيميائية المستخدمة- مطهرات ومنكهات ومعطرات) والأيسوبروبانول (أو البروبانول-٢ أو الكحول الآيسوبروبيلي، فيغلي عند ٨٢°م ويتجمد عند -٨٨°م. يصنع البروبانول العادي تجاريا من الإثيلين والغاز الاصطناعي، وهو خليط من الهيدروجين وأول أكسيد الكربون في وجود حفّاز هو الروديوم أو الكوبالت. يستخدم الكحول البروبيلي في تحضير مواد كيميائية أخرى، كما يستخدم مذيبًا للمواد اللاصقة المعروفة باسم الراتينج)، وهذه الكحول تمتاز بقدرتها العالية على الاختلاط بالماء. لقد أجريت محاولات معروفة لتنظيف الرق بمذيبات مكلورة (تحتوي على الكلور) والتي تستخدم عادة في أعمال التنظيف المنزلية. وهذه المذيبات تختلط بشكل جيد مع الكحول والمذيبات الأخرى.

عند الحديث عن الكواشف الكيميائية التي تستخدم لتنظيف الرق لابد من ذكر الفريون - الذي تدخل في تكوينه المواد الفلوروكربونية التي لا تنحل في الماء، وتختلط بشكل جيد مع المذيبات العضوية الأخرى. وهي فعالة في إذابة الدهون ولا تتسبب في تخريب ألياف الرق؛ وقد ظهر أن من الممكن إزالة البقع الدهنية بشكل جيد من على الرق المبلل مسبقاً. ولكن في هذه الأثناء تتشكل خطورة من أن يسيل الحبر، ولا يمكن إزالة الأوساخ - التلوث من الرق الجاف.

لقد تبين أن طريقة التنظيف تعد فعالة لدرجة جيدة إذا ما تم استخدام بركلورات الإيثيلين التي تأخذ بالاعتبار تشرب ورقة الترشيح للمذيبات والتي سيتم وضعها فيما بعد بين أوراق المخطوط.

توضع الأوراق في حاوية محكمة الإغلاق بعد أن يصب في قاعها بركلورات الإيثيلين ويتم الاحتفاظ بهذه الأوراق في الحاوية مدة ٤ إلى ٥ ساعات. يتم التجفيف باستخدام أوراق ترشيح جافة في خزانة سحب.

من شأن هذه المعالجة أن تزيل الشحوم أو الدهون من الزوايا التي طالتها هذه الشحوم أو الدهون. إلا إنه في مثل هذه الحالة تبقى آثار قطرات الشمع، والتعتيم الذي يحدث على الورق بفعل الماء، وكذلك بعض أنواع الأوساخ أو التلوثات الأخرى. وميزة هذه الطريقة هي إمكانية معالجة عدة أوراق في آن واحد، والحفاظ على لون ونسيج الرق وعدم ظهور الشفافية والصلابة.

إلا إنه بعد هذه المعالجة يجب القيام بمسح

إضافي على الرق بفتيل قطني مبلل ببركلورات الإيثيلين أو بمزيج من البنزين والكحول الإيثيلي (الإيثانول).

تعد المادة الأكثر فعالية الآن لإزالة الأوساخ أو التلوث من الرق السيليكون الهلامي المشبع بالمذيبات.

«**السيليكون الهلامي**»: هو ثاني أكسيد السيليكون المجفف والمكلس. تصف المراجع العلمية المركبات الكيميائية في المنتجات الأجنبية بأنه الآيروزيل المكون من السيليكون الهلامي وكلوريد الكربون. بعد وضع المركب على سطح الرق المتسخ أو الملوث يتم تنشيفه ثم يزال من على سطح الرق باستخدام فرشاة قاسية وبذلك لا يتغير لون الرق. ولا يجوز تساقط الأوساخ المكنوسة من على سطح الرق على النص المكتوب. ومثل هذا المركب من الصناعة الوطنية [الروسية] ينتج على شكل معجون «ماركة مينوتكا [لحظة]» الذي يدلك به الرق لمدة من ١٠ إلى ١٥ دقيقة، يتم بعدها تنشيفه وكنسه بالفرشاة.

تم باستخدام السيليكون الهلامي إيجاد طريقة فعالة لإزالة الزيوت الجافة التي تستخدم لتحضير الألوان الزيتية من على أوراق الرق.

***

الخلاصة

- يتضمن ترميم المخطوطات العمليات الأساسية الآتية: إزالة الأوساخ أو التلوث، والقضاء على التشوهات، واللصق، وتقوية المادة المكونة للرق، وتقوية طبقة طلاء المخطوطات المزخرفة.

- يعد غراء الرق من الأنواع الرئيسة لترميم المخطوطات. ويتم إعداده من رق قديم أو جديد بغليه في حوض ماء بدرجة حرارة ٧٥-٨٠ درجة مئوية لمدة ٥-٨ ساعات، وبغية الحصول على غراء بتركيز عملي (٢- ٤ ٪) يجب أن لا يقل وزن الرق الجاف عن ٧ غرام لكل ١٠٠ ملل ماء.

- من أجل تحضير الغراء يفضل استخدام الرق الرقيق المرن (سماكة ٧٠-٩٠ ميكرون).

- بغية تثبيت طبقة ألوان على لوحة والأحبار القابلة للذوبان والأحرف الأولى الملونة، وكذلك بغية ترميم الرق المتضرر بفعل الأحياء المجهرية ينصح باستخدام محاليل Ftorlon من نوع إف ٢٦ (٢-١٪) لتثبيت طبقة ألوان على لوحة والأحبار القابلة للذوبان والأحرف الأولى الملونة؛ و٢-٥٪ لترميم الرق المتضرر بفعل المواد الحيوية في مزيج من المذيبات - الأسيتون، وإيثيل خلات بيوتيل أو أميلي خلات في نسبة ١:١:١

- أجريت في السابق تجربة استخدام مادة «تشتت كوبوليمر خلات الفينيل ايثيلين» (Dispersion of ethylene vinyl acetate copolymer) و(VA 33 -2 EGA) كمواد لاصقة لترميم المنمنمات (الرسومات المصغرة). أثبتت قدرتها على اللصق المضمون لطبقة ألوان تمبرا على الرق، ولكن ارتفاع نسبة الماء في المحتوى المخفف حتى ١-٥ ٪ من التباين كثيرا ما أدى إلى تشوهات في الرق. ومع ذلك جرى في السبعينات ترميم مخطوطات من القرون الوسطى باستخدام هذه المواد وهي لا تزال حتى الآن بحالة ممتازة.

تمت الترجمة بعون الله.

المراجع:

١- أندريفا، ك. إي. دراسة خصائص بعض البوليمرات لتثبيت الطبقة الملونة على المنمنمات على الرق. – لينينغراد ١٩٧٧. (باللغة الروسية).

٢- يكوفا، غ. ز. منمنمات القرون الوسطى على الرق. (فن وحفظ وترميم) مخطوطات القرون الوسطى. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثاني. (باللغة الروسية).

٣- يكوفا، غ. ز. و أيفانوفا، أ. ف. تثبيت التمبرا على المنمنمات الحديثة. الإعلام. موسكو ١٩٧٢. (باللغة الروسية).

٤- فالشكوفا، م. أ. عيوب الخط على الرق وتداركها. دراسة وحفظ وترميم مخطوطات العصور الوسطى. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثاني. (باللغة الروسية).

٥- جاريكوفا، ز. ف.، كوليكوف، ف. ب. و أكوتكوف، ف. س. – تحليل التوزيع المكاني لمواد الترميم البوليمرية على الرق. دراسة وحفظ وترميم مخطوطات العصور الوسطى. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثاني. (باللغة الروسية).

٦- إيفانفنا، أ. ب. استخدام البوليمرات التركيبية لتثبيت المنمنمات على رق العصور الوسطى. الإعلام. – موسكو ١٩٧٢. (باللغة الروسية).

٧- ماركوتيفا، أ. ر. المواد المستخدمة في ترميم المخطوطات الرقية. دراسة وحفظ وترميم مخطوطات العصور الوسطى. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثاني. (باللغة الروسية).

٨- ميخائيلوف، أ. ن. كولاجين الأغلفة الجلدية وأسس معالجته. – موسكو ١٩٧٣. (باللغة الروسية).

٩- ماكريتسوفا، ي. ب. مشكل ترميم المخطوطات الرقية من العصور الوسطى. ترميم ودراسة وحفظ التحف الفنية. – المعلومات. موسكو ١٩٧٧. (باللغة الروسية).

١٠- نيتشيبيروفا، ف. ك. وبيتوشكوفا، يو. ن. طرق معالجة المواد الحاوية على الكولاجين. ١٩٨٣. (باللغة الروسية).

١١- ريريكوفا، ن. ل. و مولدبلروق. ب. يا. الدراسة الإلكترونية المجهرية للرق. نشرة الطب والبيولوجيا الاختبارية. ١٩٨٢. (باللغة الروسية).

١٢- بيرمينوفا، ن. ل. طريقة جديدة لحفظ الأغلفة الجلدية للكتب القديمة. دراسة وحفظ وترميم مخطوطات العصور الوسطى. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثاني. (باللغة الروسية).

١٣- بيرمينوفا، ن. ل. و غارادنيتشيفا، إي. أ. الرق وبعض مشاكل حفظه.. حفظ وترميم المعالم التاريخية والثقافية. قضية الحفاظ على الكتب النادرة. القطار السريع للمعلومات. – موسكو ١٩٩٠. الإصدار الثالث. (باللغة الروسية).

14- Wachter- Restaurierung und Erhaltung von Buchern Archivalien und Graphiken- Wien-KoJn-Graz. 1975.

المصدر

http://art-con.ru/node/981#1

رسالة في الطريق إلى الله

للشيخ العلامة نجم الدين الكُبرى -رحمه الله-

(٦١٨هـ-١٢٢١م)

رسالة في الطريق إلى الله للشيخ العلامة نجم الدين الكبرى -رحمه الله- (٦١٨هـ-١٢٢١م)

تحقيق

د. أبو اليُسْر رشيد كُهُوس

كلية أصول الدين - جامعة القرويين - المغرب



تقديم:

الحمد لله رب العالمين، خالق الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وعلى خلفائه الراشدين المهديين.

وبعد؛ فهذه رسالة في التربية الإيمانية للشيخ العلامة المحدث الشهيد شيخ خراسان أبو الجناب نجم الدين الكبرى رحمه الله، تناول فيها الطرق الموصلة إلى الله تعالى؛ ولا شك أن أقرب الطرق لتحقيق هذه الغاية العظيمة، هي طريق المحبة. إن المحبة الغالية والعالية والشريفة لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ هي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروّح القانتون، فهي نور القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون وراحة النفوس، وضياء العقول، وعمارة البيت الباطني، وحياة الأفئدة، فما بعد إدراكها مقام.

وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في ظلمات ثلاث، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه الأسقام وابتلي بالويل والثبور وعظائم الأمور، واللذة التي من لم يظفر بها عيشه كله هموم وآلام، فهي روح الإيمان والأعمال والمقامات التي متى خلت منها فهي كالجسد بلا روح، وكالقفل على خربة، وكالباب بلا دار.

هي العروة الوثقى، والمنزلة العظمى، والسعادة الكبرى، من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا، ومن حرمها فقد حرم كل خير وفضل ونعمة، هي الغاية التي وجدنا من أجلها، لولاها ما كان خلق ولا أكوان.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوءهم من مقاعد الصدق عند مليك مقتدر لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطية القوم إلى التي مسراهم على ظهرها إلى الحبيب الطبيب، وسبيلهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم من قريب.

تالله وبالله ووالله لقد فاز أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم معية محبوبهم أوفر نصيب وأقرب مقام وأقرب مقام وأحسن منزلة وقد قضى ربنا جل في علاه يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، ومن أحب قوما حشره الله في زمرتهم، فيا لها من سعادة أبدية، ونعمة خالدة ومنة ربانية ونعمة إلهية.

إن المحبة تصنع العجائب، وترفع العبد مقاما عليا. عن سيدنا أبي هريرة ﷺ قال: سمعت سيدنا رسول الله ﷺ يقول: (**من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، وباب الريان، فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: وهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**)[1].

وفي رواية ابن حبان من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال سيدنا رسول الله ﷺ: (**أجل وأنت هو يا أبا بكر**).

ما السر الذي جعل الصديق الأكبر ﷺ يدخل من أبواب الجنان كلها ؟ إنها حب الشديد لسيدنا رسول الله ﷺ، دخل من باب المحبة ففتحت له جميع الأبواب، استكمل إيمانه لأنه محب صادق صِدّيق.

هذا هو طريق الحب الغالي والعالي ومن تنكبه أضل وتصيدته الأفاعي والذئاب...

وإن الذي يزيغ عن طريق الحب ويسلك مسلكا غيره كان حاله كحال الذي يجري وراء ظله ليمسكه؛ فلا يحصل في النهاية إلا على عمل باطل وسعي ضائع...

فالقوة قوة الحب والغنى غنى القلب، والإنسان لا يكون سعيدا مسرورا فرحا إلا إذا عاش في ظلال الحب... ولقد كان من سبقنا بالإيمان من المهاجرين والأنصار ليُضرب بحد السنان فتقع ضرباته على جسده فتقطعه، فما يحسها إلا كأنها قُبل أصدقاء من الملائكة يلاقونه ويعانقونه ليوصلوه إلى الحبيب الطبيب... والخير والسعادة في الحب السرمدي الغالي والعالي، ولا خير فيمن لا يسلك إلا الحب طريقا...

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري ومسلم -رحمهما الله- في فضائل أصحاب النبي ﷺ.

ترجمة الشيخ أبو الجِنَّاب نجم الدين الكُبْرى:

اسمه ونسبه ونشأته:

أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الإمام الزاهد الكبير نجم الدين الكبرى أبو الجَنَّاب الخيوقي الصوفي شيخ خوارزم، والكبرى على صيغة فعلى كعظمى ومنهم من يمد فيقول الكبراء جمع كبير[٢].

رحل الأقطار راكبا وماشيا، وأدرك من المشايخ ما لا يحصى كثرة، ولبس خرقة التصوف النهر جورية من الشيخ إسماعيل القصري، والسهروردية للتبرك من الشيخ أبي ناصر عمار بن ياسر، وسبق أقرانه في صغره إلى فهم المشكلات والغوامض؛ فلقبوه الطامة الكبرى، ثم كثر استعماله فحذفوا الطامة وأبقوا الكبرى[٢].

طلبه للعلم ومشيخته:

طاف في طلب الحديث، وسمع من:

أبي طاهر السلفي،

ومحمد بن بثيمان،

وعبد المنعم ابن الفراوي،

وسمع بهمذان من الحافظ أبي العلاء،

وبالإسكندرية من أبي طاهر السلفي،

وسمع بمكة من أبي محمد المبارك ابن الطباخ،

وبأصبهان من طائفة من أصحاب أبي علي الحداد،

وبنيسابور أبا المعالي الفراوي،

وعني بمذهب الشافعي والأصول. والتفسير وله تفسير في اثنتي عشرة مجلدة واجتمع به الإمام فخر الدين الرازي فاعترف بفضله.

---

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، ٨/ ١٢، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، ابن حَجَر العسقلاني، المكتبة العلمية – بيروت – لبنان، تحقيق: محمد علي النجار، مراجعة: علي محمد البجاوي، ١/ ٢٩٢.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، ٥/ ٧٩.

قال عمر بن الحاجب: طاف البلاد وسمع بها الحديث واستوطن خوارزم وصار شيخ تلك الناحية وكان صاحب حديث وسنة ملجأ للغرباء عظيم الجاه لا يخاف في الله لومة لائم، أقام ثمان عشرة سنة يختم القرآن في كل ليلة قائما في صلاته.

حدث عنه عبد العزيز بن هلالة، وخطيب داريا شمخ، وناصر بن منصور العرضي، وسيف الدين الباخرزي تلميذه، وآخرون.

قال ابن نقطة: هو شافعي إمام في السنة.

وقال ابن هلالة: جلست عنده في الخلوة مرارا، وشاهدت أمورا عجيبة، وسمعت من يخاطبني بأشياء حسنة[٤].

كان إماماً، زاهداً، صوفياً، فقيهاً، مفسراً، له عظمة في النفوس، وجاه عظيم[٥].

استشهاده:

نزلت التتار على خوارزم في ربيع الأول سنة ٦١٨هـ، فخرج نجم الدين الكبرى فيمن خرج للجهاد، فقاتلوا على باب البلد حتى قتلوا رضي الله عنهم[٦].

قال ابن الأهدل: استشهد ﷺ بخوارزم في فتنة التتار؛ وذلك أن سلطانها لما قد جمع الشيخ أصحابه وكانوا نحو ستين فقال لهم: ارتحلوا إلى بلادكم فإنه قد خرجت نار من المشرق تحرق إلى قرب المغرب وهي فتنة عظيمة ما وقع في هذه الأمة مثلها، فقال له بعضهم: لو دعوت برفعها فقال: هذا قضاء محكم لا ينفع فيه الدعاء؛ فقالوا له تخرج معنا، فقال: إني أقتل ههنا فخرج أصحابه، فلما دخل الكفار البلد نادى الشيخ وأصحابه الباقون الصلاة جامعة ثم قال: قوموا نقاتل في سبيل الله، ودخل البيت ولبس خرقة شيخه وحمل على العدو فرماهم بالحجارة ورموه بالنبل... ثم مات ودفن في رباطه رحمه الله تعالى.

وقتل الشيخ وهو في عشر الثمانين[٧].

---

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، ٥/٧٩، سير أعلام النبلاء، ٢٢/١١١-١١٢، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت ط١/ ١٩٩٢م، ٢/ ٢٥، طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ٨/١٢.

(٥) طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ١/ ٧٠.

(٦) طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ١/ ٧٠.

(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، ٥/٧٩-٨٠، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ابن ناصر الدين ٢/٢٥.

من مؤلفاته:

١- رسالة في الطريق إلى الله)وهي الرسالة التي اخترتها للتحقيق).

٢- فوائح الجمال وفواتح الجلال (مطبوع).

٣- «التأويلات النجمية» تفسير في ١٢ مجلدا.

٤- الرباعيات.

٥- رسالة السفينة.

٦- طوالع التنوير.

٧- منازل السائرين

هذا أهم ما ذكرته الكتب التي ترجمت له..

مخطوط:«رسالة في أقرب الطرق إلى الله»

اسم المخطوط: رسالة في أقرب الطرق إلى الله.

المؤلف: الشيخ نجم الدين الكبرى.

مخطوطات مكتبة الأزهر بالقاهرة.



عدد الأوراق: ٥.

الناسخ: سعد الدين.

الرقم العام: ٢٢٤٦١.

الرقم الخاص: ٨٢٧.

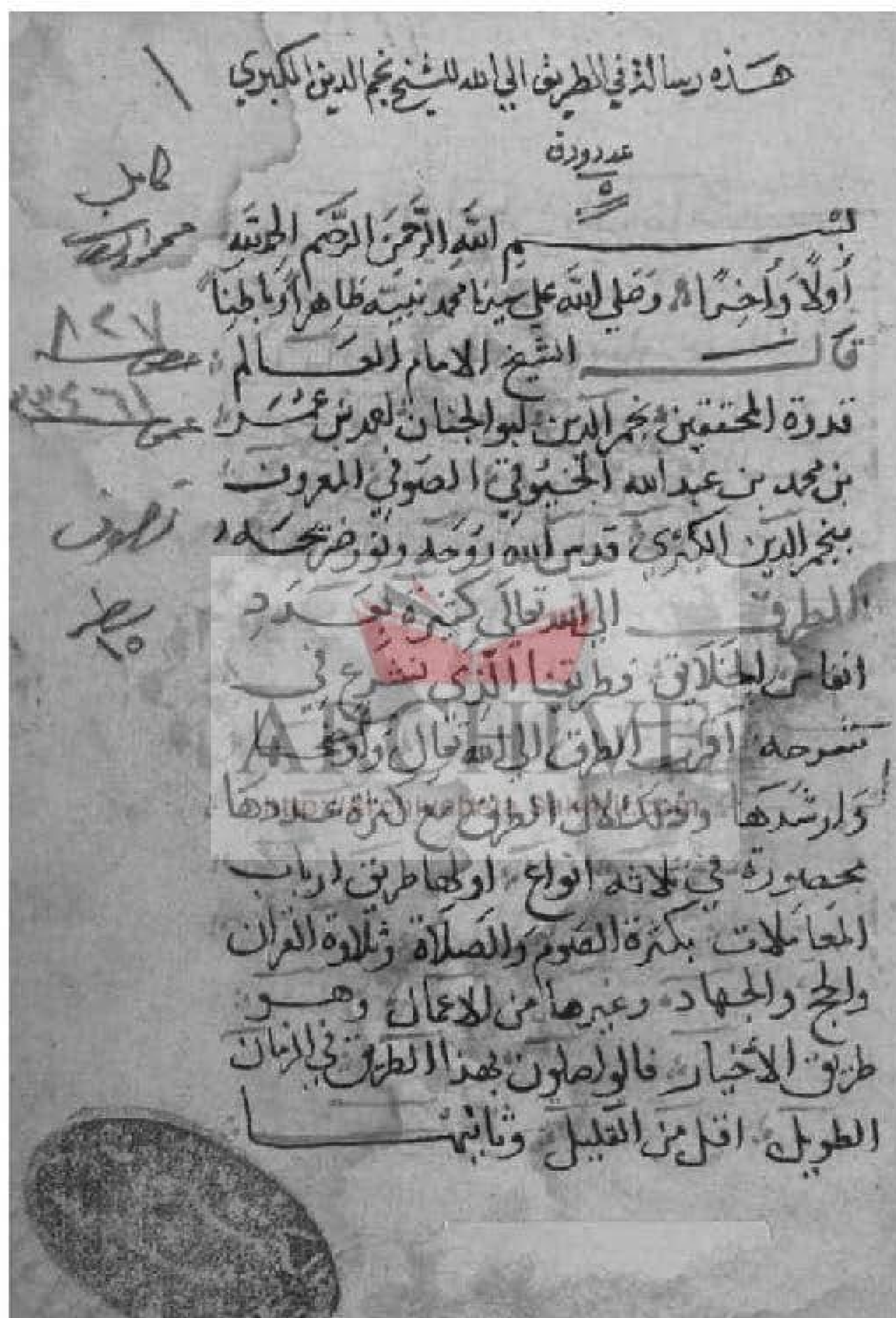
الفن: تصوف.

عدد الأسطر في كل ورقة: ١٥.

عدد الأوراق: ٦.

عدد الصفحات: ١٠.

الصفحة الأولى للمخطوط:



هذه رسالة في الطريق الى الله للشيخ نجم الدين الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله
أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ظاهراً وباطناً
قال الشيخ الإمام العالم
قدوة المحققين نجم الدين أبو الجناب أحمد بن عمر
بن محمد بن عبد الله الخيوقي الصوفي المعروف
بنجم الدين الكبرى قدس الله روحه ونور ضريحه
الطرق الى الله تعالى كثيرة بعدد
أنفاس الخلائق وطريقنا الذي نشرع في
شرحه أقرب الطرق الى الله تعالى وأوضحها
وأرشدها وذلك لأن الطرق مع كثرة عددها
محصورة في ثلاثة أنواع أولها طريق أرباب
المعاملات بكثرة الصوم والصلاة وتلاوة القرآن
والحج والجهاد وغيرها من الأعمال وهو
طريق الأخيار فالواصلون بهذا الطريق في الزمان
الطويل أقل من القليل وثانيها

الصفحة الأخيرة للمخطوط:

ليس بخارج منها أي من كان ميتا بأوصاف
نفسه الظلمانية في نجوة الإنسانية
أحييناه بأوصافنا الربانية وجعلنا
له نورا يمشي به أي بذلك النور في سرائر
الناس يمشي بالفراسة ويشاهد أحوالهم
كمن مثله في الظلمات أي كمن بقي في ظلمات
نجوة الإنسانية ليس بخارج منها إلا بزهرية
المومنية ولا بثمار الولاية والنبوة

تمت الرسالة



النص المحقق:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أولاً وأخيراً؛

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ظاهراً وباطناً.

قال الشيخ الإمام العالم قدوة المحققين نجم الدين أبو الجَنَّاب أحمد بن عمر بن محمد بن عبدالله الخَيْوَقي[8] الصوفي المعروف بنجم الدين الكُبْرى قدس الله روحه ونور ضريحه: الطرق إلى الله تعالى كثيرة بعدد أنفاس الخلائق فطريقنا الذي نشرع في شرحه أقرب الطرق إلى الله تعالى وأوضحها وأرشدها؛ وذلك لأن الطرق مع كثرة عددها محصورة في ثلاثة أنواع:

أولها: طريق المعاملات بكثرة الصوم والصلاة وتلاوة القرآن والحج والجهاد وغيرها من الأعمال وهو طريق الأخيار، فالواصلون بهذا الطريق في الزمان الطويل أقل من القليل.

وثانيها: طريق أرباب المجاهدات والرياضات وتبديل الأخلاق وتزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح والسعي فيما يتعلق بعمارة الباطن، وهو طريق الأبرار؛ فالواصلون بهذا الطريق أكثر من ذلك الفريق؛ ولكن وصول النوادر منهم من النوادر؛ وذلك لما سَئَلَ ابن منصور[9] إبراهيم الخواص[10] في مقام تروض نفسك؟ قال: «**أروض نفسي في مقام التوكل منذ ثلاثين سنة، قال:**

---

(8) الخيوقي: نسبة إلى خَيْوَقْ: بلد من نواحي خوارزم وحصن، بينهما نحو خمسة عشر فرسخاً، وأهل خوارزم يقولون خيوه وينسبون إليه الخيوقي وأهلها شافعية دون جميع بلاد خوارزم فإنهم حنفية، وهو من شذوذ الكلام لأن الواو صحت فيه وقبلها ياء ساكنة والأصل أن تقلب وتدغم ومثله في الشذوذ حَيْوَة اسم رجل والله أعلم. معجم البلدان. الشيخ ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله. دار الفكر - بيروت. ٢/ ٤١٥.

(9) هو: وهو الحسين بن منصور الحلاج، وكنيته أبو مغيث، هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط، والعراق،وصحب الجنيد، وأبا الحسين النوري، وعمرا المكي، والفوطي وغيرهم . قال محمد بن خفيف: ((الحسين ابن منصور عالم رباني)). قتل ببغداد بباب الطاق، يوم الثلاثاء، لست بقين لذي القعدة، سنة تسع وثلثمائة.. طبقات الصوفية. أبوعبد الرحمن السلمي، ص٩٠ وما بعدها. الأعلام للزركلي، ٢/ ٢٦٠. وفيات الأعيان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر - بيروت. ٢/ ١٤٠.

(10) هو: إبراهيم بن أحمد الخواص أبو إسحاق(ت٢٩١ هـ-٩٠٤ م). أحد المشايخ. صحب أبا عبد الله المغربي. وكان من أقران الجنيد والنووي. مات بالري سنة إحدى وتسعين ومائتين. قيل: مرض بالجامع، وكان به علة القيام، وكان إذا قام يدخل الماء، يغتسل ويعود إلى المسجد، ويركع ركعتين، فدخل مرة الماء، فخرجت روحه فيه. وله رياضيات وسياحات وتدقيق في التوكل. وكان لا يفرقه إبرة وخيوط، وركوة ومقارض. طبقات الأولياء. حرف الألف. ابن الملقن. ص٢.

أفنيت عمرك في عمارة الباطن فأين أنت من الفناء في الله؟»[١١].

وثالثها: طريق السائرين إلى الله، والطائرين بالله، وهو الشطار من أهل المحبة[١٢] السالكين بالجذبة، فالواصلون منهم في البدايات أكثر من غيرهم في النهايات، فهذا الطريق المختار مبني على الموت بالإرادة كما أن الموت رجوع بغير إرادة. لقول النبي ﷺ: (موتوا قبل أن تموتوا)[١٣].

وهو محصور في عشرة فصول:

أولها: التوبة: وهو الرجوع إلى الله تعالى بالإرادة، كما أن الموت رجوع بغير إرادة لقوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[١٤]، وهو الخروج عن الذنوب كلها، والذنب ما يحجبك عن الله من مراتب الدنيا والآخرة، فالواجب على الطالب الخروج عن كل مطلوب سواه، حتى الوجود كما قيل: «**وجودك ذنب لا يقاسيه ذنب**»[١٥].

وثانيها: الزهد في الدنيا والآخرة: لقوله ﷺ : [الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله تعالى][١٦].



---

(١١) إحياء علوم الدين، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، ٤/ ٢٤٧.

(١٢) المحبة هي أقرب طريق إلى الله تعالى.

(١٣) «موتوا قبل أن تموتوا». قال الحافظ ابن حجر: هو غير ثابت ، وقال القاري: هو من كلام الصوفية. والمعنى: موتوا اختيارا بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطرارا بالموت الحقيقي. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني. دار إحياء التراث العربي، ٢/ ٢٩١، رقم: ٢٦٦٩.

(١٤) سورة الفجر: الآية ٢٨.

(١٥) شطر بيت شعري، معروف عند أهل الله. قال الشيخ الجنيد: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، قيل له: وما هي قال: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصت لها فسمعتها تقول:

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلى ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوى ... تقولي بنيران الهوى شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قلت مجيبة ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب.

وفيات الأعيان، ١/ ٣٧٤.

(١٦) أخرجه الديلمى عن ابن عباس (٢/ ٢٢٠ ، رقم ٢١١٠) . قال المناوى (٣/ ٥٤٤) : فيه جبلة بن سليمان أورده الذهبى فى الضعفاء ، وقال ابن معين : ليس بثقة . مع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي، ح: ١٢٦٦٧.

وثالثها: التوكل على الله: وهو الخروج عن الأسباب والسبب ثقة بالله تعالى كما هو بالموت لقوله تعالى: ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

ورابعها: القناعة: وهو خروج عن الشهوات النفسانية والتبعات الحيوانية، كما هو بالموت ؛ إلا ما اضطر إليه من حاجة الإنسان فلا يُسرف في المأكول والملبوس والمسكن، ويقتصر على ما لا بد له من قوته.

وخامسها: العزلة[17]: وهي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع، إلا عن خدمة شيخ واصل مرب له وهو كالغسّال للميت ينبغي أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل يتصرف فيه كيف يشاء ليغسله بماء الولاية عن جنابة الأجنبية ولوث الحدوث، وأصل العزلة عزل الحواس عن التصرف في المحسوسات فإن كل آفة وفتنة ابتلي الروح بها وكانت تقوية النفس وتربية صفاتها [فيها][18]، دخلت من رَوْزَنة[19] الحواس وبها استتبعت الروح النفس إلى أسفل السافلين، وقيدته بها واستولت عليه، وبالخلوة وعزل الحواس ينقطع مدد النفس من الدنيا والشيطان، وإعانة الهوى، كما أن الطبيب في معالج المريض شغله أولا بالاحتماء عما يضره ويزيد في علل مرضه؛ فينقطع بذلك عنه مدد المواد الفاسدة التي منها يتبعث المرض، وينقى به المواد ؛ وقد روي: «الحمية رأس كل دواء»[20].

ثم يعالجه بمسهل يزيل عنه المواد الفاسدة ويقوي به الطبيعة والحرارة الغريزية ليزول عنه المرض بدفع الطبيعة ويجذب الصحة . فالمسهل هاهنا بعد الاحتماء وتنقية المواد الفاسدة هو الذكر الدائم.

---

(١٧) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ »، رواه الإمام الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب مخالطة المسلم للناس.

فلا تعني العزلة اعتزال الناس والهرب إلى الجبال، بل تعني العزلة اعتزال النفس الأمارة بالسوء والأغيار وقرناء السوء، وكل ما يصد عن سبيل الله تعالى، والاعتماد على الله تعالى لا على الناس.

أما مخالطة الناس ودعوتهم إلى دينهم ودلالتهم على المحبة والخير وقيم الفضيلة والعلم والحلم فمن أجل المطلوبات وأشرف الواجبات... كذلك مخالطة أهل المحبة فإنها تعين على الطريق وتوصل إلى الجنة.

(١٨) ساقطة.

(١٩) روزنة: كلمة فارسية تعني: كوة. المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، مادة: فزر.

(٢٠) «الحمية رأس كل دواء»: ليس حديثاً نبوياً وإنما هو على الأغلب من كلام طبيب العرب (الحارث بن كلدة) وكان يقول: (رأس الطب الحمية).

وسادسها: ملازمة الذكر: وهو الخروج عن ما سوى الله تعالى بالنسيان. قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[٢١]. أي إذا نسيت غير الله كما هو بالموت، فأما المسهلة بالذكر وهي: كلمة «لا إله إلا الله»، فإنه معجون مركب من النفي والإثبات؛ فبالنفي يزيل المواد الفاسدة التي يتولد منها مرض القلب وقيود الروح وتقوية النفس وتربية صفاتها، وهي الأخلاق الذميمة والنفسانية والأوصاف الشهوانية وتعلقات الكونين، وبإثبات «إلا الله» وبنوره يحصل صحة القلب وسلامته عن الرذائل من الأخلاق الذميمة بانحراف مزاجه الأصلي واستواء مزاجه وتنور روحانيته بنور الله؛ فيتجلى الروح بشواهد الحق وتتجلى ذاته وصفاته؛ وأشرقت أرض النفس بنور ربها، وزالت عنها ظلمات صفاتها؛ ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾[٢٢]، فعلى قضية ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[٢٣] تتبدل الذاكرية بالمذكورية والمذكورية بالذاكرية، فيفنى الذاكر في الذكر ويبقى المذكور خليفة للذاكر، فإذا طلبت الذاكر وجدت المذكور، وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر: [الرمل]

فـإذا أبصـرتـنـي أبـصـرتـه وإذا أبصـرتــه أبصــرتـنـا[٢٤]

وسابعها: الصدق إلى الله تعالى بكلية وجوده، وهو الخروج عن كل داعية تدعوه إلى غير الحق، كما هو بالموت، فلا يبقى له محبوب ولا مطلوب ولا مقصود ولا مقصد إلا الله تعالى. ولو عرض عليه جميع مقامات الأنبياء والمرسلين فلا يلتفت إليها بإعراض عن الله تعالى لحظة. كما قال الجنيد[٢٥] رحمه الله: «**لو أقبل صِدِّيق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فما فاته أكثر مما ناله**»[٢٦].

---

(٢١) سورة الكهف: من الآية ٢٤.

(٢٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

(٢٣) سورة البقرة: من الآية ١٥٢.

(٢٤) ديوان الحلاج.

(٢٥) هو: الجنيد الصوفي أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ أصله من نهاوند، ومولده ونشأته العراق، وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي رضي اله عنهما، وقيل: بل كان فقيها على مذهب سفيان الثوري رضي الله عنه، وصحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهما من جلة المشايخ رضي الله عنهم، وصحبه أبو العباس ابن سريج الفقيه الشافعي، وآثاره كثيرة مشهورة، وتوفي يوم السبت - وكان نيروز الخليفة - سنة سبع وتسعين ومائتين، وقيل: سنة ثمان وتسعين آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله سري السقطي، رضي الله عنهما. وفيات الأعيان، ١/ ٣٧٢-٣٧٤.

(٢٦) جاء في حلية الأولياء: «قال الجنيد لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله». أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٤/ ١٤٠٥هـ، ١٠/ ٢٧٨.

رسالة في الطريق إلى الله للشيخ العلامة نجم الدين الكبرى -رحمه الله- (٦١٨هـ-١٢٢١م)

وثامنها: الصبر: وهو الخروج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابدة، كما هو بالموت، والثبات على فطامها عن مألوفاتها ومحبوباتها، بتزكيتها وخمودها وشهواتها، والاستقامة على الطريقة المثلى، فتصفية القلب وتخلية الروح: قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٢٧].

وتاسعها: المراقبة: وهو الخروج عن حوله وقوته، كما هو بالموت، مراقبا لمواهب الحق، معترضا لنفحات ألطافه، معرضا عما سواه، مستغرقا في بحر هواه، مشتاقا إلى لقائه، إليه يحن قلبه، لديه بان روحه به يستعينه عليه، وبه يستغيث إليه؛ حتى يفتح له باب رحمة رحمة لا ممسك لها ويغلق عليه باب عذاب لا فتح له، فيفوز بنور ساطع من الله رحمة الله على النفس تزول ظلمة أماراتها في لحظة، ما لا تزول في ثلاثين سنة بالمجاهدات والرياضات، كما قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[٢٨]. وهم الأخيار، بل تبدل سيئات النفس بحسنات الروح، لقوله تعالى: ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ ﴾[٢٩]. وهم الأبرار، بل تكون حسنات الأبرار سيئات المقربين بحسنات ألطاف الحق ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وعاشرها: الرضا: وهو الخروج عن رضى النفس بالدخول في رضا الله تعالى بالتسليم للأحكام الأزلية، والتفويض إلى [تدابيره][٣٠] الأبدية بلا إعراض ولا اعتراض كما هو بالموت.

قال بعضهم: [الطويل]

وكلت إلى المحبوب أمري كله ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

فمن يموت بإرادة عن هذه الأوصاف الظلمانية يحييه الله بنور عنايته كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى الظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[٣١]. أي من كان ميتا بأوصاف نفسه الظلمانية في شجرة الإنسانية أحييناه بأوصافنا الربانية ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ ﴾، أي: بذلك النور في [سائر][٣٢] الناس يمشي بالفراسة ويشاهد أحوالهم ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى الظُّلُمَٰتِ ﴾ أي كمن بقي في ظلمات شجرة الإنسانية ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ لا بزهرية المؤمنية، ولا بثمار الولاية والنبوة.

---

(٢٧) سورة السجدة: الآية ٢٤.

(٢٨) سورة يوسف: من الآية ٥٣.

(٢٩) سورة الفرقان: من الآية ٧٠.

(٣٠) في المخطوط: تدبير، لكن المعنى يستقيم ب:تدابيره.

(٣١) سورة الأنعام: من الآية ١٢٢.

(٣٢) في المخطوط: «سرائر»، لكن المعنى يستقيم بـ«سائر».

تمت الرسالة بحمد الله تعالى وعونه.

وعلى حاشية الصفحة الأخيرة من المخطوطة هذه الأبيات: [الرمل]

راحتي يا إخوتي في وحدتي وبـلائـي كـلـه مـن رفـقـتـي

كـلـمـا عـاشـرت قـومـا مـدة نقضوا عهدي وخانوا صحبتي

وإذا مـا جئتهم معتذرا كشفوا رأيـي وباعوا خرقتي

مـا اعـتـزالـي عنهم من ملل بل وجدت العز لي في عزلتي.



رسالة في الطريق إلى الله للشيخ العلامة نجم الدين الكبرى -رحمه الله- (٦١٨هـ- ١٢٢١م)